الإمام عليّ والعلويّون

عليّ محمّد الموسى

عليّ محمّد الموسى

الإمام عليّ والعلويّون

-دراسة وتاريخ وتراجم



الطبعة الأولى

دمشق ٥/٢٠٠٢ م

موافقة وزارة الإعلام: ٢٥٠٣٢

التاريخ: ١٩٩٥/٢/٨

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

المسلمون العلويّون أصحاب طريقة صوفية شأنهم شأن أصحاب الطرق الصوفية في الإسلام تعبّدوا بها منذ القرن الثالث الهجريّ في خضم المحيط الإسلامي الممتد من المحيط الأطلسيّ غرباً إلى الصين شرقاً يتكاثرون في ظل الحرية الفكرية والدينيّة ، ولمّا تعرّض هذا الوطن الكبير للغزوات الأجنبيّة ، التي مزقت العرب والمسلمين وأشاعت الكره والحقد والتعصب بين فئات الشعب ليسهل حكمه ونهب خيراته . في هذا الجوّ الطافح بالجهل واندثار الوعي وتغليب المصالح الخاصّة على المصلحة العامّة حورب التشيّع عبر مراحل متعدّدة من عمر العرب والمسلمين ، والعلويّون مسلمون شيعة إماميّون تعرّضوا للقتل والإفناء والحصار في جبال اللاذقية فعزلوا عمّن حولهم قروناً عديدة حتى هُيِّئت لهم أسباب النهضة العلمية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي فاتّخذوا من المساجد مدارس للعلم والعرفان ، ثم شاركوا في الحرب العالمية الأولى فانفتحوا على محيطهم وعمّن حولهم وأحسّوا بانتمائهم --لوطن مستقل بعد رحيل الأتراك ، ولكنهم دُهوا بنزول الجيوش الفرنسية على ساحل وطنهم فهبّوا بأوّل ثورة سورية ضد المحتل الفرنسي البغيض ودامت ثورتهم ثلاث سنوات من ١٩١٨ ـ ١٩٢١ ، وحينما فرض الفرنسيون قيام دولة علويّة في الساحل رفض أحرارهم هذه الدولة وطالبوا بتوحيد سورية المجزّأة في دولة واحدة ، وقد تصدّوا لمبدأ الفرنسيين في المعاملة «فرّق تسد» وأثبتوا أنهم وطنيون مخلصون وعرب أقحاح ، وبعد رحيل الأجنبي عام ١٩٤٦ ساهموا مثل باقي فئات الشعب في النهوض بوطنهم وجاءت ثورة آذار عام ١٩٦٣ ، وأسهمت هذه الثورة ، وبمسؤولية واعية على إزالة الفوارق بين أبناء المجتمع . وفي ١٢/ ٣/ ١٩٧١ أصبح الفريق الجوي حافظ الأسد رئيساً للجمهورية العربيّة السوريّة وهو مسلم علوي من مدينة القرداحة في محافظة اللاذقية ، فسار ببلده في مضمار التطوّر والتقدّم حتى انتقل إلى جوار ربه في ١٠/ ٦/ ٢٠٠٠م ، وقد اختارت الأمّة نجله بشار الأسد ليدعّم مسيرة والتقدم والاستقرار فأقسم اليمين الدستورية رئيساً للبلاد في ١٧/ ٧/ ٢٠٠٠م .

هذا الاستقرار السياسيّ والتطوّر الحضاري حدث بفضل الوحدة الوطنية وبتلاحم فئات الشعب حيث انفتحت النفوس على بعضها بعضاً وتعاونت لتبني الوطن وتعلي صرح الحضارة فيه ، وفي هذا الجو المنفتح أصبحت هذه النفوس قابلة لمعرفة آداب وتاريخ فئات كان محظوراً عليها التصريح أو التعريف بآدابها وتواريخها وفضائلها .

ووطني سورية كان عبر تاريخه الطويل متفهماً لواقع سكانه ، يقبل العيش الكريم لأبنائه تحت ظل الإخاء والتعاون والمحبة .

ولا نريد الخوض في تاريخ فترات فرضها عليه الأعجميّ والأجنبيّ بهمجيتهما ووحشيتهما وتعصبهما وجهلهما واستغلالهما الكريه ، فنحن أبناء العروبة العريقة بفضائلها وآدابها ، والإسلام السمح الكريم ، والمسيحية الرحيمة الحنون .

وهذا الكتاب: **الإمام عليّ والعلويّون** ، دفقة نور في ضياء الإسلام المنتشر في كل أصقاع المعمورة لعلّي أضيء به جانباً من تاريخ أمتنا العريقة كانت أقيمت في طريق انتشاره سدود كسد الصين الكبير أو هي أكبر ، وأكثر بعداً وأعظم عمقاً .

وتاريخ العلويّين أرض بكر خصبة لم يحرث فيها إلاّ القلائل ، وما زالت هناك كنوز مدفونة في هذه الأرض تنتظر من يستخرج نفائسها ويعرضها على العالمين . وقد حرثت في هذه الأرض بقدر علمي وطاقتي وقناعتي متوخياً الصدق والصواب والحقيقة بدون زيغ أو ميل ، فإن كانت هناك بعض شطحات الخيال لا تحظى بتأييد بعض من يطالعها فعذري أنها من الموروثات .

وقد قال العلاّمة حسين ميهوب حرفوش: «ومع علمي بأن الغائص ببحر التصنيف والسالك نهج التأليف لا يخلو من حاسد في قلبه مرض ، ومعاند لا يستقيم له غرض ، فيخرجان بظهر الغيب وهو غير شاهد ، ويحرّفان وجه كلامهما إلى غرضهما الفاسد ، وأعوذ بالله من أن يقع كتابي هذا إلى من هذه صفته ، وبفضله تعالى الصواب ، وإليه المآب ، آمين .»

إلى أبناء أمتي من المحيط إلى الخليج أقدّم هذه الحقيقة .

عليّ محمّد الموسى .

الفصل الأوّل

الانتماء إلى دوحة الإسلام العظيم

أبدأ القول بفتوى السّادة العلماء العلويّين التي نشرت عام ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م، أثناء فترة الاستعمار الفرنسي البغيض الذي كان هدفه تمزيق الشعب العربي في سورية إلى طوائف متناحرة متقاتلة ليصفو له الجوّ فيحكم حسب أهوائه وينهب خيرات بلادنا بدون معارض أو غيور على مصالح شعبه ووطنه. ولكن السّادة العلماء العلويّين تصدّوا للمستعمر وردّوا طروحاته المفرّقة بين الأمّة وشعاره الأكبر: فرّق تَسُدْ.

وكان ردّهم الذي كبته وأصمى فؤاده: **«إن الدّين عند الله الإسلام، ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين»، ﴿قل يا أهل الكتاب تعالَوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون﴾***.

ثم يبيّن السادة العلماء صفوة العقيدة الإسلاميّة العلوية فيقولون: «صفوة عقيدتنا ما جاء في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

بسم الله الرحمن الرحيم: **﴿قل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفواً أحد»**. **وإنّ ملهبنا في الإسلام هو ملهب الإمام جعفر الصادق عليه السّلام، والأئمّة الطاهرين عليهم السّلام سالكين بذلك ما أمرنا به خاتم النبيّين سيّدنا محمّد بن عبد الله رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم حيث يقول: «إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم به لن تضلّوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر: كتاب الله حبل مشدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما﴾**.

هذه عقيدتنا نحن العلويّين أهل التوحيد، وفي هذا كفاية لقوم يعقلون. ثم تواقيع السادة العلماء.[1]

وأثنّي بقسم من البيان الذي أصدره الأديب العلاّمة الشّيخ سليمان الأحمد عضو مجمع اللغة العربيّة في دمشق[2] «رضيتُ بالله تعالى ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن كتاباً وبمحمّد

---

* القرآن الكريم

ابن عبد الله رسولاً ونبياً، وبأمير المؤمنين عليّ عليه السّلام إماماً، برئت من كل دين يخالف دين الإسلام، وأشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله». هذا ما يقوله كل علويّ لفظاً واعتقاداً ويؤمن به تقليداً واجتهاداً.

وأثلّث مورداً نص المرسوم التشريعي رقم (٣) الصادر عن رئيس الجمهورية السوريّة عام ١٩٥٢، الذي يتضمن الاعتراف بمذهب آل البيت عليهم السّلام بعد أن طالب العلماء العلويّون الحكومة السوريّة آنذاك بالاعتراف بهذا المذهب:

«إن رئيس الدولة بناءً على... وعلى وجود عدد كبير من أهالي محافظة اللاذقية على المذهب الجعفريّ وعلى اقتراح المفتي العام يرسم ما يلي: المادة الأولى: يُضاف إلى المادة الثالثة من المرسوم التشريعي رقم (٣٣) الفقرة التالية: تؤلف لجنة خاصة بالجعفريين من علمائهم في مركز محافظة اللاذقية قوامها ثلاثة أشخاص من العلماء الجعفريين، ويضاف إليهم شخص واحد عن كل قضاء عندما يتعلق البحث في قضائه ويسمّى أعضاء هذه اللجنة بقرار من المفتي العام من العلماء الأكفاء مهمتها فحص حالة المتزينين بالكسوة الدينيّة على المذهب الجعفري، والذين يرغبون ارتداء هذه الكسوة، وإقرار من يحق له الاحتفاظ بها ومنع من تتحقق اللجنة من أنه دخيل على سلك رجال الدين من ارتدائها.

المادة الثانية: ينشر هذا المرسوم التشريعي ويبلغ من يلزم.[٣]

[٣] دمشق في ١٥/ حزيران/ ١٩٥٢

الزعيم فوزي سلو»

وهذا إقرار من شيخ الطائفة العلوية الأكبر أبي عبد الله الحسين بن حمدان الخصيبيّ المتوفى عام ٣٤٦هـ وفي قول آخر عام ٣٥٨هـ:

«الحمد لله مبدئ الحمد وباريه ومقدّره وقاضيه، والأمر به وراضيه. وهو الله الذي نشهد أن لا إله إلاّ هو وحده لا شريك له في ملكه وأن محمّداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون. اللهم أنزل زاكيات صلواتك، ومكرمات بركاتك، وتحنّن رأفتك، وواسع رحمتك، وطيّبات تحيّاتك، وفوز جناتك على محمّد عبدك ورسولك ونبيّك وصفوتك وخيرتك من خلقك، وعلى عليّ أخيه أمير المؤمنين ونور العارفين، وإمام المتّقين وقائد الغرّ المحجّلين، وأفضل الوصيّين، والأئمّة الراشدين».[٤]

هذه هي عقيدة العلويّين:

إنهم مسلمون إماميّون، كتابهم القرآن الكريم، ودينهم الإسلام الحنيف، ونبيّهم الرسول الكريم الأميّ محمّد بن عبد الله عليه وعلى آله الصلاة والسّلام.

واعتقادهم باثني عشر إماماً من آل البيت الأطهار، أولهم الإمام علي بن أبي طالب عليه السّلام، الوصي، الأمين، المرتضى، وآخرهم الإمام محمّد بن الحسن (الحجّة) الإمام المهدي المنتظر عليهم السّلام.

وهم يعتمدون أصول الشريعة الإسلاميّة ويطبقون أحكامها وفق مذهب الإمام السادس جعفر الصادق عليه السّلام.

وبمقدار ما يعتزّون بالإسلام فإنهم يفخرون بعروبتهم وبانتسابهم إلى الذروة الغرّاء من العرب، بل يغالون في عروبتهم وكأنهم يريدون أن تكون محتكرة لهم ومختصّة بهم وحدهم. قال مؤلّف كتاب «العلويّون بين الأسطورة والحقيقة»: **«العلويّون أمّة عربية لم تنفصل عن العرب والعروبة في عهد من العهود، وقد استطاعت الأيّام والحوادث أن تسلبها شوكتها وعزّتها لكنها لم تستطع أن تسلبها أنسابها ولا لغتها ولا تاريخها ولا تقاليدها وقد رُزئت في كل شيء إلاّ في أخلاقها ومزاياها النفسيّة الحسنة. اصطبغت أكثر الشعوب بشتّى الصبغ، وتزينت بمختلف الأزياء ما عدا العلويّين، فإنهم لم يصطبغوا بغير صبغتهم العربيّة ولم يتزيّوا بغير زيّهم الشرقي».** [٥]

ويقول الدكتور مصطفى الشكعة مؤلّف كتاب «إسلام بلا مذاهب»: «ويتكوّن العلويّون من عشائر عربية متعدّدة خالصة جاءت إلى المنطقة (جبال اللاذقية) في شكل هجرات جماعية حيناً، وفردية حيناً آخر وكان أكثر هذه الهجرات بطبيعة الحال وأغزرها في القرنين الرابع والخامس حيث وفد أكثرها من عرب العراق الذين جاؤوا إلى هذه المنطقة واحتموا بجبالها فراراً - على ما نعتقد - من الاضطهاد الذي كان يحلّ ببعض الفرق الغالية». [٦]

ومما يؤكّد تمسّك العلويّين منذ البدء بعروبة الإسلام فتوى العلاّمة الموحّد الشّيخ عيد الصّالح آل يوسف بشمان، وكان ثقة عصره، وذلك عندما اجتمع إليه وجوه النّاس من جبال الساحل السوريّ يسألونه عن الجهة التي يستطيعون الاطمئنان إليها: أهي دولة العثمانيّين التي أخذت تمسّك بعصا التّرحال عنهم، أم هي الفرنجة التي أخذت تمسّك بعصا التسلّل

إليهم؟ فقال لهم ما معناه: لقد استشاروني فيما إذا كنت أقبل عمل المستشار الدينيّ عنكم لديهم فأبيت، واليوم أقول لكم:

أمــن دولــة ضــاق الـحـمـى بـذئـابـهـا
إلـى دولــة تـلـطـي الأفـاعـي بـبـابـهـا
ولـكـنّـنـا مـن مـسـلـمـيـن تـمـسّـكـوا
بـدولــة «طـوبـى» آلـهـا وصـحـابـهـا

«ويؤكّد الشّيخ عبد الرحمن الخيّر عروبة العلويّين وتمسكهم بالإيمان بالإسلام فيقول: «العلويّون مسلمون إماميّون وعرب أقحاح، قضت عليهم أسباب جمّة؛ أهمها ضغط بعض الحكام الظالمين في عصور التاريخ الإسلامي أن يتجمعوا في جبال هذه البلاد (جبال اللاذقية) منذ بضعة قرون ونيّف ملتجئين من جور السياسة الخرقاء والتعصّب الأعمى إلى أحراج البلاد ومعاقلها المانعة، وإلى التكتّم في إقامة شعائرهم الإسلاميّة الخاصّة، والتساهل في التظاهر ببعض شعائر الأقوياء المسيطرين يومئذ حفظاً لكيانهم الطائفيّ وحقناً لدمائهم، وعلى توالي الأيّام أصبح التكتّم شبه غريزة فيهم».

«وأبين ما عرف به العلويّون تخصّصهم للاشتغال الدائم منذ أقدم أيامهم حتى اليوم بعلم التوحيد؛ أي معرفة الله تعالى بالبراهين العقلية المستندة إلى الشواهد النقليّة من نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف وروايات الأئمّة من آل الرسول عليه وعليهم أفضل الصلاة والسّلام».

«مؤلّفاتهم جميعها تدور تقريباً حول المسائل الآتي بيانها:

إثبات وجود الخالق سبحانه بالمعقول والمنقول. إثبات النبوّة عن طريق البرهان والدليل. إثبات الإمامة بالحجج العقليّة والنقليّة. اللفظ والمعنى وعلاقتهما بصفات الخالق. وجوب صفات الكمال للباري تعالى. تنزيهه عن صفات المحدثات أصل الشر. آداب العبادات والرياضة الروحيّة. المعاد. حدوث الكون وفناؤه».

«وعصر الانحطاط قد شوّه مظاهر هذه المؤلّفات القيّمة بالنّساخة والتعليق حيث حذف منها وأضيف إليها.. ولئن أحجم علماؤنا عن إصلاح ما فيها من غموض خوفاً من سهام النقد أو من تقوّلات بعض الجهلاء، وهرباً من الظهور والشهرة كما هي عادتهم فإن النشء

المتعلّم تعليماً صحيحاً، والدارس دراسات عالية صحيحة لا زائفة سيجنح إلى تأدية هذا الواجب الشريف فيؤدي بذلك ما في عنقه من أمانة واجبة التأدية».

«من كتاب: يقظة المسلمين العلويّين في مطلع القرن العشرين ص١٢ ـ ١٣ ـ ١٤ ـ ١٥ للشيخ عبد الرحمن الخيّر».

المراجع

١ ـ الهداية الكبرى ص١٨ .

٢ ـ الهداية الكبرى ص٢١ .

٣ ـ الهداية الكبرى ص٢٣ .

٤ ـ الهداية الكبرى ص٢٩ ـ ٣٠ ت ٣١ .

٥ ـ العلويّون بين الأسطورة والحقيقة ص١٩٨ .

٦ ـ إسلام بلا مذاهب ، مصطفى الشكعة ص٣٠٢ .

٦ مكرر ـ مستدرك خير الصنيعة ، إبراهيم حرفوش . مخطوط .

و ـ معجم المؤرّخين العرب ، منذر حمّودي . مخطوط .

الفصل الثاني

عليّ بن أبي طالب عليه السلام

من لـــم يكن علـــوياً حين تنسبـــه   فما لَهُ في قديم الدهر مفتخر*

عندما ينعت شخص نفسه بأنه علوي فإنه يفعل ذلك مباهاةً، ومفاخرةً إذ يذهب بنفسه إلى أنه من أتباع **الإمام عليّ** بن أبي طالب أمير المؤمنين عليه السّلام، ومن أنصاره، أو من مريديه، وأحبّائه، أو من المؤمنين بإمامته ووصايته، وبتسلسل الأئمّة من ذرّيّته.

يفخر بعلويته لأن إمامه «علياً عليه السّلام» حاز فضل السَّبق في كل أمر حسن وجميل وعظيم وكريم وحميد ونبيل. يفخر بمزايا وفضائل **الإمام عليّ** عليه السّلام فيجلّهُ ويعظّمهُ ويكرّمهُ ويحترمه ويقدّره فيسمو به ويتسامق بعظمته وفضله، ويجلّ علمه وفقهه وتمكّنَهُ في دينه، ويعجب بشجاعته وقوته وقدراته القتاليّة الفائقة. والإنسان معجبٌ بأخيه الإنسان إذا كان يمتلك مزيّة تميّزه عن أقرانه ونظرائه، فكيف إذا كان يملك مزايا جمّة تكاد لا تعد ولا تحصى كالميزات التي كان يمتلكها **الإمام عليّ** بن أبي طالب عليه السّلام. والنّاس يفتنون بالبطل في كل صورة من صور البطولة، فكيف إذا كان البطل علي! عليه السلام يمتلك كل صور البطولة وأزهى هذه الصور الشجاعة والإقدام والقوة والعلم والبلاغة والفصاحة والعدل والزهد والمساواة بين النّاس، والفقه في الدين، والقناعة...

ولأعد بك إلى الوراء إلى بدايات الإسلام الأولى: هذا شيخٌ جليل القدر، مهابٌ يستند إلى جدار الكعبة وبجواره رجل اسمه عُفيف الكنديّ يحاوره، ويسأله عن مكّة وأحوالها لأنه ليس من أبنائها، الشّيخ الجليل هو أبو طالب زعيم أسرة بني هاشم وكبيرها وسيّدها وممثّلها بين عائلات مكّة الغنيّة المترفة في جاهليّة العرب قبل الجهر بدعوة الإسلام بقليل. وينظر عُفيف الكنديّ أمامه فيرى ثلاثة أشخاص يصلّون في حجر الكعبة بصلاة لم يرها في قريش من قبل فيسأل الشّيخ مستغرباً أمر صلاة الثلاثة فيجيبه أبو طالب:

---

* أبو النواس الحسن بن هانيء

أتدري من هؤلاء؟

فقال عُفيف: لا. ويقول الشّيخ: هذا ابن أخي محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب، وهذا ابني عليّ بن أبي طالب، وهذه المرأة خلفهما خديجة بنت خويلد زوجة محمّد ابن أخي، وايم الله، ما أعلم على الأرض كلّها أحداً على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة.[٧]

لمَ كان عليّ عليه السلام وهو صغير مع محمّد ﷺ ولم يكن مع والده وبجواره؟

لأن محمّداً ﷺ ضمّ علياً إليه وهو صغير بسبب أزمة اقتصادية أصابت قريشاً وكان أبو طالب ذا عيال كثير، فقال رسول الله ﷺ للعباس، وكان من أيسر بني هاشم: يا عبّاس: إن أخاك أبا طالبٌ كثير العيال، وقد ترى ما أصاب النّاس من هذه الأزمة، فانطلق بنا فلنخفّف عنه من عياله، آخذ من بيته واحداً وتأخذ واحداً فنكفيهما عنه. فقال العباس: نعم.

فانطلقا حتى اتيا أبا طالب فقالا له: إنّا نريد أن نخفّف عنك من عيالك حتى ينكشف عن النّاس ما هم فيه.

فقال لهما: إن تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما. فأخذ رسول الله ﷺ علياً عليه السلام فضمّه إليه، وأخذ العبّاس جعفراً رضي الله عنه، فضمّه إليه.

فلم يزل عليّ بن أبي طالب عليه السلام مع رسول الله ﷺ وآله حتى بعثه الله نبياً فاتّبعه (عليٌّ) عليه السّلام فأقرّ به وصدّقه، ولم يزل جعفر عند العبّاس حتى أسلم واستغنى عنه.[٨]

وروي عن جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام قال: كان عليٌّ عليه السّلام يرى مع رسول الله ﷺ قبل الرسالة الضوء ويسمع الصوت، وقال له صلّى الله عليه وآله:

«لولا أني خاتم الأنبياء لكنت شريكاً في النبوة، فإن لا تكن نبياً فإنك وصيّ نبيّ ووارثه، بل أنت سيد الأوصياء وإمام الأتقياء».[٩]

نعم لقد كانت تربية عليّ عليه السلام على يد فاضت رحمة ونورا.

لقد ضمّ الرسول الكريم ﷺ علياً إليه فنشأ في بيته يشرف على تربيته وتعليمه وتدريبه وإعداده لمستقبل عظيم سيقوم على شجاعته وقدرته وذكائه وفطنته. لقد أحبّ عليّ عليه السلام محمّداً ﷺ حبّاً جمّاً فقلّده في أقواله وأفعاله والتزمه في عسره ويسره، وصدّقه وآمن به حينما عرض عليه الإسلام وانتشى فخراً وهو يصلّي وراءه في وقت كفر به قومه وكذّبوه

بحبل القرآن، يُحيون سُنن الله، وسُنن رسوله، لا يستكبرون ولا يَعْلُون، ولا يَغُلُّون ولا يُفسدون قلوبهم في الجنان، وأجسادهم في العمل.(١٢)

وقال عليٌ عليه السلام متحدثاً عن نفسه:

«نحن الشّعارُ والأصحاب، والخَزَنة والأبواب؛ ولا تؤتى البيوت إلاّ من أبوابها؛ فمن أتاها من غير أبوابها سُمّي سارقاً».

قال ابن ابي الحديد: وهذا حقٌّ ظاهراً وباطناً؛ أمّا الظاهر فلأن من يتسوّر البيوت من غير أبوابها هو السارق، وأمّا الباطن فلأن من طلب العلم من غير أستاذ محقّق فلم يأته من بابه فهو أشبه شيء بالسارق.(١٣)

وذكر ابن أبي الحديد الأحاديث والأخبار الواردة في فضائل عليّ ﷺ، منقولة عن أئمّة الحديث وعلمائه الذين لا يتّهمون فيه.(١٤)

الخبر الأوّل: «يا عليّ إنّ الله قد زيّنك بزينة لم يزيّن العباد بزينة أحبّ إليه منها، هي زينة الأبرار عند الله تعالى: الزهد في الدنيا جعلك لا ترزأ من الدنيا شيئاً، ولا ترزأ الدنيا منك شيئاً، ووهب لك حبّ المساكين فجعلك ترضى بهم أتباعاً؛ ويرضون بك إماماً». رواه أبو نعيم الحافظ في كتابه المعروف بـ (حلية الأولياء) وزاد فيه أبو عبد الله أحمد بن حنبل في المسند: «فطوبى لمن أحبّك وصدّق فيك، وويلٌ لمن أبغضكَ وكذّب فيك».

الخبر الثاني: قال لوفد ثقيف: «لتسلمنّ أو لأبعثنّ إليكم رجلاً منّي، أو قال: عديل نفسي، فليضربنّ أعناقكم وليسبينّ ذراريكم، وليأخذنّ أموالكم». قال عمر: «فما تمنّيت الإمارة إلاّ يومئذ، وجعلت أنصب له صدري رجاء أن يقول: هو هذا. فالتفتَ فأخذ بيد (عليّ) وقال: هوَ هذا!..» مرّتين.

رواه أحمد في المسند ورواه في كتاب (فضائل عليّ) ﷺ أنه قال: «لتنتهنّ يا بني وليعة أو لأبعثنّ إليكم رجلاً كنفسي يمضي فيكم أمري يقتل المقاتلة ويسبي الذريّة» قال أبو ذرّ: فما راعني إلاّ برد كفّ عمر في حُجزتي (موضع الإزار) من خلفي يقول: مَن تراه يعني؟ فقلت: إنه لا يعنيك وإنما يعني خاصف النعل. وإنه قال: «هو هذا».

الخبر الثالث: «إن الله عهد إليّ في عليّ عهداً، فقلت: يا ربّ بيّنه لي، قال: اسمع، إن عليّاً راية الهدى، وإمام أوليائي، ونور من أطاعني، وهو الكلمة التي ألزمتها المتّقين.

مَن أحبّه فقد أحبّني ، ومن أطاعه فقد أطاعني فبشّره بذلك . فقلت : قد بشّرته يا ربّ ، فقال : أنا عبد الله وفي قبضته ، فإن يعذبني فبذنوبي لم يظلم شيئاً ، وإن يتمّ لي ما وعدني فهو أولى ؛ وقد دعوت له فقلت : اللهمّ اجْلُ قلبه ، واجعل ربيعه الإيمان بك قال : قد فعلت ذلك ، غير أني مختصه بشيء من البلاء لم أختصّ به أحداً من أوليائي . فقلت : ربّ أخي وصاحبي ! . . قال : إنه سبق في علمي ، إنه لمبتلٍ ومُبتَلًى» . ذكره أبو نعيم الحافظ في حلية الأولياء ، عن أبي برزة الأسلمي ثم رواه بإسناد آخَر عن أنس بن مالك وبلفظ آخر : «إن ربّ العالمين عهد في علي ، إليّ عهداً إنه راية الهدى ومنار الإيمان وإمام أوليائي ، ونور جميع من أطاعني ، إن علياً أميني غداً في القيامة وصاحب رايتي ، بيد عليّ مفاتيح خزائن رحمة ربّي» .

الخبر الرابع: «من أراد أن ينظر إلى نوح في عزمه ، وإلى آدم في علمه ، وإلى إبراهيم في حلمه ، وإلى موسى في فطنته ، وإلى عيسى في زهده ، فلينظر إلى عليّ بن أبي طالب» رواه أحمد بن حنبل في المسند ورواه البيهقي في صحيحه .

الخبر الخامس: «مَن سرّه أن يحيا حياتي ، ويموت ميتتي ، ويتمسّك بالقضيب من الياقوتة التي خلقها الله تعالى بيده ثم قال لها : كوني فكانت ، فليتمسّك بولاء عليّ بن أبي طالب» . ذكره أبو نعيم الحافظ في كتاب حلية الأولياء ورواه ابن حنبل في كتاب «المسند» وفي فضائل عليّ بن أبي طالب وحكاية لفظ أحمد رضي الله عنه : «من أحبّ أن يتمسّك بالقضيب الأحمر الذي غرسه الله في جنّة عدن بيمينه ، فليتمسّك بحبّ عليّ بن أبي طالب» .

الخبر السادس: «والذي نفسي بيده ، لولا أن تقول طوائف من أمّتي فيك ما قالت النّصارى في ابن مريم ، لقلت اليوم فيك مقالاً لا تمرّ بملأ من المسلمين إلاّ أخذوا التراب من تحت قدميك للبركة» . ذكره ابن حنبل في المسند .

الخبر السابع: خرج النبيّ ﷺ وآله على الحجيج عشيّة عَرَفَة فقال لهم : «إن الله قد باهى بكم الملائكة عامّة ، وغفر لكم عامّة ، وباهى بعليّ خاصّة ، وغفر له خاصّة إنّي قائل لكم قولاً غير محاب فيه لقرابتي ، إن السّعيد كل السّعيد ، حقّ السّعيد من أحبّ علياً في حياته وبعد موته» . روّاه أحمد بن حنبل في كتاب فضائل عليّ عليه السلام وفي المسند أيضاً .

الخبر الثامن: رواه أبو عبد الله أحمد بن حنبل في الكتابين المذكورين :

وآذوه حينما دعاهم إلى عبادة الله الواحد الأحد، وكان ينافح عنه بلسانه ويده وسيفه، فهو في المعارك دائماً يراه أمامه وخلفه ويمينه ويساره، مانعاً الأعداء من الاقتراب منه وبخاصّة في موقعة (أحد) حيث أبعد عنه الذين هجموا عليه يريدون قتله والتخلّص منه فلم يصلوا للرسول الكريم لأنّ عليّاً عليه السلام كان يرديهم قبل أن يصلوا إليه ويجندلهم قبل أن يتناولوه بطعنة رمح أو ضربة سيف.

وفي كل موقعة كان يقتل أعداء الإسلام حيث قتل في معركة «بدر» نصف قتلى المشركين.

في هذه المعركة قتل ٢٢ شخصاً منهم، وقتل باقي المسلمين العدد الآخر.

وفي «أُحُد» قتل مثل هذا العدد، وقد جندل في معركة «الخندق» بطل قريش عمرو بن ودّ◆ ممّا أكسبه مكانة كبيرة في قلوب المسلمين فأحبّوه وأعجبوا به وأعلوا من شأنه لصفاته الجمّة الحميدة التي كان يتمتّع بها ولقربه من الرسول ﷺ الذي كان يعتمد عليه في تذليل الصعاب وقهر المشركين.

وعندما نزل قول الله تعالى في الحديث عن النبيّ موسى عليه السلام وأخيه هارون: ﴿**واجعل لي وزيراً من أهلي. هارون أخي اشدد به أزري. وأشركه في أمري**﴾ قال النبيّ ﷺ وآله في الخبر المجمع على روايته بين سائر فرق الإسلام، قال لعليّ:

«أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي». فأثبت له جميع مراتب هارون عن موسى. فإذن هو وزير رسول الله ﷺ وآله، وشادّ أزره، ولولا أنه كان خاتم النبيّين لكان شريكاً في أمره». (١٠)

وروى أبو جعفر الطبريّ: أن رجلاً قال لعليّ عليه السلام يا أمير المؤمنين، بمَ ورثت ابن عمك؟ فقال عليّ عليه السلام هاؤمّ، ثلاث مرّات حتى اشرأبّ النّاس، ونشروا آذانهم، ثم قال:

جمع رسول الله ﷺ وآله بني عبد المطلب بمكّة وهم رهطه كلّهم يأكل الجَذَعة ويشرب الفرْق، فصنع مُدّاً من طعام حتى أكلوا وشبعوا وبقي الطّعام كما هو، كأنّه لم يُمس، ثم دعا بغُمر (قدح صغير) فشربوا ورووا، وبقي الشراب كأنه لم يشرب، ثم قال: يا بني عبد

◆ كان عمر بن ودّ يترّس بحصانة إذا فقد ترسه (بحسب كتاب سيف الله) للجنرال الباكستاني أكرم

المطلب، إني بُعثت إليكم خاصة، وإلى النّاس عامّة، فأيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي ووارثي؟ فلم يقم إليه أحد، فقمت إليه، وكنت من أصغر القوم، فقال: اجلس ثم قال ذلك ثلاث مرات، كل ذلك أقوم إليه فيقول: اجلس، حتى كان في الثالثة فضرب بيده على يدي فعند ذلك ورثتُ ابن عمّي دون عمّي.(١١)

وخطب الإمام عليّ عليه السلام مرّة فقال:

«ولقد كنت معه صلّى الله عليه وآله لمّا أتاه الملأ من قريش فقالوا له: يا محمّد إنك قد ادّعيت عظيماً لم يدّعه آباؤك ولا أحد من بيتك، ونحن نسألك أمراً إن أنت أجبتنا إليه وأريتناه، علمنا أنّك نبيٌّ ورسول، وإنْ لم تفعل علمنا أنّك ساحرٌ كذّابٌ. فقال صلّى الله عليه وآله: وما تسألون؟

قالوا: تدعو لنا هذه الشجرة حتى تنقلع بعروقها وتقف بين يديك.

فقال ﷺ وآله: إن الله على كل شيء قدير، فإن فعل الله لكم ذلك، أتؤمنون وتشهدون بالحقّ؟

قالوا: نعم.

قال: فإني سأريكم ما تطلبون، وإني لأعلم أنكم لا تفيئون إلى خير، وأن فيكم من يُطرح في القليب، ومن يُحزّب الأحزاب. ثم قال ﷺ وآله: يا أيتها الشجرة إن كنت تؤمنين بالله واليوم الآخر، وتعلمينَ أني رسول الله فانقلعي بعروقك حتى تقفي بين يديّ بإذن الله.

والذي بعثه بالحقّ لانقلعت بعروقها، وجاءت ولها دويٌّ شديد، وقصفٌ كقصف أجنحة الطير، حتى وقفت بين يدي رسول الله ﷺ وآله مرفرفةً وألقت بغصنها الأعلى على رسول الله ﷺ وآله وببعض أغصانها على منكبي؛ وكنت عن يمينه ﷺ وآله، فلما نظر القوم إلى ذلك، قالوا علواً واستكباراً: فمُرْها فليأتكَ نصفُها؛ ويبقى نصفها، فأمرها، فأقبل إليه نصفها كأعجب إقبال وأشدّه دويّاً، فكادت تلتفّ برسول الله ﷺ وآله، فقالوا كفراً وعتوّاً: فمُرْ هذا النصف فليرجع إلى نصفه كما كان، فأمره ﷺ وآله، فرجع، فقلت أنا: لا إله إلاّ الله؛ إنّي أوّل مؤمن بك يا رسول الله، وأوّل من أقرّ بأن الشجرة فَعَلَتْ ما فعلت بأمر الله تعالى تصديقاً بنبوّتك وإجلالاً لكلمتك. فقال القوم كلهم: بل ساحرٌ كذّاب، عجيب السّحر خفيفٌ فيه؛ وهل يصدقك في أمرك إلاّ مثل هذا؟ - يعنوني، وإني لمن قوم لا تأخذهم في الله لومةُ لائم؛ سيماهُم سيما الصّدّيقين، وكلامهم كلام الأبرار؛ عُمّار اللّيل، ومنار النهار، متمسكون

«أنا أوّل من يُدعى به يوم القيامة، فأقوم عن يمين العرش في ظلّه، ثم أكسى حلّة، ثم يُدعى بالنبيّين بعضهم على أثر بعض فيقومون عن يمين العرش ويكسون حُللاً ثم يُدعى بعليّ بن أبي طالب لقرابته منّي ومنزلته عندي ويُدفع إليه لوائي، لواء الحمد، آدم ومَن دونه تحت ذلك اللواء» ثم قال لعليّ: «فتسير به حتى تقف بيني وبين إبراهيم الخليل ثم تُكسى حلّة وينادي منادٍ من العرش: نعم العبد، أبوك إبراهيم، ونعم الأخ أخوك عليّ!.. أبشر فإنك تُدعى إذا دُعيت، وتُكسى إذا كُسيت، وتُحيّا إذا حُيّيتَ».

الخبر التاسع: «يا أنس اسكب لي وضوءاً» ثم قام فصلّى ركعتين، ثم قال: «أوّل من يدخل عليك من هذا الباب إمام المتّقين، وسيد المسلمين، ويعسوب الدين، وخاتم الوصيين، وقائد الغر المُحجّلين». قال أنس: فقلت: اللهم اجعله رجلاً من الأنصار، وكتبت دعوتي فجاء «عليّ» فقال صلّى الله عليه وسلّم: من جاء يا أنس؟ فقلت: عليّ. فقام إليه مستبشراً، فاعتنقه ثم جعل يمسح عرق وجهه. فقال عليّ: يا رسول الله صلّى الله عليك وآلك؛ لقد رأيت منك اليوم تصنع بي شيئاً ما صنعته بي قبل!.. قال: «وما يمنعني وأنت تؤدّي عنّي، وتسمعهم صوتي، وتبيّن لهم ما اختلفوا فيه بعدي!..». رواه أبو نعيم الحافظ في حلية الأولياء.

الخبر العاشر: «ادعوا لي سيّد العرب عليّاً» فقالت عائشة: ألست سيّد العرب؟ فقال: «أنا سيّد ولد آدم، وعليّ سيّد العرب» فلما جاء أرسل إلى الأنصار فأتوه فقال لهم: «يا معشر الأنصار إلاّ أدلّكم على ما إن تمسكتم به لن تضلّوا أبداً؟». قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «هذا عليّ، فأحبّوه بحبّي، وأكرموه بكرامتي، فإن جبرائيل أمرني بالذي قلت لكم عن الله عزّ وجلّ». رواه الحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء.

الخبر الحادي عشر: «مرحباً بسيّد المؤمنين وإمام المتّقين»!.. فقيل لعليّ عليه السلام كيف شكرك؟ فقال: «أحمد الله على ما آتاني وأسأله الشكر على ما أولاني، وأن يزيدني مما أعطاني». ذكره صاحب الحلية أيضاً.

الخبر الثاني عشر: «مَن سرّه أن يحيا حياتي، ويموت مماتي، ويسكن جنة عدن التي غرسها ربّي فليوال عليّاً من بعدي، وليوال وليّه، وليقتدوا بالأئمّة من بعدي فإنهم عترتي، خلقوا من طينتي، ورزقوا فهماً وعلماً، فويل للمكذّبين من أمّتي!.. القاطعين فيهم صلتي، لا أنالهم الله شفاعتي». ذكره صاحب الحلية أيضاً.

الخبر الثالث عشر: بعث رسول الله ﷺ وآله خالد بن الوليد في سريّة وبعث علياً عليه السلام في سريّة أخرى، وكلاهما إلى اليمن وقال: «إن اجتمعتما «فعلي» على النّاس، وإن افترقتما فكلّ واحد منكما على جنده». فاجتمعا وأغارا، وسَبَيا نساءً، وأخذا أموالاً، وقتلا أناساً وأخذ «عليّ» جاريةً فاختصّها لنفسه فقال خالد لأربعة من المسلمين؛ منهم بريدة الأسلميّ: اسبقوا إلى رسول الله ﷺ فاذكروا له كذا، واذكروا له كذا، لأمور عدّدها على «عليّ» فسبقوا إليه، فجاء واحد من جانبه فقال: إنّ علياً فعل كذا فأعرض عنه، فجاء الآخر من الجانب الآخر فقال: إنّ «علياً» فعل كذا، فأعرض عنه، فجاء بريدة الأسلميّ فقال: يا رسول الله إن «علياً» فعل ذلك فأخذ جارية لنفسه، فغضب صلّى الله عليه وسلم حتى احمرّ وجهه وقال: «دعوا لي علياً»!.. يكرّرها، «إن علياً منّي وأنا من عليّ، وإن حظّه في الخمس أكثر ممّا أخذ. وهو وليّ كلّ مؤمن من بعدي». رواه ابن حنبل في المسند غير مرة.

رواه في كتاب «فضائل عليّ» ورواه أكثر المحدثين.

الخبر الرابع عشر: «كنت أنا وعليّ نوراً بين يدي الله عزّ وجلّ قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام، فلما خلق آدم قسّم ذلك فيه وجعله جزأين، فجزءٌ أنا، وجزءٌ عليّ».

رواه أحمد في «المسند» وفي كتاب «فضائل عليّ» عليه السلام وذكره صاحب كتاب الفردوس وزاد فيه: «ثم انتقلنا حتى صرنا في عبد المطلب فكان لي النبوّة ولعليّ الوصيّة».

الخبر الخامس عشر: «النظر إلى وجهك يا عليّ عبادة، أنت سيّدٌ في الدنيا وسيّدٌ في الآخرة. من أحبّك أحبّني وحبيبي حبيب الله، وعدوّك عدوّي، وعدوّي عدوّ الله، الويل لمن أبغضك!..» رواه أحمد في «المسند». قال: وكان ابن عباس يفسّره ويقول: إن من ينظر إليه يقول: سبحان الله ما أعلم هذا الفتى!.. سبحان الله ما أشجع هذا الفتى!.. سبحان الله ما أفصح هذا الفتى!..

الحديث السادس عشر: لمّا كانت ليلة بدر، قال رسول الله ﷺ وآله: «من يستقي لنا ماءً؟» فأحجم النّاس، فقام علي فاحتضن قربة ثم أتى بئراً بعيدة القعر مظلمة، فانحدر فيها، فأوحى الله إلى جبرائيل وميكائيل وإسرافيل: أن تأهبوا لنصر محمّد وأخيه وحزبه، فهبطوا من السماء لهم لغطٌ يذعر من يسمعه، فلما حاذوا البئر سلموا عليه من عند آخرهم إكراماً له وإجلالاً. رواه أحمد في كتاب فضائل عليّ عليه السلام وزاد فيه في طريق أخرى عن أنس بن

مالك : «لتؤتَيَنَّ يا عليّ يوم القيامة بناقة من نوق الجنة فتركبها ، وركبتك مع ركبتي ، وفخذك مع فخذي حتى تدخل الجنّة» .

الحديث السابع عشر: خطب صلّى الله عليه وآله النّاس يوم جمعة فقال : «أيها النّاس : قدّموا قريشاً ولا تقدّموها ، وتعلّموا منها ولا تعلّموها ، قوّة رجل من قريش تعدل قوّة رجلين من غيرهم ، وأمانة رجل من قريش تعدل أمانة رجلين من غيرهم ، أيها النّاس أوصيكم بحب ذي قرباها : أخي وابن عمّي عليّ بن أبي طالب ، لا يحبه إلاّ مؤمنٌ ولا يبغضه إلاّ منافق ، من أحبّه فقد أحبني ، ومن أبغضه فقد أبغضني ، ومن أبغضني عذبه الله بالنار» . رواه أحمد رضي الله عنه في كتاب «فضائل عليّ عليه السلام» .

الحديث الثامن عشر: «الصدّيقون ثلاثة : حبيب النجّار الذي جاء من أقصى المدينة يسعى ، ومؤمن آل فرعون الذي كانَ يَكتم إيمانه ، وعلي بن أبي طالب وهو أفضلهم» . رواه أحمد في كتاب فضائل عليّ عليه السّلام .

الحديث التاسع عشر: «أعطيتُ في عليّ خمساً هنّ أحبُّ إليّ من الدنيا وما فيها : أمّا واحدة فهو كاب بين يدي الله عزّ وجلّ حتى يفرَغ من حساب الخلائق . وأمّا الثانية : فلواء الحمد بيده ، آدمَ ومن ولد تحته . وأمّا الثالثة : فواقفٌ على عقر (مؤخّر الحوض) حوضي يسقي من عرف من أمّتي . وأمّا الرابعة : فساتر عورتي ومُسلّمي إلى ربي . وأمّا الخامسة : فإني لست أخشى عليه أن يعود كافراً بعد إيمان ولا زانياً بعد إحصان» رواه أحمد في «كتاب الفضائل» .

الحديث العشرون: كانت لجماعة من الصحابة أبواب شارعة في مسجد رسول الله ﷺ وآله فقال عليه الصلاة والسّلام يوماً : «سدّوا كل باب في المسجد إلاّ باب عليّ» فسُدّت . فقال في ذلك قوم حتى بلغ رسول الله ﷺ وآله فقام فيهم فقال : «إنّ قوماً قالوا في سدّ الأبواب وتركي باب عليّ ، إنّي ما سددتُ ولا فتحتُ ، ولكنّي أُمرتُ بأمرٍ فاتّبعته» . رواه أحمد في المسند مراراً وفي كتاب الفضائل .

الحديث الحادي والعشرون: دعا صلّى الله عليه وآله علياً في غزاة الطائف فانتجاه ، وأطال نجواه حتى كره قوم من الصحابة ذلك ، فقال قائل منهم : لقد أطال اليوم نجوى ابن عمه ، فبلغه عليه الصلاة والسّلام ذلك فجمع منهم قوماً ثم قال : «إنّ قائلاً قال : لقد أطال اليوم نجوى ابن عمه ، أما إني ما انتجيته ولكن الله انتجاه» . رواه أحمد رحمه الله في المسند .

الحديث الثاني والعشرون: أخصمك (أغلبك) يا عليّ بالنبوّة فلا نبوّة بعدي، وتخصم النّاس بسبع لا يجاحد فيها أحد من قريش: أنت أوّلهم إيماناً بالله، وأوفاهم بعهد الله، وأقومهم بأمر الله، وأقسمهم بالسويّة، وأعدلهم في الرعيّة، وأبصرهم بالقضيّة، وأعظمهم عند الله مزيّة». رواه الحافظ في حلية الأولياء.

الحديث الثالث والعشرون: قالت فاطمة: إنّك زوّجتني فقيراً لا مال له فقال: «زوّجتك أقدمهم سلماً وأعظمهم حلماً، وأكثرهم علماً!.. إلاّ تعلمين أن الله اطّلع إلى الأرض اطّلاعةً فاختار منها أباك، ثمّ اطّلع إليها ثانية فاختار منها بعلك». رواه أحمد في المسند.

الحديث الرابع والعشرون: لمّا أُنزلَ: «إذا جاء نصر الله والفتح» بعد انصرافه عليه السّلام من غزاة (حنين) جعل يكثر من «سبحان الله!.. أستغفر الله» ثم قال: «يا عليّ إنه قد جاء ما وعدت به، جاء الفتح ودخل النّاس في دين الله أفواجاً، وإنه ليس أحدٌ أحقّ منك بمقامي، لقدّمك في الإسلام، وقربك منّي، وصهرك، وعندك سيّدة نساء العالمين؛ وقبل ذلك ما كَانَ من بلاء أبي طالب عندي حين نزلَ القرآن فأنا حريصٌ على أن أراعي ذلك لولده». رواه أبو إسحق الثعلبيّ في تفسير القرآن.

أورد ابن أبي الحديد هذه الأحاديث من كتب أئمة وعلماء السنّة وابتعد عن إيرادها من كتب الشيعة كي لا يتّهم بالانحياز - وهو المعتزليّ السنيّ - إلى المتشيّعين والموالين للإمام عليّ عليه السّلام ثم أردفها بالتعليق الحقّ التالي: فأردنا بإيراد هذه الأخبار ها هنا عند تفسير قوله: «نحن الشعّار والأصحاب ونحن الخزنة والأبواب» أن ننبّه على عظم منزلته عند الرسول صلّى الله عليه وآله، وأنّ من قيل في حقّه ما قيل لو رقى إلى السماء وعَرَج في الهواء، وفخر على الملائكة والأنبياء تعظّماً وتبجّحاً؛ لم يكن ملوماً بل كان بذلك جديرا. [١٥]

هذه الأحاديث الشريفة هي غيضٌ من فيض، وأفنانٌ من دوحة عظيمة شامخة بذروتها وباسقة بفروعها تدلّ بجذورها الثابتة المتغلغلة في الصعيد، وتفخر بثمارها التيّ هي ألذّ ثمار وأطيب فاكهة، وأغلى جني ومحصول.

وعند الشيعة الكثير الكثير ممّا قاله سيّد المرسلين محمّد ﷺ وآله في سيّد الأوصياء وإمام المتّقين عليّ عليه السلام وسأورد بعضاً منها يشير إلى وصايته وإمامته وولايته وإلى تتابع

الأئمّة من عترته وأسرته الشريفة الطاهرة المكرّمة . وقد اصطفيت هذه الأحاديث من (كتاب المراجعات) لسماحة الإمام السيّد : عبد الحسين شرف الدين الموسوي .

الحديث الأوّل: أخرج الصّدوق محمّد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القميّ في كتابه (كمالُ الدين وإتمام النعمة) بالإسناد إلى عبد الرحمن بن سمرة من حديث عن رسول الله ﷺ جاء فيه : «يابن سمرة إذا اختلفت الأهواء وتفرّقت الآراء فعليك بعليّ بن أبي طالب فإنّه إمام أمّتي وخليفتي عليهم من بعدي» .[١٦]

الحديث الثاني: أخرج الصّدوق في «الإكمال» أيضاً بسنده إلى الإمام الصادق عليه السلام عن أبيه عن آبائه عليهم السّلام : أن رسول الله ﷺ قال : «حدّثني جبرائيل عن ربّ العزّة جلّ جلاله أنّه قال : (من علم أن لا إله إلاّ أنا وحدي ، وأنّ محمّداً عبدي ورسولي وأن عليّ بن أبي طالب خليفتي وأن الأئمّة من ولده حججي أدخلتُه الجنة» .

الحديث الثالث: أخرج الصّدوق في «الإكمال» أيضاً بسنده إلى الإمام الصّادق عليه السلام عن أبيه عن جدّه قال : قال رسول الله ﷺ وآله : «الأئمّة بعدي اثنا عشر أوّلهم عليّ ، وآخرهم القائم ، هم خلفائي وأوصيائي» .

الحديث الرابع: أخرج الصّدوق في الإكمال أيضاً بالإسناد إلى الأصبغ بن نباتة قال : خرج علينا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ذات يوم ، ويده في يد ابنه الحسن ، وهو يقول : خرج علينا رسول الله ذات يوم ويده في يدي هكذا وهو يقول : «خير الخلق وسيّدهم بعدي أخي هذا ، وهو إمام كلّ مسلم وأمير كل مؤمن بعد وفاتي» .

الحديث الخامس: أخرج الصدّوق في الإكمال أيضاً بسنده إلى الإمام (الرضا) عليه السلام عن أبيه عن آبائه مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ من حديث قال فيه : «وأنا وعليّ أبوا هذه الأمّة ، من عرفنا فقد عرف الله ، ومن أنكرنا فقد أنكر الله عزّ وجلّ ، ومن عليّ سبطا أمّتي وسيّدا شباب أهل الجنة الحسن والحسين ، ومن ولد الحسين تسعة طاعتهم طاعتي ومعصيتهم معصيتي ، تاسعهم قائمهم ومهديّهم» .

الحديث السادس: أخرج الصدوق في «الإكمال» بالإسناد إلى الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام عن أبيه عن آبائه مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ من حديث قال فيه : «يابن مسعود : عليّ بن أبي طالب إمامكم بعدي وخليفتي عليكم» .

الحديث السابع: أخرج الصّدوق في الإكمال أيضاً بالإسناد إلى سلمان قال: دخلت على النبيّ ﷺ فإذا الحسين بن عليّ على فخذه وهو يلثم فاه ويقول: «أنت سيّد ابن سيّد، أنت إمام ابن إمام، أخو إمام، أبو الأئمة، وأنت حجّة الله وابن حجّته، وأبو حجج تسعة من صلبك، تاسعهم قائمهم».

الحديث الثامن: أخرج الصّدوق في الإكمال بالإسناد إلى الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ قال: «إن الله عزّ وجلّ اختارني من جميع الأنبياء. واختار منّي عليّاً وفضّله على جميع الأوصياء واختار من عليّ الحسن والحسين. واختار من الحسين الأوصياء من ولده ينفون عن الدين تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويل الضالّين».

الحديث التاسع: أخرج الصّدوق في الإكمال عن عليّ قال: قال رسول الله ﷺ: «الأئمّة بعدي اثنا عشر، أوّلهم أنت يا عليّ، وآخرهم القائم الذي يفتح الله عزّ وجلّ على يديه مشارق الأرض ومغاربها».

الحديث العاشر: أخرج الصّدوق في أماليه بسنده إلى ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ وآله: «معاشر الناس مَن أحسن من الله قيلاً؟ إنّ ربّكم جلّ جلاله أمرني أن أُقيم لكم عليّاً عَلَماً وإماماً وخليفةً ووصيّاً وأن أتّخذه أخاً ووزيراً».

الحديث الحادي عشر: أخرج الصدّوق أيضاً في أماليه بسنده إلى أمير المؤمنين عليه السلام قال: خطبنا رسول الله ﷺ وآله ذات يوم فقال: «أيها النّاس إنه قد أقبل شهر الله، ثم ساق الحديث في فضل شهر رمضان قال عليّ عليه السلام فقلت يا رسول الله: ما أفضل الأعمال في هذا الشهر؟ قال: الورع عن محارم الله ثم بكى، فقلت يا رسول الله ما يبكيك؟ فقال: يا عليّ أبكي لما يُستحلّ منك في هذا الشهر إلى أن قال: يا عليّ أنت وصيّي، وأبو ولدي، وخليفتي على أمّتي في حياتي وبعد موتي، أمرُك أمري، ونهيك نهيي».

الحديث الثاني عشر: أخرج الصدّوق في أماليه أيضاً عن عليّ عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ وآله: «يا عليّ أنت أخي وأنا أخوك أنا المصطفى للنبوّة، وأنت المجتبى للإمامة، أنا صاحب التنزيل وأنت صاحب التأويل، وأنت أبو هذه الأمّة يا عليّ أنت وصيّي وخليفتي ووزيري ووارثي وأبو ولدي».

الحديث الثالث عشر: أخرج الصدّوق في أماليه بسنده إلى الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «عليٌّ مني وأنا من عليّ، قاتل الله من قاتل علياً، عليّ إمام الخليقة بعدي».

الحديث الرابع عشر: أخرج شيخ الطائفة أبو جعفر محمّد بن الحسن الطوسيّ في أماليه بسنده إلى عمار بن ياسر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعليّ: «إن الله زيّنك بزينة لم يزيّن العباد بزينة أحبّ إلى الله منها، زيّنك بالزهد في الدنيا فجعلك لا ترزأ منها شيئاً ولا ترزأ منك شيئاً. ووهب لك حبّ المساكين فجعلك ترضى بهم أتباعاً ويرضون بك إماماً، فطوبى لمن أحبّك، وصدّق فيك، وويلٌ لمن أبغضك وكذب عليك».

ونختم هذه الأخبار والأحاديث بخبر وحديث يستند إليهما العلويّون والشيعة جميعاً في الاستدلال على إمامة وولاية وخلافة الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام أعلنه رسول الله صلى الله عليه وآله في آخر حجّة قام بها إلى الكعبة المشرفة ونعني بها «حجّة الوداع»، حيث خطب في أكثر من مئة ألف مسلم في مكان يدعى (غدير خم) وفي اليوم الثامن عشر من ذي الحجّة بالتحديد منصرفهُ من مكّة المكرّمة إلى المدينة المنورّة، وقد اجمع الشيعة والسنّة على الخبر ولكن بعض أعلام السنّة لا يأخذون ببعض فقرات من الحديث.

أخرج الطبرانيّ وغيره بسند مجمع على صحّته عن زيد بن أرقم قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وآله بغدير خم تحت شجرات فقال: «أيّها النّاس يوشك أن أُدعى فأُجيب وإني مسؤول وإنكم مسؤولون فماذا أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنّك قد بلّغت وجاهدت ونصحت فجزاك الله خيراً. فقال: أليس تشهدون أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمّداً عبده ورسوله، وأن جنّته حقّ وأن ناره حقّ، وأن الموت حقّ، وأن البعث حقّ بعد الموت، وأن الساعة آتيةٌ لا ريبَ فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور؟ قالوا: بلى، نشهد بذلك. قال: اللهمّ اشهد. ثم قال: يا أيّها النّاس: إن الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فهذا مولاه يعني علياً، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه. ثم قال: يا أيها النّاس إني فَرَطُكم وإنكم واردون عليَّ الحوْض حَوْض أعرَض ممّا بين بصري إلى صنعاء فيه عدد النجوم قَدَحان من فضّة وإني سائلكم حين تَردُون عليّ عن الثقلين كيف تخلفوني فيهما: الثقل الأكبر كتاب الله عزّ وجلّ سَبَب طرَفه بيَد الله تعالى وطرَفه بأيديكم فاستمسكوا به لا تضلّوا ولا تبدّلوا، وعترتي أهل بيتي فإنه قد نبّأني اللطيف الخبير أنهما لن ينقضيا حتى يردا عليّ الحوض». [١٧]

وأخرج الإمام أحمد من حديث البراء بن عازب عن طريقين قال: كنّا مع رسول الله فنزلنا «بغدير خم» فنودي فينا: الصّلاة جامعة وكُسح لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم تحت شجرتين فصلّى الظهر وأخذ بيد عليّ فقال: ألستم تعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى. قال: ألستم تعلمون أني أولى بكلّ مؤمن من نفسه؟ قالوا: بلى. قال فأخذ بيد عليّ فقال: من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، قال فلقيه عمر بعد ذلك فقال: هنيئاً يابن أبي طالب أصبحتَ وأمسيتَ مولى كلّ مؤمن ومؤمنة.

ويرى الشيعة أن (حديث الغدير) كان محلّ العناية من الله عزّ وجلّ إذ أوحاه تبارك وتعالى إلى نبيّه صلّى الله عليه وسلم وأنزل فيه قرآناً يرتله المسلمون آناء الليل وأطراف النهار، يتلونه في خلواتهم وجلواتهم، وفي أورادهم وصلواتهم؛ وعلى أعواد منابرهم وعوالي منائرهم ﴿يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من النّاس﴾[سورة المائدة، الآية: ٦٧].

فلما بلغَ الرسالة يومئذ بنصّه على عليّ بالإمامة وعهده إليه بالخلافة أنزل الله عزّ وجلّ «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً».(١٨)

وقد روي أن أمير المؤمنين علياً عليه السلام في خلافته جمع النّاس في الرّحَبَة في الكوفة فقال: أنشد الله كل امرئ مسلم سمع رسول الله ﷺ يقول يوم غدير خم ما قال إلاّ قام فشهد بما سمع ولا يقم إلاّ من رآه بعينيه وسمعه بأذنيه فقام ثلاثون صحابياً فيهم اثنا عشر بدرياً فشهدوا أنّه أخذ بيده فقال للناس «الحديث السابق» ولكن ثلاثة من الحاضرين أقعدهم البغض للإمام عليّ عليه السلام عن القيام بواجب الشهادة كأنس بن مالك فأصابتهم دعوة أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال لأنس: ما لَكَ لا تقوم مع أصحاب رسول الله فتشهد بما سمعته يومئذ منه؟ فقال: يا أمير المؤمنين كبرتْ سنّي ونسيت. فقال عليّ عليه السلام: إن كنت كاذباً فضربكَ الله بيضاء لا تواريها العمامة. فما قام حتى أبيضّ وجهه بَرَصاً. فكان بعد ذلك يقول: أصابتني دعوة العبد الصالح. وقد ذكر هذه الحادثة ابن قتيبة الدينوريّ في كتابه (المعارف) وأحمد بن حنبل في مسنده.(١٩)

وأخرج أبو إسحق الثّعلبيّ في تفسير سورة (المعارج) من تفسيره الكبير بسندين معتبرين أن رسول الله ﷺ لمّا كان يوم «غدير خم» نادى النّاس فاجتمعوا فأخذ بيد عليّ فقال: من كنت مولاه فعليّ مولاه. فشاع ذلك فطار في البلاد وبلغ ذلك الحارث بن النعمان الفهريّ

فأتى رسول الله ﷺ على ناقة له فأناخها ونزل عنها وقال: يا محمّد!.. أمرتنا أن نشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّك رسول الله فقبلنا منك، وأمرتنا أن نصلي خمساً فقبلنا منك، وأمرتنا بالزكاة فقبلنا، وأمرتنا أن نصوم رمضان فقبلنا، وأمرتنا بالحجّ فقبلنا، ثم لم ترضَ بهذا حتى رفعت بضَبْعَيْ ابن عمّك تفضّله علينا، فقلت: من كنت مولاه فعليّ مولاه، فهذا شيءٌ منك أم من الله؟ فقال صلّى الله عليه وسلم: فوالله الذي لا إله إلاّ هو إن هذا لَمِنَ الله عزّ وجلّ، فولّى الحارث يريد راحلته وهو يقول: اللهم إن كان ما يقول محمّد حقاً فَأمطر علينا حجارةً من السماء، وأتنا بعذاب أليم. فما وصل إلى راحلته حتى رماه الله سبحانه بحجر سقط على هامته فخرجَ من دبرهٌ فقتله. وأنزل الله تعالى: **﴿سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع مِن الله ذي المعارج﴾**. الحديث موجود في السيرة الحلبية.[٢٠]

وقد ذكر ابن الأثير في كتابه (الكامل): أن أوّل احتفال بعيد الغدير جرى سنة ٣٥٢هـ في الثامن عشر من ذي الحجّة حيث أمر معزّ الدولة البويهي بإظهار الزينة في بغداد وأشعلت النيران بمجلس الشرطة، وأظهر الفرح، وفتحت الأسواق بالليل كما يفعل ليالي الأعياد. فعل ذلك فرحاً بعيد الغدير يعني «غدير خم»، وضربت الدبادب والبوقات وكان يوماً مشهوداً.[٢١]

ولكن ما هي مزايا الإمام عليه السلام عند زوجته الكريمة سيّدة نساء العالمين السيّدة الزهراء فاطمة؟ إنه ذو مزايا عظيمة لا تعدّ ولا تحصر برجل غيره فهو زوجها المقدام، الورع، العفّ، الزّاهد، مرسي رسالة الحق، ومثبت قواعد النبوّة ومهبط الروح الأمين.

لنقرأ وصفها في هذه القطعة النثرية الخالدة:

«لما اشتدّ بفاطمة بنت رسول الله صلّى الله عليه وآله الوجع اجتمع عندها نساء من نساء المهاجرين والأنصار فقلن لها: كيف أصبحت يابنة رسول الله صلّى الله عليه وسلم. قالت: والله أصبحت عائفة (كارهة) لدنياكم، قالية (مبغضة) لرجالكم، لفظتهم بعد أن عجمتهم (بلوتهم وخبرتهم) وشنئتهم (أبغضتهم) بعد أن سبرتهم (علمت أمورهم)، فقبحاً لفلول الحدّ وخَوَر القناة، وخَطَل الرأي، وبئسما قدّمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون، لا جَرَم!.. قد قلّدتهم رِبْقَتَها وشنّت عليهم غارتَها، فجَدعاً وعَقراً وسُحْقاً للقوم الظالمين!.. ويحهم، أين زحزحوها عن رواسي الرسالة وقواعد النبوّة، ومهبط الروح الأمين، والطبيين بأمر الدنيا والدين، ألا ذلك هو الخسران المبين!..

وما الذي نَقَموا من أبي حسن؟! نَقَموا والله نكيرَ سيفه، وشدّة وطأته، ونَكَالَ وقعته، وتنمّره في ذات الله. وتالله لو تكافؤا عن زمام نَبَذه إليه رسول الله صلّى الله عليه وسلم وآله لاعتلقه ولَسَار إليهم سيراً سُجُحا، لا تكلّم حشَاشته ولا يُتعتع راكبهُ، ولأوردهم منهلاً نميراً فضفاضاً يطفح ضفّتاه، ولأصدَرَهم بطاناً قد تحيّر بهم الرأي غير متحلّ بطائل إلاّ بغمر النّاهل، وردعه سورة السّاغب، ولَفُتحَت عليهم بركاتٌ من السماء والأرض وسَيأخذهم الله بما كانوا يكسبون». [٢٢]

ولا بدّ لي من العودة معك إلى ابن أبي الحديد لترى كم كان معجباً بهذا الإمام الخالد على مدى الأيّام والسنين والشهور والدهور، فهو لا يفتأ عائداً بين حين وآخر للتغنّي بعظمة هذا الرجل الخالد وتعداد مزاياه وما كان يتمتع به من جليل الصفات وكثرة المكرمات يقول: «فسبحان الله!.. مَنْ مَنَح هذا الرجل هذه المزايا النفيسة والخصائص الشريفة؟! أن يكون غلام من أبناء عرب مكّة ينشأ بين أهله لم يخالط الحكماء، وخرج أعرف بالحكمة ودقائق العلوم الإلهية من أفلاطون وأرسطو، ولم يعاشر أرباب الحكم الخلقية والآداب النفسية لأن قريشاً لم يكن أحد منهم مشهوراً بمثل ذلك، وخرج أعرف بهذا الباب من سقراط، ولم يُرَبّ بين الشجعان لأن أهل مكّة كانوا ذوي تجارة ولم يكونوا ذوي حرب وخرج أشجع من كل بشر مشى على الأرض؛ قيل لخلف الأحمر: أيّما أشجع عنبسة وبسطام أم عليّ بن أبي طالب؟ فقال: إنّما يُذكر عنبسة وبسطام مع البشر والنّاس لا مع من يرتفع عن هذه الطبقة. فقيل له: فَعَلَى كلّ حال. قال: والله لو صاح في وجوههما لماتا قبل أن يحمل عليهما. وخرج أفصح من سحبان وقسّ ولم تكن قريش بأفصح العرب كان غيرها أفصح منها. قالوا: أفصح العرب (جُرْهُم) وإن لم تكن لهم نباهة. وخرج أزهد النّاس في الدنيا وأعفّهم مع أن قريشاً ذوو حرص ومحبة للدنيا، ولا غرو (لا عجب) فيمن كان محمّد صلّى الله عليه وآله مربيّه ومخرجه، والعناية الإلهية تمدّه وترفده أن يكون منه ما كان». [٢٣]

وكيف كان الإمام عليّ عليه السلام يرى نفسه؟

«وأنا من رسول الله كالضوء من الضوء، والذراع من العضد، والله لو تظاهرت العرب على قتالي لما وليت عنها، ولو أمكنت الفُرص من رقابها لسارعت إليها، وسأجهد في أن أطهّر الأرض من هذا الشخص المعكوس والجسم المركوس حتى تخرج المَدَرَة من بين حب الحصيد». [٢٤]

وكيف كان سلوكه مع رعيته وشعبه؟ كيف كان ينظر إلى هذه الرعيّة، وكيف كان ينظر إلى بيت مال المسلمين؟ ها هو يعظنا ويضرب لنا المثل بنفسه: «والله لو شئتُ لاهتديتُ الطريق إلى مصفّى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القزّ، ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخيّر الأطعمة، ولعلّ بالحجاز واليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع أوَ أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى، وأكباد حرّى أو أكون كما قال القائل:

وحسبــــك عــــاراً أن تبيت ببطنــة وحــولك أكبـاد تحــنّ إلــى القــدّ

أأقنع من نفسي بأن يقال هذا أمير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره الدهر أو أكون أسوة لهم في جشوبة (خشونة) العيش!.. فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همّها علفها أو المرسلة (الشاة) شغلها تقمُّمها، تكترش من أعلافها، وتلهو عمّا يراد بها أو أترك سُدىً، أو أهمل عابثاً، أو أجُرّ حبل الضلالة، أو أعتسف طريق المتاهة». [٢٥]

أما عن علمه وفقهه في الدين فقد كانت له الرياسة فيهما بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلم وآله، وكثيراً ما كان يحلّ المعضلات التي لم يكن الآخرون يجدون لها الحلّ المناسب حتى إن الخليفة عمر رضي الله عنه كان يستشيره في الأمور التي تشكل عليه فيرشده إلى الحل الأمثل والأفضل فكان يقول: لا بارك الله في معضلة لا تحكم فيها يا أبا الحسن. وكان من تبصّره بالدين الإسلاميّ والمسيحيّ واليهوديّ أنه كان يردّد: «لو كسرت لي الوسادة لقضيت بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم، وبين أهل الفرقان بفرقانهم حتى تزهر (تتلألأ) تلك القضايا إلى الله عزّ وجلّ وتقول: يا ربّ إنّ علياً قضى بين خلقك بقضائك. [٢٦]

أمّا علمه بالغيب فقد لقفه من ابن عمّه وخليله رسول الله صلّى الله عليه وآله مشافهةً ومثاقفةً ومناجاةً يخبره بما سيكون في مستقبله وبما سيصادفه ويلاقيه بعد أن يلحق الرسول الكريم بربّه. وقد أورد ابن أبي الحديد العديد من الأخبار التي كشف غيبها وأظهر مخفيّها في أثناء حياته وإلى ما بعد مماته.

ولا أستطيع أن أوردها جميعها في هذا الكتاب غير أنني سأورد بعضها فمن أحب أن يستزيد منها فعليه بكتاب (نهج البلاغة) وبخاصّة الجزء الثاني منه.

روى ابن هلال الثقفيّ في كتاب (الغارات) عن زكريا بن يحيى العطّار عن فُضيل عن محمّد بن عليّ قال: لمّا قال عليّ عليه السّلام: سلوني قبل أن تفقدوني، فوالله لا تسألونني عن فئة تضلّ مئة وتهدي مئة إلاّ أنبأتكم بناعقها وسائقها. فقام إليه رجل فقال: أخبرني بما في رأسي ولحيتي من طاقة شعر. فقال له عليه السّلام: والله لقد حدّثني خليلي أنّ على كل طاقة شعر من رأسك ملكاً يلعنك، وأن على كلّ طاقة شعر من لحيتك شيطاناً يغويك، وأن في بيتك سخلاً يقتل ابن رسول الله صلّى الله عليه وآله - وكان ابنه قاتل الحسين عليه السّلام يومئذ طفلاً يحبو - وهو سنان بن أنس النخعي.[٢٧]

وروى الحسن بن محبوب عن ثابت الثمالي عن سويد بن غفلة أن علياً عليه السّلام خطب ذات يوم فقام رجل من تحت منبره فقال: يا أمير المؤمنين؛ إني مررت بوادي القرى فوجدت خالد بن عرفطة قد مات، فاستغفر له. فقال عليه السّلام: والله ما مات، ولا يموت حتى يقود جيش ضلالة صاحب لوائه حبيب بن حمار. فقام رجل آخر من تحت المنبر فقال: يا أمير المؤمنين؛ أنا حبيب بن حمار، وإني لك شيعة ومحبّ. فقال: أنت حبيب بن حمار؟ فقال: نعم. فقال له ثانية: والله، إنك لحبيب بن حمار؟ فقال: أي، والله!.. قال: أما والله إنك لحاملها ولتحملنّها، ولتدخلنّ بها من هذا الباب، وأشار إلى باب الفيل بمسجد الكوفة. قال ثابت: فوالله ما متّ حتى رأيت ابن زياد وقد بعث عمر بن سعد إلى الحسين بن عليّ عليهما السّلام وجعل خالد بن عرفطة على مقدّمته وحبيب بن حمار صاحب رايته فدخل بها من باب الفيل.

وروى محمّد بن جبلة الخيّاط عن عكرمة عن يزيد الأحمسيّ أنّ علياً عليه السّلام كان جالساً في مسجد الكوفة وبين يديه قومٌ منهم عمرو بن حُرَيث إذ أقبلت امرأة مختمرة لا تُعرف فوقفت فقالت لعليّ عليه السّلام: يا مَنْ قتل الرجالَ، وسفكَ الدماءَ، وأيتم الصبيانَ، وأرملَ النساء!.. فقال عليّ عليه السلام: وإنّها لهي هذه السّلْقَلَقَة (السليطة) الجَلعَة المَجعَة (البذيئة اللسان)، وإنها لهي هذه شبيهة الرجال والنساء؛ التي ما رأت دماً قطّ. قال: فولّت هاربة، منكّسةً رأسَها. فتتبعها عمرو بن حريث فلما صارت بالرحبة قال لها: والله لقد سررت بما كان منك اليوم إلى هذا الرجل فادخلي منزلي حتى أهب لك وأكسوك فلما دخلت منزله أمر جواريه بكشفها وتفتيشها ونزع ثيابها لينظر صدقه فيما قالَهُ عنها. فبكت وسألته ألاّ يكشفها، وقالت: أنا والله كما قال، لي ركَبُ النساء (منبت العانة) وأنثيان كأنثيي الرجال، وما رأيتُ

دماً قط. فتركها وأخرجها، ثم جاء إلى عليّ عليه السلام فأخبره فقال: إن خليلي رسول الله ﷺ أخبرني بالمتمردين عَلَيَّ من الرجال، والمتمرّدات من النساء إلى أن تقوم الساعة.

وروى عثمان بن سعيد عن يحيى التميميّ عن الأعمش عن إسماعيل بن رجاء، قال: قام أعشى همذان - وهو غلام يومئذ حَدَث - إلى عليّ عليه السلام وهو يخطب ويذكر الملاحم، فقال: يا أمير المؤمنين!.. ما أشبهَ هذا الحديث بحديث خُرافة!.. فقال عليّ عليه السلام: إن كنت آثماً فيما قلت يا غلام فرماك الله بغلام ثقيف ثم سكت. فقام رجال فقالوا: ومن غلام ثقيف يا أمير المؤمنين؟ قال: غلام يملك بلدتكم هذه لا يترك لله حرمةً إلاّ انتهكها، يضرب عنق هذا الغلام بسيفه. فقالوا: كم يملك يا أمير المؤمنين؟ قال: عشرين إن بلغها. قالوا: فيقتل قتلاً أم يموت موتاً؟ قال: بل يموت حتف أنفه بداء البطن، يثقب سريره لكثرة ما يخرج من جوفه. قال إسماعيل بن رجاء: فوالله لقد رأيت بعينيّ أعشى باهلة وقد أحضر في جملة الأسرى الذين أسروا من جيش عبد الرحمن بن محمّد الأشعث بين يدي الحجاج فقرّعه ووبخّه، واستنشده شعره الذي يحرّض فيه عبد الرحمن على الحرب ثم ضرب عنقه في ذلك المجلس.

قال إبراهيم وحدثني إبراهيم بن العباس النهديّ، حدثني مبارك البَجَليّ عن أبي بكر بن عياش، قال حدثني المجالد عن الشعبي عن زياد بن النضر الحارثي قال: كنت عند زياد وقد أُتي برشيد الهجري وكان من خواص أصحاب عليّ عليه السّلام فقال له زياد: ما قال خليلك لك إنّا فاعلون بك؟ قال: تقطعون يديّ ورجليّ وتصلبونني. فقال زياد: أما والله لأكذّبنّ حديثه، خلّوا سبيله. فلما أراد أن يخرج قال: ردّوه، لا نجد شيئاً أصلح ممّا قال لك صاحبك إنك لا تزال تبغي لنا سوءاً إن بقيت. اقطعوا يديه ورجليه. فقطعوا يديه ورجليه وهو يتكلم. فقال: اصلبوه خنقاً في عنقه. فقال رشيد: قد بقي عندكم شيء ما أراكم فعلتموه. فقال زياد: اقطعوا لسانه. فلمّا أخرجوا لسانه ليقطع قال: نفّسوا عنّي أتكلم كلمة واحدة، فنفّسوا عنه فقال: هذا والله تصديق خبر أمير المؤمنين، أخبرني بقطع لساني. فقطعوا لسانه وصلبوه.

خبر يوم ذي قار: روى أبو مخنف عن الكلبيّ عن أبي صالح عن زيد بن علي، عن ابن عبّاس قال: لمّا نزلنا مع عليّ عليه السلام ذا قار قلت: يا أمير المؤمنين!.. ما أقلّ من يأتيك من أهل الكوفة فيما أظنّ!.. قال: والله ليأتينّ منهم ستة آلاف وخمسمئة وستون رجلاً لا

يزيدون ولا ينقصون. قال ابن عبّاس: فدخلني والله من ذلك شكٌّ شديد في قوله، وقلت في نفسي: والله إنْ قدموا لأعدنّهم. قال أبو مخنف فحدّث ابن إسحاق عن عمّه عبد الرحمن بن يسار قال: نفر إلى عليّ عليه السلام إلى ذي قار من الكوفة في البحر والبرّ ستة آلاف وخمسمائة وستون رجلاً، أقام عليّ بذي قار خمسة عشر يوماً حتى سمع صهيل الخيل وشحيح البغال حوله. قال: فلما سار بهم منقلة (مرحلة من السفر) قال ابن عبّاس: والله لأعدنّهم فإذا كانوا كما قال وإلاّ أتممتهم من غيرهم فإن النّاس قد كانوا سمعوا قوله. قال: فعرضتهم فوالله ما وجدتهم يزيدون رجلاً ولا ينقصون رجلاً فقلت: الله أكبر! . .

صدق الله ورسوله. ثم سرنا[٢٨]

حسبي ما قدّمته من أخبار معرفته بالغيب (عليه السّلام) فمن أراد الاستزادة فعليه بالجزء الثاني من الكتاب (الرائع العظيم) نهج البلاغة.

ونورد شهادة كاتب عبقريّ معاصر لم يمنعه اختلاف المذهب من قول الحق والصّدق - إلاّ إن المؤمنين الصادقين لا يختلفون، ولا يفترقون - في الإمام عليّ عليه السّلام: «وبطولات الإمام ما اقتصرت يوماً على ميادين الحرب. فقد كان بطلاً في صفاء بصيرته وطهارة وجدانه، وسحر بيانه، وعمق إنسانيته، وحرارة إيمانه، وسموّ وداعته، ونصرته للمحروم والمظلوم من الحارم والظالم، وتعبّده للحق أينما تجلّى له الحقّ، وهذه البطولات ومهما تقادم بها العهد لا تزال مَقْلعاً غنيّاً نعود إليه اليوم وفي كل يوم كلما اشتدّ بنا الوجد إلى بناء حياة صالحة، فاضلة» (ميخائيل نعيمة).[٢٩]

وقد كتبت الكتب الكثيرة في فضائل ومزايا الإمام عليّ عليه السلام في القديم والحديث، في الشرق والغرب، وقد قرأت العديد منها فوجدت في كتاب «الإمام عليّ صوت العدالة الإنسانية» لمؤلّفه العبقري الملتزم «جورج جرداق» الموضوعيّة والتزام الحقّ، وما دام ملتزماً فهو الصّادق الصّدوق والعادل العطوف والعالم الرؤوف.

وأشهد أنه رجل موسوعة، حكمت عليه بهذا الحكم لأنني تعرّفت مقدار ما طالع من كتب واختار من فوائد ومعارف من كتب الشرق والغرب حتى استطاع أن يؤلّف كتابه المتميز.

وإنّي أحبُّ لكلّ إنسان عاقل منصف مثقّف يريد لنفسه ولأهل بيته العلم النافع والخلق القويم أن يضع في مكتبته هذا المؤلَّف الجليل ليزيّن به ما يقتني من كتب ومؤلّفات أو ليكون فاتحة لمكتبة عامرة بالمجلدات.

يقول جورج جرداق: «هل عرفت من الخلق عظيماً يلتقي مع المفكّرين بسمو فكرهم ومع الخيّرين بحبّهم العميق للخير، ومع العلماء بعلمهم، ومع الباحثين بتنقيبهم، ومع ذوي المودّات بمودّاتهم ومع الزهّاد بزهدهم، ومع المصلحين بإصلاحهم، ومع المتألمين بآلامهم، ومع المظلومين بمشاعرهم وتمرّدهم، ومع الأدباء بأدبهم ومع الأبطال ببطولاتهم، ومع الشهداء بشهادتهم، ومع كلّ إنسانية بما يشرّفها ويرفع من شأنها؛ ثمّ إن له في كلّ ذلك فضل القول النّاتج عن العمل، والتضحية المتصلة بالتضحية، والسّابقة في الزمان!.. عظيماً يهون لديك أمر غالبيه ونصر المنتصرين عليه لأن أيامهم إنما هي من الأيّام التي عجّت بالمتناقضات، واصطبغت بالغرائب حتى أصبح فيها شمال الحياة يمينها، وتحتها فوقها، وأرضها سماءها.

وسواءٌ لدى الحقيقة والتّاريخ أعرفتَ هذا العظيم أم لم تعرفه فالتاريخ والحقيقة يشهدان أنه الضمير العملاق، الشهيد أبو الشهداء: عليّ بن أبي طالب صوت العدالة الإنسانية، وشخصية الشرق الخالدة. وماذا عليك يا دنيا لو حشدتِ كل قواك فأعطيتِ في كلّ زمنٍ (عليّا) بعقله وقلبه ولسانه وذي فقاره!..»[٣٠]

ولا أستطيع أن أختم هذا الفصل ولم أقم بإيراد العهد الذي كتبه الإمام عليّ عليه السلام إلى الأشتر عندما ولاّه مصر لأن هذا العهد يتضمن السياسة المدنية التي رغب إليه أن يطبّقها خلال ولايته؛ وإني لأجزم أنه لو سار عليها كلّ حاكم في كلّ زمان أو مكان لسعدت الرعية غاية السعادة وتمتّعت بكلّ ساعة في الحياة، ولتفوّق كلّ حاكم في إشاعة الديمقراطية بين أفراد شعبه ولعاش سعيداً آمناً مطمئناً.

أين ديمقراطية الغرب من هذه الديمقراطية التي رسم أبعادها وحدودها الإمام عليّ عليه السّلام؟! إن ديمقراطية الغرب التي يتبجّح بها ويتغنّى بمزاياها ديمقراطية فُصّلتْ على مقاسه وحسب فهمه ونظرته للشعوب، فما كان موافقاً لمصالحه من نهب وسلب لخيرات الشعوب ليزداد تُخْمَةً وتسلّطاً، وسيطرة فهو الديمقراطية حسب معتقدهِ. أما إذا طبقت الشعوب المستضعفة ديمقراطيتها التي ترفع من شأنها وترفع عنها سيطرة هذا الغرب المتوحش فإن ديمقراطية هذه الشعوب بنظره، مبتورةٌ، وغير مناسبة في القرن العشرين والواحد والعشرين.

اقرأ أيها الغرب، وتفهّم، وأدرك أن عظيماً من عظمائنا سنّ لنا الديمقراطية الحقّ التي لا تبلغ إليها ديمقراطيتك مهما صرخت وادّعيت.

استمعوا أيّها الحكام في أقاصي الأرض وأدانيها إلى هذا العهد الذي يسعدكم ويسعد شعوبكم إن أخذتم به وطبّقتم أحكامه على شعوبكم.

وأنت أيّتها الإنسانية المعذّبة! .. متى ينزاح عنك العذاب والشقاء؟ أرى أن ذلك سيتم عندما تطالبين حكّامك بتطبيق بنود وفقرات هذا العهد:

. بسم الله الرحمن الرحيم .

«هذا ما أمر به عبد الله عليٌّ أمير المؤمنين مالكَ بن الحارث الأشترَ في عهده إليه حين ولاه مصر: جبايةَ خراجها، وجهادَ عدوّها، واستصلاحَ أهلها، وعمارةَ بلادها.

أمره بتقوى الله وإيثار طاعته، واتّباع ما أمر به في كتابه: من فرائضه وسننه التي لا يسعد أحد إلاّ باتّباعها، ولا يشقى إلاّ مع جحودها وإضاعتها؛ وأن ينصر الله سبحانه بقلبه ويده ولسانه فإنهّ جلّ اسمه قد تكفّل بنصر من نصره، وإعزاز من أعزّه. وأمره أن يكسر نفسه من الشّهوات ويَزَعَها عند الجَمَحَات (يكفّها عن مطامعها إذا جَمَحَت) فإن النفس أمّارة بالسوء إلاّ ما رحم الله ثم اعلم يا مالك أنّي قد وجّهتك إلى بلاد قد جرت عليها دولٌ قبلك من عدل وجَور، وأن النّاس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم، وإنما يُستدلّ على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده؛ فليكن أحبّ الذّخائر إليك ذخيرة العمل الصالح فاملك هواك، وشُحَّ نفسك عمّا لا يحلّ لك فإن الشحّ بالنفس الإنصاف منها فيما أحبّت أو كرهت.

وأشعر قلبك الرحمة للرعيّة والمحبّة لهم واللطف بهم، ولا تكوننّ عليهم سَبعاً ضارياً تغتنم أكلهم فإنهم صنفان: إمّا أخٌ لك في الدين، أو نظيرٌ لك في الخلق، يفرط منهم الزّلل (يسبق الخطأ) وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحبّ أن يعطيك الله من عفوه وصفحه فإنك فوقهم ووالي الأمر عليك فوقك والله فوق من ولاّك.

وقد استكفاك أمرهم (طلب منك كفاية أمرهم والقيام بتدبير مصالحهم) وابتلاك بهم. ولا تنصبنّ نفسك لحرب الله (مخالفة شريعته بالجور والظلم) فإنه لا يَدَيْ لك بنقمته (لا

طاقة لك بدفع نقمته) ولا غنى بك عن عفوه ورحمته، ولا تندمنَّ على عفو، ولا تبجَحَنَّ بعقوبة (ولا تسارع) ولا تسرعنَّ إلى بادرة وجدت منها مندوحةً (متسعاً)، ولا تقولنَّ إنّي مُؤَمَّر أمرُ فأطاع (المؤمَّر: المسلَّط) فإن ذلك إدغالٌ (إفسادٌ) في القلب، ومنهكةٌ للدين، وتقرّبٌ من الغيَر (حادثات الدهر).

وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أُبهةً أو مَخيلةً (الخيلاء والعجب) فانظر إلى عظم ملك الله فوقك وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك؛ فإن ذلك يطامن إليك من طماحك (النشوز والجماح) ويكفّ عنك من غَرْبك (حدّتك) ويضيء إليك بما عَزُب عنك مَن عقلك (يرجع ما غاب منه) إيّاك ومساماة الله في عظَمته (مباراة الله في علوّه) والتشبّه به في جبروته؛ فإن الله يذلّ كلّ جبّار، ويهين كلّ مختال.

أنصف الله وأنصف النّاس من نفسك ومن خاصّة أهلك ومن لك فيه هوىً من رعيّتك؛ فإنك إلاّ تفعل تظلم!.. ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده، ومن خاصمه الله أدْحَض حجّته (أبطل) وكان لله حرباً حتى ينزع أو يتوب وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم فإن الله سميعٌ دعوةَ المضطَهَدين وهو للظالمين بالمرصاد. وليكن أحبَّ الأمور إليك أوسطها في الحقّ وأعمّها في العدل، وأجمعها لرضا الرعيّة، فإن سخط العامّة يجحف (يذهب) برضا الخاصّة، وإن سخط الخاصّة يُغتفر مع رضا العامّة، وليس أحد من الرَعيّة أثقل على الوالي مؤونةً في الرّخاء، وأقلّ معونةً له في البلاء، وأكره للإنصاف وأسأل بالإلحاف (الإلحاح في السؤال) وأقلّ شكراً عند الإعطاء وأبطأ عذراً عند المنع، وأضعف بصراً عند ملمّات الدهر من أهل الخاصّة؛ وإنما عماد الدين وجماع المسلمين، والعدّة للأعداء العامّة من الأمّة. فليكن صغوُك لهم وميلك معهم، وليكن أبعد رعيتك منك وأشنؤهم (أبغضهم) عندك أطلبهم لمعائب النّاس (الأشدّ طلباً لها) فإن في النّاس عيوباً الوالي أحقُّ مَن سَتَرها، فلا تكشفنَّ عمّا غاب عنك منها فإنما عليك تطهير ما ظهر لك. والله يحكم على ما غاب عنك. فاستر العورة ما استطعت يستر الله منك ما تحب ستره من رعيّتك. أطلق عن النّاس عقدة كل حقد، واقطع عنك سبب كل وتْر (عداوة)، وتغابَ عن كل ما لا يصح لك، ولا تعجلنَّ إلى تصديق ساع (نمّام بمعائب النّاس) فإن السّاعي غاشٌ وإن تشبه بالناصحين. ولا تدخلنَّ في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل (الإحسان) ويعدك الفقر (يخوّفك)، ولا جباناً يضعفك عن الأمور ولا حريصاً يزيّن لك الشَّرَه بالجَور فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتّى يجمعها سوء الظن بالله.

إن شرّ وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً ، ومن شركهم في الآثام ، فلا يكوننّ لك بطانةً (خاصة) فإنهم أعوان الأثمة وأخوان الظلمة ، وأنت واجدٌ منهم خير الخلف ممّن له مثل آرائهم ونفاذهم وليس عليه مثل آصارهم (ذنوبهم وآثامهم) وأوزارهم ، ممّن لم يعاون ظالماً على ظلمه ولا آثماً على إثمه : أولئك أخفّ عليك ، مؤونةً وأحسن لك معونةً ، وأحنى عليك عطفاً ، وأقلّ لغيرك إلفاً (محبّة) ، فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك ، ثم ليكن آثرهُم عندك أقولَهم بمُرّ الحقّ لك ، وأقلّهم مساعدةً فيما يكون منك ممّا كره الله لأوليائه واقعاً ذلك من هواك حيث وقع . والصق بأهل الورع والصدق ثم رُضْهم على ألاّ يُروك (عوّدهم على ألاّ يزيدوا في مدحك) ولا يبجحوك بباطل لم تفعله (ولا يفرحوك بنسبة عمل عظيم إليك ولم تكن فعلته) فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو وتدني من العزّة .

ولا يكن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء ؛ فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان ، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءةَ ! . . والزم كلاً منهم ما ألزم نفسه . واعلم أنه ليس شيء بأدعى إلى حسن ظنّ راع برعيته من إحسانه إليهم ، وتخفيفه المؤونات عليهم ، وترك استكراهه إيّاهم على ما ليس له قبلهم . فليكن منك في ذلك أمرٌ يجتمع لك به حسن الظن برعيتك فإن حسن الظن يقطع عنك نصباً (تعباً) طويلاً .

وإن أحقّ من ساء ظنك به لمن حسن بلاؤك عنده وإن أحقّ من ساء ظنّك به لمن ساء بلاؤك عنده .

ولا تنقض سُنّة صالحة عمل بها صدور هذه الأمّة واجتمعت بها الألفة ، وصلحت عليها الرعية ، ولا تحدثنّ سنّةً تضرّ بشيء من ماضي تلك السّنن فيكون الأجر لمن سنّها والوزر عليك بما نقضتَ منها . وأكثر مدارسة العلماء ومناقشة الحكماء (محادثة العلماء) في تَثبيت ما صلح عليه أمر بلادك وإقامة ما استقام به النّاس قبلك .

واعلم أن الرعيّة طبقات لا يصلح بعضها إلاّ ببعض ولا غنىً ببعضها عن بعض : فمنها جنود الله ، ومنها كُتّاب العامّة والخاصّة ، ومنها قضاة العدل ، ومَنها عمّال الإنصاف والرّفق ، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمّة ، ومُسلمة النّاس . . ومنها التّجار وأهل الصناعات ، ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة وكلٌ قد سمّى الله له سَهْمَه (نصيبه من الحق) ، ووضع على حده فريضة في كتابه أو سنّة نبيّه ﷺ عهداً من عندنا محفوظاً . فالجنود بإذن الله حصون الرعية ، وزين الولاة ، وعزّ الدين وسبل الأمن وليس تقوم الرعيّة إلاّ بهم .

ثم لا قوام للجنود إلاّ بما يخرج الله لهم من الخراج الذي يقوون به على جهاد عدوّهم، ويعتمدَون عليه فيما يُصلحهم ويكون من وراء حاجتهم. ثم لا قوام لهذين الصنفين إلاّ بالصنف الثالث من القضاة والعمّال والكتّاب لما يحكمون من المَعاقد (العقود في البيع والشراء) ويجمعون من المنافع، ويؤتمنون عليه من خواصّ الأمور وعوامّها، ولا قوام لهم جميعاً إلاّ بالتّجار وذوي الصناعات فيما يجتمعون عليه من مرافقهم (منافعهم) ويقيمونه من أسواقهم، ويكفونهم من الترفّق بأيديهم ما لا يبلغه رفق غيرهم، ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدهم ومعونتهم (مساعدتهم وصلتهم) وفي الله لكلّ سَعَةٌ، ولكلٍ على الوالي حقٌ بقدر ما يصلحه.

وليس يخرج الوالي من حقيقة ما ألزمه الله من ذلك إلاّ بالاهتمام والاستعانة بالله، وتوطين نفسه على لزوم الحقّ، والصبر عليه فيما خفّ عليه أو ثَقُل.

فولّ من جنودك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولإمامك وأتقاهم جيباً (طاهر الصدر والقلب) وأفضلهم حلماً: ممّن يبطئ عند الغضب، ويستريح إلى العُذر، ويرأف بالضعفاء، وينبو (يشتدّ) على الأقوياء، وممّن لا يثيره العنف ولا يقعد به الضعف.

ثم الصق بذوي الأحساب وأهل البيوتات الصّالحة والسوابق الحسنة، ثم أهل النجدة والشجاعة والسّخاء والسّماحة فإنهم جِماعٌ من الكرم، وشعب من العُرْف؛ ثم تفقّد من أمورهم ما يتفقد الوالدان من ولدهما.

ولا يتفاقمنّ في نفسك شيء قوّيتهم به، ولا تحقرنّ لطفاً تعاهدتهم به وإن قلّ فإنه داعية لهم إلى بذل النّصيحة لك، وحسن الظنّ بك.

ولا تَدَع تفقّد لطيف أمورهم اتّكالاً على جسيمها؛ فإن لليسير من لطفك موضعاً ينتفعون به، وللجسيم موقعاً لا يستغنون عنه وليكن آثر رؤوس جندك عندك مَن واساهم (ساعدهم) في معونته؛ وأفضل عليهم من جِدَته (غناه) بما يسعهم ويسع من وراءهم من خُلُوف أهليهم حتى يكون همّهم همّاً واحداً في جهاد العدوّ؛ فإن عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك.

وإن أفضل قرّة عين الولاة استقامة العدل في البلاد وظهور مودّة الرعية؛ وإنّه لا تظهر مودّتهم إلاّ بسلامة صدورهم ولا تصحّ نصيحتهم إلاّ بحيطتهم على ولاة الأمور (بمحافظتهم على ولاة الأمور) وقلّة استثقال دولهم، وترك استبطاء انقطاع مدّتهم، فافسح في آمالهم

وواصل في حسن الثناء عليهم وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم ؛ فإن كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهزّ الشجاع وتحرّض النّاكل (المتأخّر القاعد) إن شاء الله .

ثم اعرف لكلّ امرئ منهم ما أبلى ، ولا تضيفنّ بلاء امرئ إلى غيره ، ولا تقصرنّ به دون غاية بلائه ، ولا يدعونّكَ شرف امرئ إلى أن تُعظم من بلائه مّا كان صغيراً ، ولا ضَعَة امرئ إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيّماً .

واردد إلى الله ورسوله ما يُضلعك من الخطوب (ما يشكل عليك) ، ويشتبه عليك من الأمور ؛ فقد قال الله تعالى لقوم أحبّ إرشادهم **﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾** ، فالرد إلى الله : الأخذ بمحكم كتابه (نصه الصريح) ، والرد إلى الرسول : الأخذ بسنته الجامعة غير المفرّقة .

ثم اختر للحكم بين النّاس أفضل رعيتك (القضاة) في نفسك ممّن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم (تغضبه) ولا يتمادى في الزلّة ، ولا يحصَر من الفيء إلى الحقّ إذا عرفه (لا يضيَق صدره من الرجوع إلى الحق) ولا تشرف نفسه على طمع ، ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه وأوقفهم في الشُّبهات ، وآخذهم بالحجج ، وأقلّهم تبرّماً بمراجعة الخصم ، وأصبرهم على تكشّف الأمور ، وأصرمهم عند اتّضاح الحكم ؛ ممّن لا يزدهيه إطراء ، ولا يستميله إغراء وأولئك قليل .

ثم أكثر تعاهد قضائه ، وافسح له في البذل ما يزيل علّته ويُقلّ معه حاجته إلى النّاس ، وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصّتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك ، وانظر في ذلك نظراً بليغاً فإن هذا الدين قد كان أسيراً في أيدي الأشرار يُعْمل فيه بالهوى وتُطلبُ به الدنيا . ثم انظر في أمور عمّالك فاستعملهم اختباراً (امتحاناً) ولا تولّهم محاباة وأثَرَة فإنهم جماع من شعب الجور والخيانة ، وتوخَّ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدَم في الإسلام المتقدمة فإنهم أكرم أخلاقاً وأصحّ أعراضاً ؛ وأقلّ في المطامع إشرافاً وأبلغ في عواقب الأمور نظراً . ثم أسبغ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوّة لهم على استصلاح أنفسهم ، وغنىً لهم عن تناول ما تحت أيديهم ، وحجّة عليهم إن خالفوك أمرك أو ثلموا (خانوا) أمانتك ؛ ثم تفقّد أعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم فإن تعاهدك في السّر لأمورهم حَدْوَةٌ (حث) لهم على استعمال الأمانة والرفق

بالرعيّة، وتحفّظ من الأعوان فإنْ أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك اكتفيت بذلك شاهداً فبسطت عليه العقوبة في بدنهّ، وأخذته بما أصاب من عمله، ثم نصبته بمقام المذلّة، ووسمته بالخيانة، وقلّدته عار التهَمَة.

وتفقّد أمر الخراج بما يصلح أهله؛ فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم؛ ولا صلاح إلاّ بهم لأن النّاس كلّهم عيال على الخراج وأهله.

وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج لأن ذلك لا يدرك إلاّ بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد، ولم يستقم أمره إلاّ قليلا؛ فإن شكَوا ثقلاً أو علّةً (ثقل المضروب من مال الخراج أو علّة سماوية، بزرعهم) أو انقطاع شرب أو بالة (ما يبلّ الأرض من ندى ومطر) أو إحالة أرض اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش خفّفتَ بهّ المؤونة عنهم فإنه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك وتزيين ولايتك مع استجلابك حسن ثنائهم، وتبجّحك باستفاضة العدل فيهم (السرور بما يرى من حسن عمله في العدل) معتمداً أفضل قوّتهمَ بما ذخرت عندهم من إجماعك لهم والثقة منهم بما عوّدتهم من عدلك عليهم في رفقك بهم؛ فربّما حدث من الأمور ما إذا عوّلتَ فيه عليهم من بَعْدُ احتملوه طيبةً أنفسهم به فإن العُمران محتملٌ ما حمّلتَه وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها؛ وإنما يُعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع (جمع المال) وسوء ظنهم بالبقاء، وقلة انتفاعهم بالعبَر.

ثم انظر في حال كتّابك فولّ على أمورك خيرهم واخصص رسائلك التي تُدخل فيها مكائدك وأسرارك بأجمعهم لوجوه صالح الأخلاق ممّن لا تبطره الكرامة فيجترئ بهاَ عليك في خلاف لك بحضرة ملأ ولا تقصُر به الغفلة عن إيراد مكاتبات عمّالك عليك وإصدار جواباَتها عَلى الصّواب عنك فيما يأخذ لك ويعطي منك، ولا يُضعف عقداً اعتقده لك، ولا يعجز عن إطلاق ما عقد عليك، ولا يجهل مبلغ قدر نفسه في الأمور فإن الجاهل بقدر نفسه يكون بقدْر غيره أجهل. ثم لا يكون اختيارك إيّاهم على فراستك واستنامتك (لا يكون انتخابك لهم تابعاً لميلك الخاص) وحسن الظنّ منك؛ فإن الرجال يتعرّفون لفراسات الولاة بتصنّعهم وحسن خدمتهم (يتوسّلون إليها لتعرفهم) وليس وراء ذلك من النّصيحة والأمانة شيء، ولكن اختبرهم بما وُلوا للصالحين قبلك: فاعمد لأحسنهم كان في العامّة أثراً، وأعرفهم بالأمانة وجهاً فإن ذلك دليلٌ على نصيحتك لله ولمن وُليت أمره.

واجعل لرأس كلّ أمر من أمورك رأساً منهم لا يقهره كبيرها، ولا يتشتّت عليه كثيرها. ومهما كان في كتابك من عيب فتغابيت عنه أُلزمتَه (إذا تغافلت عن عيب كتّابك كان العيب لاصقاً بك).

ثم استوص بالتّجار وذوي الصناعات وأوصِ بهم خيراً: المقيم منهم، والمضطرب بماله (المتردّد بأمواله بين البلدان) والمترفّق ببدنه، فإنهم موادّ المنافع وأسباب المرافق وجُلّابها من المباعد والمطارح في برّك وبحرك وسهلك وجبلك، وحيث لا يلتئم النّاس لمواضعها ولا يجترؤون عليها فإنهم سلمٌ لا تخاف بائقته (داهية أو عصيان) وصلح لا تخشى غائلته؛ وتفقّد أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك. واعلم - مع ذلك - أن في كثير منهم ضيقاً فاحشاً، وشحّاً قبيحاً (عسر المعاملة والاحتكار) واحتكاراً للمنافع، وتحكّماً في البيّاعات وذلك باب مضرّة للعامّة، وعيبٌ على الولاة؛ فامنع من الاحتكار فإن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم منع منه.

وليكن البيع بيعاً سمحاً: بموازين عدل، وأسعار لا تُجحف بالفريقين من البائع والمبتاع (المشتري) فمن قارف حُكْرَةً بعد نهيك إياه (من احتكر بعد النهي عنه) فنكّل به وعاقبه في غير إسراف.

ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤسى والزّمنى (الفقراء وأرباب العاهات) فإن في هذه الطبقة قانعاً ومعتراً (سائلاً ومتعرّضاً للعطاء بلا سؤال)؛ واحفظ لله ما استحفظك من حقّه فيهم؛ واجعل لهم قسماً من بيت مالك، وقسماً من غلاّت صوافي الإسلام في كلّ بلد (ثمرات وغلاّت أرض الغنيمة) فإن للأقصى منهم مثل الذي للأدنى، وكلّ قد استرعيتَ حقّه؛ فلا يشغلنّك عنهم بطرٌ (طغيان بالنعمة) فإنك لا تعذر بتضييعك التّافه لإحكامك الكثير المهم، فلا تشخص همّك عنهم (لا تصرف اهتمامك عن ملاحظة شؤونهم)، ولا تصعّر خدك لهم، وتفقّد أمور من لا يصل إليك منهم ممّن تقتحمه العيون (تكره أن تنظر إليه احتقاراً) وتحقرهُ الرّجال. ففرّغ لأولئك ثقتك من أهل الخَشْيَة والتواضع فليرفع إليك أمورهم، ثم اعمل فيهم بالإعزاز إلى الله يوم تلقاه فإن هؤلاء من بين الرعيّة أحوج إلى الإنصاف من غيرهم، وكلّ فاعذر إلى الله في تأدية حقّه إليه.

وتعهّد أهل اليتم وذوي الرقّة في السنّ (الأيتام والمتقدمين في السن) ممّن لا حيلة له ولا ينصب للمسألة نفسه وذلك على الولاة ثقيل (والحقّ كله ثقيل) وقد يخفّفه الله على أقوام طلَبوا العاقبة فصبّروا أنفسهم ووثقوا بصدق موعود الله لهم.

واجعل لذوي الحاجات (للمتظلّمين) منك قسماً تفرّغ لهم فيه شخصك، وتجلس لهم مجلساً عاماً فتتواضع فيه لله الذي خلقك، وتُقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك (لا يتعرضون لهم) وشُرَطك حتى يكلّمك متكلّمهم غير متَعتع (المتردد الخائف) فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول في غير موطن: (لن تُقدّس أمّة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القويّ غير متَعتع)، ثم احتمل الخُرْق منهم والعيّ (العنيف والعاجز عن النطق)، ونحّ عنهم الضّيق والأنف (ضيق الصدر والاستكبار) يبسطَ الله عليك بذلك أكناف رحمته ويوجب لك ثواب طاعته، وأعط ما أعطيت هنيئاً: (هانئاً سهلاً) وامنع في إجمال وإعذار (بلطف وتقديم عذر).

ثمّ أمورٌ من أمورك لا بدّ لك من مباشرتها: منها إجابة عمّالك بما يعيا عنه كتّابك، ومنها إصدار حاجات النّاس يوم ورودها عليك بما تحرج به صدور أعوانك، وأمض لكلّ يوم عمله؛ فإن لكلّ يوم ما فيه، واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله أفضل تلك المواقيت، وأجزل تلك الأقسام وإن كانت كلّها لله إذا صلحت فيها النية وسلمت منها الرعيّة. وليكن في خاصّة ما تخلص به لله دينك: إقامة فرائضه التي هي له خاصّة، فأعط الله من بدنك في ليلك ونهارك، ووفّ ما تقرّبت به إلى الله من ذلك كاملاً غيرَ مثلوم ولا منقوص، بالغاً من بدنك ما بلغ، وإذا قمت في صلاتك للناس فلا تكونن منفّراً ولا مضيّعاً (مطوّلاً ومنقصاً في الأركان) فإن في النّاس من به العلة وله الحاجة. وقد سألت رسول الله ﷺ حين وجّهني إلى اليمن: كيف أصلي بهم؟ فقال: «صلّ بهم كصلاة أضعفهم، وكن بالمؤمنين رحيماً».

وأمّا بعد فلا تُطولنّ احتجابَك عن رعيتك، فإن احتجاب الولاة عن الرعيّة شعبة من الضيق، وقلة علم بالأمور والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه فيصغر عندهم الكبير ويعظم الصغير ويقبح الحسن، ويحسن القبيح ويُشاب الحقّ بالباطل؛ وإنما الوالي بشر لا يعرف ما توارى عنه النّاس به من الأمور، وليست على الحقّ سمات تعرف بها ضروب الصدق من الكذب، وإنما أنت أحد رجلين: إمّا امرؤٌ سخت نفسك بالبذل في الحقّ ففيم احتجابك من واجب حقّ تعطيه؟ أو فعل كريم تسديه؟، أو مبتلى بالمنع فما أسرع كفّ

النّاس عن مسألتك إذا أيسوا من بذلك، مع أن أكثر حاجات النّاس إليك مما لا مؤونة فيه عليك من شكاة مظلمة أو طلب إنصاف وفي معاملة.

ثمّ إن للوالي خاصّة وبطانة فيهم استئثار وتطاول وقلة إنصاف في معاملة، فاحسم مادّة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال، ولا تقطعنّ لأحد من حاشيتك وحامّتك (الخاصّة والقرابة) قطيعة (منحة من الأرض) ولا يطمعنّ منك في اعتقاد عقدة تضرّ بمن يليها من النّاس في شرب أو عمل مشترك يحملون مؤونته على غيرهم فيكون مهنأ ذلك لهم دونك، وعيبه عليك في الدنيا والآخرة. وألزم الحقّ من لزمه من القريب والبعيد، وكن في ذلك صابراً محتسباً، واقعاً ذلك من قرابتك وخاصّتك حيث وقع؛ وابتغ عاقبته بما يثقل عليك منه فإن مغبّة ذلك محمودة.

وإن ظنّت الرعيّة بك حيفاً فأصحرْ لهم بعذرك، واعدل عنك ظنونهم بإصحارك؛ فإن في ذلك رياضة منك لنفسك (ابرز لهم وقدّم عذرك) ورفقاً برعيتك، وإعذاراً تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحقّ.

ولا تدفعنّ صلحاً دعاك إليه عدوّك ولله فيه رضا فإن في الصلح دَعَةً (راحة) لجنودك وراحة من همومك وأمناً لبلادك، ولكنّ الحذر كلّ الحذر من عدوّك بعد صلحه، فإن العدوّ ربّما قارب ليتغفّل (يتقرّب بالصلح ليجد غفلة فيغدر) فخذ بالحزم، واتّهم في ذلك حسن الظنّ.

وإن عقدت بينك وبين عدوّك عقدة أو ألبسته منك ذمّة فحُطْ عهدكَ بالوفاء، وارعَ ذمّتك بالأمانة، واجعل نفسك جُنّة دون ما أعطيت فإنه ليس من فرائض الله شيء النّاس أشدّ عليه اجتماعاً مع تفرّق أهوائهم وتشتّت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين لمّا استوبلوا من عواقب الغدر (وجدوا عواقب الغدر مهلكة) فلا تغدرنّ بذمتك ولا تخيسنّ بعهدك (لا تخن وتنقض)، ولا تختلنّ عدوّك فإنه لا يجترئ على الله إلاّ جاهل شقيّ. وقد جعل الله عهده وذمّته أمناً أفضاه بين العباد برحمته، وحريماً يسكنون إلى منعته، ويستفيضون إلى جواره (يفزعون إليه بسرعة). فلا إدغال ولا مدالسة (إفساد وخيانة) ولا خداع فيه.

ولا تعقد عقداً تجوز فيه العلل (ما يحوّله إلى غير المراد) ولا تعوّلنّ على لحن القول (التورية والتعريض) بعد التأكيد والتّوثقة. ولا يدعونّك ضيق أمرٍ لزمك فيه عهد الله إلى

طلب انفساخه بغير الحق ؛ فإن صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه وفضل عاقبته خيرٌ من غدر تخاف تبعته وأن تحيط بك من الله فيه طلبة (مطالبة) فلا تستقبل فيها دنياك ولا آخرتك .

إيّاك والدّماءَ وسفكها بغير حلّها ؛ فإنه ليس شيء أدنى لنقمة ولا أعظم لتبعة ، ولا أحرى بزوال نعمة وانقطاع مدّة من سفكِ الدّماء بغير حقّها ؛ والله سبحانه مبتدئ بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة ، فلا تقوّينّ سلطانك بسفك دم حرام ؛ فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه بل يزيله وينقله ، ولا عذر لك عند الله ولا عندي في قتل العَمْد ؛ لأن فيه قَوَد البدن (القصاص للجسد) وإن ابتليت بخطأ وأفرط عليك سوطك أو سيفك أو يدك بالعقوبة (عجّل بما لم تكن تريده : أردت تأديباً فأعقب قتلاً) فإن في الوكزة فما فوقها مقتلة ، فلا تطمحنّ بك نخوة سلطانك عن أن تؤدي إلى أولياء المقتول حقّهم .

وإياك والإعجاب بنفسك ، والثقة بما يعجبك منها ، وحبَّ الإطراء فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين .

وإيّاك والمنَّ على رعيّتك بإحسانك أو التزيّد فيما كان من فعلك ، أو أن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك فإن المنَّ يبطل الإحسان ، والتزيّد يذهب بنور الحقّ ، والخلف يوجب المقت عند الله والنّاس : قال الله تعالى : **﴿كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾** .

وإيّاك والعجلة بالأمور قبل أوانها ، أو التّسقّط فيها عند إمكانها ، أو اللجاجة فيها إذا تنكرت (لم يعرف وجه الصواب فيها) أو الوهن عنها إذا استوضحت ، فضع كل أمر موضعه وأوقع كلّ أمرٍ موقعه .

وإيّاك والاستئثار بمال النّاس فيه أسوة ، والتّغابي عمّا تعنى به ممّا قد وضح للعيون ؛ فإنه مأخوذ منك لغيرك وعمّا قليل تنكشف عنك أغطية الأمور ، ويُنتصف منك للمظلوم . املك حميَّة أنفك ، وسورة حدّك ، وسطوة يدك وغَرب لسانك ، واحترس من كلّ ذلك بكفّ البادرَة (ما يبدرُ من اللسان عند الغضب) وتأخير السّطوة حتى يسكن غضبك فتملك الاختيار ولنَ تحكم ذلك من نفسك حتى تكثر همومك بذكر المعاد إلى ربك .

والواجبُ عليك أن تتذكّر ما مضى لمن تقدّمك من حكومة عادلة أو سنّة فاضلة أو أثر عن نبيّنا ﷺ أو فريضة في كتاب الله فتقتدي بما شاهدت ممّا عملْنا به فيها ، وتجتهد لنفسكَ في اتّباع ما عهدتُ إليك في عهدي هذا ، واستوثقت به من الحجة لنفسي عليك ؛ لكيلا تكون لك علّةٌ عند تسرّع نفسك إلى هواها .

وأنا أسأل الله بسعة رحمته، وعظيم قدرته على إعطاء كلّ رغبةٍ أن يوفّقني وإيّاك لما فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه مع حسن الثناء في العبادة، وجميل الأثر في البلاد، وتمام النعمة وتضعيف (زيادة) الكرامة، وأن يختم لي ولك بالسّعادة والشهادة؛ إنّا إليه راجعون.

والسّلام على رسول الله صلّى الله عليه وآله الطيبين الطاهرين وسلّم تسليماً كثيرا. والسّلام.(٣١)

وأختم هذا الفصل بصفة الإمام عليّ عليه السّلام:

قال واصفو عليّ بن أبي طالب عليه السلام وفيهم صاحب ذخائر العقبى: «إنه كان وهو في تمام الرّجولة: رَبْعَة القامة، أميل إلى القصر، أسمر شديد السمرة، أبيض اللحية طويلها، أدعج العينين في سعة، حسن الوجه، واضح البشاشة، كثير التبسّم، أغيد كأنما عنقه إبريق فضّة، عريض المنكبين لهما مشاش كمشاش السّبع الضاري لا تبين عضده من ساعده بل أدمجا إدماجاً، شثن الكفين، أبجر، يميل إلى السّمنة في غير إفراط. ضخم عضلة الساق دقيق مستدقّها، ضخم عضلة الذراع دقيق مستدقّها، يتكفّأ في مشيته على نحو يقارب مشية النبيّ صلى الله عليه وآله ويقدّم في الحرب فيقدم مهرولاً لا يلوي على شيء، ثم إنه كان من القوة الجسدية على ما يدهش العقول فربّما رفع الفارس بيده فجلد به الأرض غير جاهد ولا حافل كأنه يرفع طفلاً وليداً. وربما أمسك بذراع البطل فكأنه أمسك بنفسه فلا يستطيع أن يتنفّس. واشتهر عنه أنه لم يبارز فارساً إلاّ صرعه مهما كانت قواه بالغة ومهما كان شأنه عظيماً.

وقد يحمل الباب الضخم الذي يعيا الأبطال بقلبه أو تحريكه فيأخذه بيد واحدة ويترّس به كأنه ترسٌ عاديٌّ، وقد يزحزح بيدٍ واحدة الصّخرَ الضّخمَ لا يزحزحه رجالٌ مجتمعون.

ثم إنه قد يصيح الصيحة في ميدان القتال فتنخلع لها قلوب الشجعان أفراداً وجماعات!..

وكان له من مكانة التركيب صلابة على الطوارئ الجويّة فلا يبالي ألبس ثياب الشتاء في الصيف، أو ثياب الصيف في الشتاء.(٣٢)

المراجع

٧ ـ نهج البلاغة ، شرح ابن أبي الحديد ج١٣ ، ص٢٠٢ .
٨ ـ نهج البلاغة ، شرح ابن أبي الحديد ج١٣ ، ص١٩٨ ـ ١٩٩ عن الطّبري .
٩ ـ نهج البلاغة شرح ابن أبي الحديد ج١٣ ، ص٢١٠ .
١٠ ـ نهج البلاغة شرح ابن أبي الحدي ج١٣ ، ص٢١١ .
١١ ـ نهج البلاغة شرح ابن أبي الحديد ج١٣ ، ص٢١٢ .
١٢ ـ نهج البلاغة شرح ابن أبي الحديد ج١٣ ، ص٢١٢ ـ ٢١٣ .
١٣ ـ نهج البلاغة شرح ابن أبي الحديد ج٩ ، ص١٦٤ ـ ١٦٦ .
١٤ ـ نهج البلاغة شرح ابن أبي الحديد ج٩ ص١٦٦ وما بعدها .
١٥ ـ نهج البلاغة شرح ابن أبي الحديد ج٩ ص١٧٤ ـ ١٧٥ .
١٦ ـ كتاب المراجعات ص٢٠٤ وما بعدها .
١٧ ـ كتاب المراجعات ص١٨١ .
١٨ ـ كتاب المراجعات ص١٨٦ .
١٩ ـ كتاب المراجعات ص١٨٨ .
٢٠ ـ كتاب المراجعات ص١٩٤ .
٢١ ـ كتاب المراجعات ص١٩١ عن كتاب الكامل في التاريخ ج٨ ص١٨١ .
٢٢ ـ نهج البلاغة شرح ابن أبي الحديد ج١٦ ، ص٢٣٣ .
٢٣ ـ نهج البلاغة شرح ابن أبي الحديد ج١٦ ، ص١٤٦ .
٢٤ ـ نهج البلاغة شرح ابن أبي الحديد ج١٦ ، ص٢٨٩ .
٢٥ ـ نهج البلاغة شرح ابن أبي الحديد ج١٦ ، ص٢٨٦ .
٢٦ ـ نهج البلاغة شرح ابن أبي الحديد ج٢٠ ، ص٢٨٣ .
٢٧ ـ نهج البلاغة شرح ابن أبي الحديد ج٢ ، ص٢٨٦ وما بعدها .
٢٨ ـ نهج البلاغة شرح ابن أبي الحديد ج٢ ، ص١٨٧ .
٢٩ ـ الإمام عليّ صوت العدالة الإنسانية ج١ ، ص٢٢ .
٣٠ ـ الإمام عليّ صوت العدالة الإنسانية ج١ ، ص٤٨ .
٣١ ـ نهج البلاغة شرح الشّيخ محمّد عبده ج٣ ، ص٩٢ وما بعدها .
٣٢ ـ الإمام عليّ صوت العدالة الإنسانية ج١ ، ص٧٢ .

الفصل الثالث

التشيّع والشيعة

في لسان العرب: «الشيعة القوم الذين يجتمعون على الأمر، وأصل الشيعة الفرقة من الناس، ويقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكّر والمؤنث بلفظ واحد ومعنى واحد. وقد غلب هذا الاسم على من يتوالى (علياً) وأهل بيته رضوان الله عليهم أجمعين، حتى صار لهم اسماً خاصاً، فإذا قيل: فلان من الشيعة عرف أنه منهم، وفي مذهب الشيعة عرف أنه منهم، وفي مذهب الشيعة كذا أي عندهم وأصل ذلك من المشايعة وهي المتابعة والمطاوعة». (٣٣)

ويقول ابن خلدون في مقدمة تاريخه «اعلم أن الشيعة هم الصحب والأتباع ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على أتباع (علي) وبنيه رضي الله عنهم ومذهبهم جميعاً متّفقين عليه أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوّض إلى نظر الأمة ويتعيّن القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام ولا يجوز لنبيّ إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر وإن (علياً) رضي الله عنه هو الذي عيّنه صلوات الله عليه وسلامه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مذهبهم». (٣٤)

«ولفظ الشيعة علمٌ على من يؤمن بأن (علياً) عليه السلام هو الخليفة بنصّ النبيّ ﷺ. والتشيّع في حقيقته وجوهره هو الإيمان بأن الإمام المنصوص عليه يتولى الحكم، ويحكم بإرادة الله لا بإرادة الناس». (٣٥)

متى بدأ التشيّع؟

يقول الشيعة: إن التشيّع بدأ في حياة الرسول ﷺ بل منذ بدء الدعوة الإسلامية وذلك من خلال عدة أحاديث نبوية شريفة اتفقوا عليها مع أهل السنّة ونذكر حديثاً جديداً منها بعدما قدمنا عدة أحاديث منها في الفصل السابق:

قال النبي ﷺ عندما أنزلت عليه الآية الكريمة: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ فجمع الرسول الكريم من اهل بيته ثلاثين وقال لهم: قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني

الفصل الثالث

التشيّع والشيعة

في لسان العرب: «الشيعة القوم الذين يجتمعون على الأمر، وأصل الشيعة الفرقة من الناس، ويقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكّر والمؤنث بلفظ واحد ومعنى واحد. وقد غلب هذا الاسم على من يتوالى (علياً) وأهل بيته رضوان الله عليهم أجمعين، حتى صار لهم اسماً خاصاً، فإذا قيل: فلان من الشيعة عرف أنه منهم، وفي مذهب الشيعة عرف أنه منهم، وفي مذهب الشيعة كذا أي عندهم وأصل ذلك من المشايعة وهي المتابعة والمطاوعة». [٣٣]

ويقول ابن خلدون في مقدمة تاريخه «اعلم أن الشيعة هم الصحب والأتباع ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على أتباع (عليّ) وبنيه رضي الله عنهم ومذهبهم جميعاً متّفقين عليه أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوّض إلى نظر الأمة ويتعيّن القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام ولا يجوز لنبيّ إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر وإن (علياً) رضي الله عنه هو الذي عيّنه صلوات الله عليه وسلامه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مذهبهم». [٣٤]

«ولفظ الشيعة علمٌ على من يؤمن بأن (علياً) عليه السلام هو الخليفة بنصّ النبيّ ﷺ. والتشيّع في حقيقته وجوهره هو الإيمان بأن الإمام المنصوص عليه يتولى الحكم، ويحكم بإرادة الله لا بإرادة الناس». [٣٥]

متى بدأ التشيّع؟

يقول الشيعة: إن التشيّع بدأ في حياة الرسول ﷺ بل منذ بدء الدعوة الإسلامية وذلك من خلال عدة أحاديث نبوية شريفة اتفقوا عليها مع أهل السنّة ونذكر حديثاً جديداً منها بعدما قدمنا عدة أحاديث منها في الفصل السابق:

قال النبي ﷺ عندما أنزلت عليه الآية الكريمة: **﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾** فجمع الرسول الكريم من اهل بيته ثلاثين وقال لهم: قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني

ربّي أن أدعوكم إليه فأيكم يؤازرني على أمري هذا؟ قال علي: أنا يا نبيّ الله أكون وزيرك عليه. فأخذ النبيّ برقبته وقال: إن هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا.

فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع وتطيع لولدك عليّ.[٣٦]

وقد ظهر التشيّع للإمام عليّ عليه السلام في المدينة المنورة خلال الجهاد لتثبيت ونشر الدعوة الإسلامية، وترسّخ حبّه في قلوب المعجبين بشجاعته وعلمه وفقهه وخُلُقه، والتفّ به جماعة اتخذوه قدوة في حياة رسول الله ﷺ وفضّلوه على غيره من المسلمين، واعتقدوا به خليفة للرسول الكريم، وبالمقابل كان هناك من يبغضه لأسباب عدة منها قتله لزعماء المشركين وحسدهم له على مزاياه التي كان يتمتع بها، وروي عن أحد الصّحابة القول: كنّا نعرف المنافقين في الإسلام ببغضهم لعليّ بن أبي طالب. وقد قال له الرسول الكريم: يا عليّ لا يبغضك إلا منافقٌ. ويقول ابن أبي الحديد في تفضيل الإمام عليّ عليه السلام:

والقول بالتفضيل قول قديم قد قال به كثير من الصحابة والتابعين فمن الصحابة: عمّار والمقداد وأبو ذر، وسلمان، وجابر بن عبد الله، وأُبيّ بن كعب، وحذيفة بن اليمان، وبريدة، وأبو أيوب، وسهل بن حنيف، وعثمان بن حنيف، وأبو الهيثم بن التّيهان، وخزيمة بن ثابت، وأبو الطفيل عامر بن أثلة، والعبّاس بن عبد المطلب وبنوه، وبنو هاشم كافة وبنو المطلب كافة. وكان الزبير من القائلين به في بدء الأمر ثم رجع، وكان من بني أمية قوم يقولون بذلك منهم خالد بن سعيد بن العاص ومنهم عمر بن عبد العزيز.[٣٧]

فأمّا من قال بتفضيله على الناس كافّة من التابعين فخلق كثير: كأويس القرنيّ، وزيد بن صوحان وصعصعة أخيه، وجندب الخير، وعبيدة السَّلْمَاني، وغيرهم ممن لا يحصى كثرة، ولم تكن لفظة الشيعة تعرف في ذلك العصر إلا لمن قال بتفضيله.[٣٨]

ومن المعلوم أنّ غالبية المسلمين الأوائل كانوا من المستضعفين ومن العبيد والموالي والفقراء، وهؤلاء رأوا في الإسلام ثورة اجتماعية تحقق العدل الاجتماعي والمساواة. وكان من هؤلاء صحابة للنبيّ ﷺ مقرّبون إليه كثيراً جلّهم من المستضعفين والفقراء وكان على رأس هؤلاء عليّ بن أبي طالب عليه السلام فمن خلال سيرة الرسول الكريم نرى أن عليّاً عليه السلام لم يفارقه قطّ منذ ضمّه إليه وهو صغير وحتى وفاته، بل كان آخر من خرج من لحده بعد دفن جسده الطاهر.

كان هؤلاء المسلمون المقرّبون يرون (عليّاً) خليفة للرسول ﷺ لأنه سيقيم دعائم الإسلام مثلما أرساها الرسول العظيم، ويحافظ عليها في شموخها ورسوخها، وسيكون نصراً للمستضعفين مثلما كان الرسول الكريم. لقد عاشروه معاشرة طويلة فرأوا فيه العابد الزّاهد الفقيه، البليغ، الشجاع، المحافظ على الإسلام ومسيرته المنطلقة إلى الكمال.

وبانتقال الرسول العظيم إلى الرفيق الأعلى حدثت هزّة عنيفة في الكيان الإسلامي كادت تقضي عليه، أو تعيق مسيرته في التحرير والبناء، وإشادة الدولة العربية الواحدة التي يرفرف فوقها أعلام الهدى والمحبّة، والعدل، والإخاء، والسلام والإيمان.

عندما كان الرسول ﷺ يجهّز ليصير بجوار ربه تنادى الأنصار للاجتماع في سقيفة بني ساعدة لاختيار رجل منهم يخلف النبي ﷺ ويقود الدولة الوليدة. وسمع نفر من المهاجرين بهذا الاجتماع فتراكضّوا وعلى رأسهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) واشتبكوا مع الأنصار بجدال طويل بينوا فيه أن المهاجرين أولى بخلافة الرسول ﷺ من الأنصار، وأوردوا حججاً عَديدة منها أن النبيّ من قريش، وأن المهاجرين عشيرته ومن ذوي قرباه، وأورد أبو بكر رضي الله عنه حديثاً عن النبيّ ﷺ نصّ على أن الأئمة من قريش. وبعد هذا الجدل طلب عمر رضي الله عنه من أبي بكر أن يبسط يده ليبايعه لأنه صاحب الرسول ﷺ في الغار وهو رفيقه في هجرته، وكان من صحابته المقرّبين، فبايعه عمر أولاً ثم تتابع على المبايعة المهاجرون والحاضرون ثم الأنصار الذين كانوا منقسمين على أنفسهم لأن الخزرج كانوا يريدون الأمر لأنفسهم.

كان عليّ عليه السلام منشغلاً بتجهيز النبي ﷺ وتوديعه لمثواه الأخير، وكان بنو هاشم معه، ويلتفّ بهم ويساعدهم باقي فئات المسلمين من المهاجرين ومن الذين لم يفكروا بأن الخلافة ستكون من نصيبهم.

حدث الأمر وأصبح أبو بكر رضي الله عنه خليفة للرسول ﷺ والإمام علي عليه السلام غائب، فماذا يفعل؟ امتنع عن المبايعة لأبي بكر وتحزّب له مشايعوه فلم يبايعوا أيضاً، وفي هذا الموقف الحرج جاءت الأخبار كالشّور المستطير تنذر بارتداد قسم من الأعراب عن الدين الإسلامي وكانوا إلى جوار المدينة، ثم جاءت أخبار أخرى بارتداد فئة من الأعراب في الجزيرة العربية وفي اليمن أيضاً، بل وتنبّأ بعض المرتدين وصار لهم أتباع وأنصار، وكان لا بد من العمل السريع والقضاء على الرِدّة قبل أن تستفحل وتستشري. ويسارع أبو بكر والمسلمون عامّة

وعليّ ﷺ ومشايعوه إلى الجهاد في سبيل القضاء على المرتدين والأنبياء المدّعين الكاذبين، ويتوقف الخصام حول الخلافة وأفضليّة أو أحقيّة من يتولاها، ويقال إن السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها عذلت الإمام علي ﷺ على تركه المطالبة بحقّه في الخلافة أثناء حروب الردة، وعندما همّ بالرد عليها أذّن المؤذّن: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فقال لها: هذا ما يسعى المرتدون للقضاء عليه، ولن أمكنهم من ذلك وأفرّق بين المسلمين.

بعد وفاة النبي ﷺ بستّة أشهر توفّيت السيدة فاطمة رضي الله عنها وكانت مخاصمة لأبي بكر رضي الله عنه لأنه منعها ميراث والدها الكريم في فَدَك. بايع **الإمام عليّ** ﷺ أبا بكر رضي الله عنه وانطلق مشايعوه وأتباعه، وكلّ المؤمنين بالدين الإسلاميّ ليحرّروا إخوانهم في العراق وبلاد الشام، ولينشروا راية الدين الجديد، راية العدل والإيمان فوق بلاد العرب، وليجعلوها ترفرف أيضاً فوق ربوع بعيدة تسكنها أمم مغلوبة مقهورة، مظلومة من حكّامها.

بعد وفاة أبي بكر رضي الله عنه بايع الإمام علي ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخليفة الجديد، وبعد فترة من خلافته أصبح مقرباً إليه، واعتمد عمر عليه، وبخاصّة في المعضلات القضائية والمشكلات ممّا جعل عمر رضي الله عنه يردّد: «لولا عليّ لهلك عمر» وعقب إجلاء أية معضلة صعبة من قبل علي ﷺ كان عمر رضي الله عنه يصيح: «لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن». وإذا عرضت عليه قضيّة في الفقه لا يجد لها حلاً يبادر إلى الاستنجاد بالإمام علي ﷺ ليفتي فيها بعلمه، وفقهه، وكان يردد: «لا يفتينّ أحدٌ في المسجد وعليٌّ حاضر». [٣٩] وقد شدّد في هذا الأمر لأنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أقضاكم عليّ»، والقضاء هو الفقه. بل رأينا من خلال اطلاعنا على تاريخ الإسلام وبحثنا في هذه الكتب المصنّفة في مثل هذه المواضيع أن عمر رضي الله عنه في سنيّ حكمه الأخيرة يقرّب الإمام وأنصاره إليه، وقد ولى بعضهم الولايات، فقد ولّى سلمان الفارسيّ، وهو من أشد أنصار الإمام، الكوفة فسار فيها سيرة عادلة تنزع إلى مساواة الفقراء بالأغنياء ممّا دفع الأغنياء إلى طلب عزله عنهم فعزله عمر، ومع ذلك لم يؤثر هذا العزل على الصّلة بين الجانبين.

ويحلو للمؤرخين المعاصرين والدّارسين والباحثين في أيّامنا أن يصوّروا الإسلام في بداياته وانقسام الناس فيه بما يجري حديثاً من تبنّيهم مذاهب تسلك مسالك اليمين السياسي، ومذاهب تسلك مسالك الوسط، ومذاهب تسلك مسالك اليسار. وقد درس انقسام المسلمين إلى مذاهب اجتماعية في صدر الإسلام الباحث والمفكّر أحمد عبّاس صالح من القطر المصري الشقيق في كتاب مستقلّ صدر تحت عنوان: «اليمين واليسار في الإسلام».

يرى المؤلف أن الإسلام منذ بداياته كان يضمّ أنصار اليمين المسلم، وأنصار الوسط، وأنصار اليسار، وقد وضع على رأس اليمين التجّار الكبار والعائلة الأموية، وأصحاب الثروات المكوّنة من الغنائم وفتح الأمصار، أما الوسط فيقوده ويمثله جمهور من المسلمين بقيادة أبي بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما أما اليسار فيشكّل جمهوراً كبيراً من المسلمين يقوده الإمام عليّ عليه السلام والصحابة الذين كانوا مقرّبين من النبي ﷺ، ويرى أن اليسار كان مثالياً لم يلجأ إلى العنف والاغتيال، بل كان يقود المعارضة الهادئة أيام أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وأن عمر تحالف مع اليسار في أخريات حكمه، وقد شدّد على أصحاب الثروات والقادة فبدأ التآمر لقتله والقضاء على تشريعاته. يقول أحمد عبّاس صالح: «إلى جانب هذا التشدّد والتحوّل الغريب الذي طرأ عليه وهو تحوّل إلى اليسار سواء في سلوكه أو في تعليماته لعمّاله على مختلف الأمصار وتشدده في محاسبتهم لصالح غالبية المسلمين بل لصالح شعوب الأمم المهزومة، فإنه قد بدأ يحدث المقرّبين بالتفكير في تشريعات جديدة تمسّ مصالح الأغنياء فيصرّح في آخر أيامه قائلاً: «لو استقبلت من أمري ما استدبرتُ لأخذتُ من الأغنياء فضولَ أموالهم فرددتها على الفقراء»[٤٠].

ويقول أحمد عباس صالح: ومن الغريب حقاً أن يقتل عمر بن الخطاب وهو على وفاق تام مع عليّ وصحبه. ويرى أن قتل عمر كان مؤامرة من اليمين الذي وثب على الحكم بمجرد تولية عثمان بن عفان الخلافة.

وقد وجدت مؤرخاً معاصراً آخر يرى قتل عمر رضي الله عنه مؤامرة دبّرها أغنياء قريش للتخلّص من عمر وشدّته وتشدّده ليستريحوا منه ومن أعماله، وليتصدروا قيادة الإسلام، وينحرفوا به ليحقّقوا مصالحهم الخاصة.

هذا المؤرخ هو الشيخ محمد الخضري مؤلف كتاب (الدولة الأموية) يشرح كيفية مقتل عمر بن الخطاب «كان المسلمون يسبُون من أبناء فارس ويتخذونهم لأنفسهم عبيداً. . . . وكان من هؤلاء السبايا رجل اسمه فيروز ويكنى بأبي لؤلؤة، وهو غلام للمغيرة بن شعبة. فبينما عمر يطوف يوماً في السوق لقيه ذلك الغلام فقال: يا أمير المؤمنين، أعْدني على المغيرة بن شعبة فإن عَلَيّ خراجاً كثيراً. قال: وكم خراجك؟ قال: درهمان في كَل يوم. قال عمر: وأيْش صناعتك؟ قال: نجّار، نقّاش، حدّاد. قال: فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعَمال، وقد بلغني أنك تقول: لو أردت أن أعمل رحىً تطحن بالريح فعلت. قال: نعم. قال: فاعمل رحىً، قال: إن عشت لأعملنَّ لك رحىً يتحدث بها مَن في المشرق

والمغرب، ثم انصرف عنه، فقال عمر: لقد توعّدني العبد آنفاً، ثم انصرف عمر إلى منزله. فلما كان من الغد جاءه كعب الأحبار فقال: يا أمير المؤمنين: اعهد فإنّك ميّت في ثلاثة أيام، قال: وما يدريك؟ قال: أجده في كتاب الله، التوراة. قال عمر: والله إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة!..

قال: اللهم، لا، ولكن أجد صفتك وحليتك، وأنّه قد فَنيَ أجلُك، وعمر لا يحسّ وجعاً ولا ألماً.

فلما كان من الغد جاءه كعب فقال: يا أمير المؤمنين ذهب يومٌ وبقي يومان. ثم جاءه من غد الغد فقال: قد ذهب يومان وبقي يوم وليلة وهي لك إلى صبيحتها. ولو صحّت هذه الحكاية وكنت ممّن يحقّق في هذه القضية ما تردّدت لحظة في أن لكعب يداً في مقتل عمر!؟ وأنه كان عالماً بما تمّ عليه الاتفاق بين المؤتمرين على عمر!!.. وربما يقال: لو كان كذلك فما يدعو كعباً إلى إنباء عمر بهذا النبأ؟ والجواب على ذلك سهلٌ، فإنه ينال بذلك بين المسلمين مركزاً عظيماً فإن كثيراً منهم يرون بعد ذلك أن توراته فيها علم كل شيء، وأنه صادق في كل ما يخبر به فلا يتردّد سامعه لحظة في تصديقه بما يوحى إليه. وكعب هذا ممن أفاض علينا من الأخبار الإسرائيلية التي لا ندري حقيقتها، ولا ريب أن فيها شيئاً كثيراً هو كذب محض لأن التوراة بأيدينا وليس فيها ما أنبأ ذلك الرجل.(41)

طُعن عمر وطُمست المؤامرة إذ قام عبيد الله بن عمر بقتل الهرمذان الفارسيّ بدون تحقّق من أنه وراء المؤامرة وكل ذنبه أنه فارسيٌ والقاتل أبو لؤلؤة فارسيّ.

وقد طالب الإمام علي عليه السلام بتقديم عبيد الله إلى المحاكمة ولكن عثمان وقد صار وليّ أمر المسلمين لم يقبل بذلك وسوّغ الأمر بأن الأب قتل قبل ثلاثة أيام ولا يجوز أن نقتل الابن بعد أبيه وقيل: قبل أن يفارق عمر الدنيا أمر بتشكيل مجلس مؤلف من ستة أشخاص لاختيار واحد منهم ليكون خليفة للمسلمين، وهؤلاء الستة هم: الإمام عليّ عليه السلام وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه ومن تأليف هذا المجلس بدا وكأن الخليفة المقبل هو عثمان بن عفان، إذ عبد الرحمن وعثمان بينهما قرابة بالمصاهرة، وسعد بن أبي وقاض لا يرتاح إلى عليّ عليه السلام لأنه يرى نفسه أهلاً للخلافة مثل كلّ واحد من أعضاء المجلس، وطلحة له الرأي نفسه، والهدف عينه بالإضافة إلى أنه كان غائباً وقت انتخاب الخليفة الجديد. ولم يبقَ من أعضاء هذا المجلس سوى الزبير بن العوام وكان هواه مع الإمام عليّ عليه السلام.

وقد انسحب عبد الرحمن بن عوف من فريق الخلافة ليجعل من نفسه حكماً مرجّحاً في اختيار الخليفة. وعند ذلك وضحت الأمور بأن عبد الرحمن سوف يعيّن عثمان خليفةً. وبعد مشاورات استمرّت ثلاثة أيام حصر أمر الخلافة بعليّ عليه السلام وعثمان بن عفان رضي الله عنه. وقام عبد الرحمن بتمثيل دوره المتقن وعرض الخلافة على عليّ عليه السلام ولكن بشرط محدد وهو أن يعمل بكتاب الله وسنّة رسوله وسنّة الخليفتين من بعده. فقال الإمام علي عليه السلام: «أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي». فتركه وانتقل إلى عثمان وقال له مثلما قال للإمام، فقبل عثمان مباشرة وبدون تردّد فبايعه عبد الرحمن بالخلافة وتأخر الإمام وهو يقول: سيبلغ الكتاب أجله، ويقال إنه دعا أن يفرّق الله بينهما، وقد استجيبت دعوته ومات عبد الرحمن وهو مخاصم لعثمان، وأوصى ألا يصلي عليه عثمان.

يحضرني سؤال: ترى لو قبل الإمام عليّ عليه السلام بعرض وشرط عبد الرحمن كيف كان سيسميه خليفة وعثمان قابلٌ الشرطَ نفسه؟

كثير من المؤرخين يرون أن قريشاً كانت لا تريد لبني هاشم أن يجمعوا بين النبوّة والخلافة، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب إذ عبّر عن ذلك بأكثر من مناسبة وكان يرى عدم تولية هاشمي أيّ منصب أو غيره ولو كان الهاشمي القويّ الأمين حسب تعبير المحامي: أحمد حسين يعقوب.[٤٢]

صار عثمان خليفةً، والتفّت حوله عائلته الأموية، وفي أوّل مجلس عائليّ دخل عليهم أبو سفيان وكان أعمى، وبعد أن هنّأ عثمان قال: يا بني أميّة تلقّفوها مثلما تتلقّف الكرة فوالله إنّه الملك وما من جنّة أو نار. وكان الزبير حاضراً فقال: والله لا كتمتها عنك، ويقال: إن عثمان لام أبا سفيان.

لم يقم عثمان بأيّ عمل يناقض تصرفات عمر رضي الله عنه ولكن بعد سنة من حكمه قام بعزل ولاة الأمصار، وعين بدلاً منهم أفراداً من عائلته كان منهم السكّير الفاسق: الوليد بن عقبة ابن معيط، ولاه الكوفة فصلّى بالناس صلاة الصبح أربع ركعات ثم قال: لئن شئتم لأزيدنكم، وولّى عبد الله بن أبي سرح أفريقيا وهو افترى على الله الكذب وحاول تحريف كتاب الله، وكان مسلماً ثم ارتدّ، وأعاد الحكم بن العاص بن أميّة وكان الرسول ﷺ قد نفاه إلى الطائف، ولم يعده أبو بكر ولا عمر رغم مراجعة عثمان لهما مراراً بشأنه.

وعندما صار عثمان خليفة أعاده معزّزاً مكرّماً وأعطاه تعويضاً مقداره مئة ألف درهم، ثم عيّن ابنه مروان بن الحكم كاتم سرّ الخليفة بالرغم من أنه كان يلقّب بخيط باطل لاضطراب في عقله. ثم التفت إلى أفراد الأمة المعارضين يضربهم بالسوط، ويكسر أضلاع صحابة رسول الله ﷺ المخالفين له، وينفي أبا ذرّ ﵁ فيموت في صحراء الربذة وحيداً، لا يجد كفناً. ويعتدي على عمّار بن ياسر بالضربّ حتى حصل له فتق، واستأثر ببيت مال المسلمين ينفقه على أفراد عائلته الأموية. ولما كثرت أعماله البعيدة عن الشريعة انفضّ الناس عنه وتوجّهوا نحو الرمز الباقي لهم من بيت النبوّة ألا وهو الإمام عليّ ﵇، فكثرت الشيعة في أطراف الأرض، ولما بلغ الكتاب أجله تنادى المعارضون لحكم عثمان وعائلته الأموية، وانطلقوا إلى المدينة المنوّرة من مصر والكوفة والبصرة، وهي الأمصار الرئيسة ليضاف إليها الشام في الدولة العربية الإسلامية الفتيّة.

وقد طلب المعارضون إلى عثمان عزل ولاته من بني أمية والسير فيهم بسيرة الرسول الكريم، أو بسيرة أبي بكر وعمر ﵄ فوعدهم خيراً.

ويسجل المؤرخون على عثمان أنه أرسل لعامله على مصر كتاباً يأمره فيه بقتل الوفد المصري المعارض وعلى رأسه محمد بن أبي بكر. وتشاء المصادفة أن يقع الكتاب في يد الوفد قبل وصوله إلى مصر، فيعود الوفد المصريّ إلى المدينة ويجتمع إلى كبار الصحابة ويطلعهم على الكتاب، ويطلب الصحابة تفسيراً من عثمان فيحلف إنه ما كتب هذا الكتاب وحينما يواجهونه بخاتمه على الكتاب لا ينكر الخاتم ويفهم أن مروان كاتم سره هو الذي كتب الكتاب، ويتهم المجتمعون عثمان بأنه ضعيف لا يصلح للخلافة ويرغبون إليه أن يخلع نفسه منها فيرفض فيقدم المعارضون من مصر والكوفة والبصرة على حصاره في داره، ثم تقوم جماعة منهم بتسلّق جدران المنزل، ويقدم أحدهم على قتله فيقتل القاتلَ أحدُ المدافعين عن عثمان.

تتالت الأحداث بسرعة وقتل الخليفة بعد تمرّد جماعيّ أو شبه جماعيّ، وهذا يحدث لأوّل مرة في الإسلام، إذ يثور قسم كبير من الرعية على الخليفة ولا يجد له ناصراً سوى قلّة ممّن استفادوا من حكمه وأمواله. وقد كان من المفترض أن ينصره والي الشام المقرّب إليه كثيراً وهو معاوية بن أبي سفيان وكان أقدر الولاة على تأمين الحماية لعثمان ومنع المحاصرين من قتله لأن الحصار استمرّ أكثر من أربعين يوماً، ولكن معاوية تأخّر في إرسال جيشه، ولم يصل إلى مشارف المدينة إلا بعد مقتل الخليفة بأيام.

المراجع

٣٣ ـ لسان العرب ص٢٣٧٧ طبعة دار المعارف بمصر .

٣٤ ـ مقدمة ابن خلدون ص١٩٦ .

٣٥ ـ الشيعة في الميزان ص١٥ .

٣٦ ـ الشيعة في الميزان ص١٧ .

٣٧ ـ نهج البلاغة ج٢٠ ، ص٢٢١ ـ ٢٢٢ .

٣٨ ـ نهج البلاغة ج٢٠ ، ص٢٢٦ .

٣٩ ـ نهج البلاغة ج١ ، ص١٨ .

٤٠ ـ اليمين واليسار في الإسلام، ص٦٤ .

٤١ ـ الدولة الأموية ج٢ ، ص٢٠ ـ ٢١ .

٤٢ ـ النظام السياسي في الإسلام ص٤٠ ، عن الإمامة والسياسة ص٢٧ .

الفصل الرابع

الإمام عليّ خليفة

ما حدث في المدينة كان ثورة بكل ما للكلمة من معنى، وهذه الثورة اشتركت فيها جماعات من أقطار لها وزنها السياسيّ والاقتصاديّ والعسكريّ في الدولة.

وكان هوى أغلب الثوّار مختصاً بالإمام عليّ عليه السلام، وبخاصة في مصر والمدينة المنوّرة عاصمة الخلافة وفي الكوفة، وإن كان قسم من وفد الكوفة هواهُ مع الزّبير بن العوام وأما ثوار البصرة فكانوا بغالبيّتهم يميلون إلى طلحة، وكان طلحة من المحرّضين على عثمان، ولكن ما دامت الأكثرية تميل إلى (علي) عليه السلام فقد اتجهت إليه بقلوبها ميمّمة داره، وطالبته بقبول الخلافة ليعود بالإسلام إلى سيرته الأولى فتردّد، فألحّوا عليه، وطالبوه بأن يبسط يده ليبايعوه فرفض أن تكون المبايعة في داره، وأرادها عامّة في المسجد، وكان أوّل المبايعين طلحة وكانت يده شلاّء فتشاءم الناس ثم تلاه الزّبير فبقيّة الصحابة من المهاجرين والأنصار، ثم بايع أهل المدينة عامّة، وبايع الثوار الحاضرون من الأمصار.

ويذكر المؤرخون أن البيعة تمت للإمام عليّ عليه السلام بعد خمسة أيام من مقتل عثمان وبعضهم يزيدها إلى ثمانية.

وقبل أن نتابع سردنا لتطوّر الأحداث يجب أن نتوقّف قليلاً عند أمر يركّز عليه بعض المؤرخين كثيراً في تأليب الناس على عثمان، فينسبون هذا التأليب لشخص يدعى عبد الله ابن سبأ، وقد جعلوا منه قوّة محركة للجماهير في جميع أنحاء الدولة المترامية الأطراف، ونسبوا إليه أعمالاً تحريضية يعجز عن القيام بها حزب معارض كثير الأنصار والأعوان إنّهم يريدون أن يطمسوا على العقول بتركيزهم على هذا الشخص وقدرته الفائقة في التحريض والتمرّد، والضحك على عقول المسلمين كافة.

هو رجل بمفرده نسبوا إليه هذه الأعمال الخارقة وركزوا عليه بوصفه يهودياً أسلم، ولم يركّزوا على كعب الأحبار الذي كان يهودياً وأسلم وكادَ للإسلام كَيْداً كبيراً وأدخل في الفقه والتفسير كثيراً من الإسرائيليات لم يستطع علماء وفقهاء الإسلام التخلص منها حتى هذا اليوم.

ولأنقُل لكم رأي الكاتب التقدميّ أحمد عبّاس صالح في ابن سبأ، يقول: «وهنا يتردد اسم عبد الله بن سبأ وهو شخص كان يهودياً وأسلم، تصوّره كتب التاريخ على أنه كان الشّيطان وراء الفتنة التي قتل فيها عثمان، بل وراء الأحداث جميعاً. وقد وقف منه الكتّاب مواقف متعارضة، فمنهم من ينكر وجوده أصلاً، ومنهم من يعتبره أساس كل ما جرى، بل أساس ما دخل في الإسلام من مذاهب غريبة منحرفة. وعبد الله بن سبأ شخص خرافي بغير شك، فأين هو من هذه الأحداث جميعاً، وأين هو من الصراعات الناشبة في هذا العالم الكبير المتعدد، وماذا يستطيع شخص مهما تكن قيمته أن يلعب بمقداره بين هذه التيارات المتطاحنة؟

إن الأحداث السريعة العنيفة المتلاحقة لم تكن في حاجة إلى شخص ما حتى ولو كان الشيطان نفسه، لأن أصولها بعيدة الغور، وقوّة اندفاعها لا قِبل لأحد بالسيطرة عليها أو توجيهها، فضلاً عن تشابكها، وتعدّدها بما لا يدع لأي قوة أن تزيدها تعقيداً.

وساذج بغير شك التفكير الذي يتجه إلى خلق شخصية خرافية كهذه ليعطيها أي تأثير فيما حدث من أحداث وأكثر سذاجة منه من يظنّ لهذا الرجل تأثيراً ما على كبار الصحابة ومنهم أبو ذر الغفاري نفسه الذي لم يقبل مناقشة من أبي هريرة المحدِّث المعروف وضربه فشجّه قائلاً بازدراء: «أتعلّمنا ديننا يابن اليهودية!!؟». إنّما كلّ ما حيك من قصص حول عبد الله بن سبأ هو من وضع المتأخرين فلا دليل على وجوده في المراجع القديمة فضلاً عن هزالة التفكير في احتمال وجوده أصلاً». [43] (والكثير من المؤرخين والمحدّثين ضعّفوا سيف بن عمر الذي اخترع قصة عبد الله بن سبأ ويقولون عنه ليس بثقة ولا مأمون، ومتروك ومتّهم بالزندقة، وكذّاب وقالوا: كان يضع الحديث وهو صاحب الغرائب في الأخبار وصاحب سلسلة من الروايات الشاذة عن منطق العقل والشّرع»، «من كتاب: لقد شيعّني الحسين» لـ إدريس الحسيني.

بعد أن صار الإمام علي ﷺ خليفة كان أوّل أعماله عزل ولاة عثمان لقناعته بعدم جدواهم في تولي أمور المسلمين، واستبدلهم بجماعة من كبار الصحابة المشهود لهم بالعدل والاستقامة. واستلم كل وال جديد عمله ما عدا والي الشام سهل بن حُنيف الذي ردّه معاوية قبل أن يطأ مدينة دمشق، واتّخذ معاوية مقتل عثمان حجة يحتج بها للمُمَانَعَة في بيعة عليّ ﷺ واعتبر نفسه ولي عثمان، وقد ألب أهل الشام ضد الخليفة الجديد، وكان جل أهل

دمشق وحمص من قبائل الكلبية اليمانية الذين كان لهم الدور الأول في تثبيت حكم معاوية في بلاد الشام، وكان معاوية قد تزوج منهم امرأته ميسون بنت بحدل الكلبية التي كانت ابنة زعيم من زعمائهم، وهي أم ولده يزيد وقد تزوّجت معاوية وهي تدين بالمسيحية وظلّت على مسيحيتها بعد الزواج منه، واضطرّ لطلاقها بعد أن نظمت قصيدة تحنّ فيها إلى البادية وإلى قومها وإلى أبناء عمّها الطوال الهيف، وتغمز من معاوية وتشبهّه بعلج من أعلاج الروم.

قام عليّ عليه السلام بتجهيز جيش للتوجه إلى الشام لقتال معاوية لكن الأخبار جاءته بتمرد طلحة والزبير والسيدة عائشة عليه، لقد نكس طلحة والزبير البيعة وتحالفا مع السيدة عائشة التي كانت تبغض الإمام (علياً) عليه السلام لعدّة اعتبارات.

ليس من المستبعد أن تكون الأموية ممثّلةً بمعاوية وراء دفع الثلاثة للانشقاق وإحداث الفتنة كي لا يستقر الأمر للإمام عليه السلام.

وقد اجتمع المتمرّدون في مكّة أولاً، ثم انطلقوا بأتباعهم نحو البصرة التي كانت تميل إلى طلحة، وأركبوا عائشة جملاً اسمه «عسكر» ولما وصلوا إلى الرَبذَة وفي مكان يدعى الحوءب نبحتهم كلاب القرية فسألتهم السيدة عائشة عن المكان: فقالوا لها إنه الحوءب، فنزلت عن هودجها، وقالت: ردّوني، ردّوني، لقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول لنسائه: إن إحداكن ستنبحها كلاب الحوءب، والتفت إليّ وقال: إيّاك أن تكوني أنت يا حميراء (لقب عائشة).

لم يتركها أتباعها تعود فقد احضر لها ابن أختها عبد الله بن الزبير خمسين أعرابياً أقسموا لها أيماناً كاذبة إن المكان لا يدعى الحوءب وكان عبد الله قد قام برشوتهم زوراً وكذباً، فصدّقتهم، وتابعوا مسيرتهم إلى البصرة.

وعندما سمع الإمام عليّ عليه السلام بمسيرهم إلى البصرة اعتلى المنبر وخطب في المسجد قائلاً: «أيها الناس إن عائشة سارت إلى البصرة ومعها طلحة والزبير، وكل منهما يرى الأمر له دون صاحبه، أما طلحة فابن عمها، وأما الزبير فختنُها (صهرها) والله لو ظفروا بما أرادوا لن ينالوا ذلك أبداً.

ليضربن أحدُهما عنق صاحبه بعد تنازعٍ منهما شديد.

والله إن راكبة الجمل الأحمر ما تقطع عقبة ولا تحل عقدة إلا في معصية الله وسخطه حتى تورد نفسها ومن معها موارد الهلكة. إي والله لَيقتلن ثلثهم، وليهربنّ ثلثهم، وليتوبنّ

ثلثهم، وإنها التي تنبحها كلاب الحوءب، وإنهما ليعلمان أنهما مخطئان، ورُبَّ عالمٍ قتله جهله ومعه علمه لا ينفعه، حسبنا الله ونعم الوكيل فقد قامت الفتنة فيها الفئة الباغية.

أين المحتسبون، أين المؤمنون، مالي ولقريش، أما والله لقد قاتلتهم كافرين ولأقتلنّهم مفتونين، وما لنا إلى عائشة من ذنب إلا أننا أدخلناها في حيزّنا.

والله لأبقرنّ الباطل حتى يظهر الحق من خاصرته، فقل لقريش فلتضجّ ضجيجها» ثم نزل[44].

وبعد أن حشد جيشه اتجه نحو البصرة به راجياً أن يجدهم في الرَبَذَة وعندما وصلها وجدهم قد غادروها فأرسل يستنفر أهل الكوفة ولكن واليها أبا موسى الأشعري، الذي أبقاه الإمام والياً ولم يعزله مثلما فعل بولاة عثمان، حاول تثبيط عزائم أهل الكوفة وردعهم عن مساعدة الإمام عليّ ﷺ، ولكن الحسين بن عليّ (عليهما السلام) ردّ على أقواله وتصرفاته الحمقاء الطائشة وألزمه اعتزال عمله، فسار الشيعة من الكوفة في البرّ والنهر حتى التحق جيش منهم بجيش الإمام ﷺ.

وقد تابع الإمام ﷺ تقدّمه بجيشه ليدرك (الناكثين) قبل وصولهم إلى البصرة، غير أن الناكثين كانوا قد وصلوها وغدروا بواليها عثمان بن حُنيف، وقاموا بنتف حاجبه ولحيته وأرسلوه إلى عليّ ﷺ، ثم استولوا على مخازن السلاح وبيت المال، ودعوا الناس إلى خلع الإمام عليّ ﷺ من الخلافة فانقسم أهل البصرة قسمين: قسم أيدهم ودخل في طاعتهم، والقسم الثاني خالفهم وظلّ متمسكاً ببيعة الإمام ﷺ، بل ونشب بين القسمين قتال. وعندما وصل الإمام عليّ إلى مشارف البصرة نشب قتال بينه وبين الناكثين يوم الخميس منتصف شهر جمادى الأخرة عام ٣٦هـ، وكان جيشه عشرين ألفاً، وجيش خصومه ثلاثين ألفاً، وقد صدق الإمام ﷺ في قوله في أهل البصرة فعندما وصل إليها افترق أهلها ثلاث فرق:

١. فرقة معه. ٢. فرقة مع خصومه. ٣. فرقة اعتزلت.

وقبل نشوب القتال قام الإمام عليّ ﷺ بإرسال الرسل إلى خصومه ليعودوا عن رأيهم، وليتّقوا الفتنة، ولكنّهم صمّوا آذانهم وركبوا الفتنة وتصافّوا للقتال عند ذلك صفّ الإمام جيشه وخطب فيه: «لا تقاتلوا القوم حتى يبدؤوكم فإنكم بحمد الله على حجّة،

وكفكم عنهم حتى يبدؤوكم حجّة أخرى، وإذا قاتلتموهم فلا تجهزوا على جريح، وإذا هزمتموهم فلا تتبعوا مدبراً، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتيل، وإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا ستراً، ولا تدخلوا داراً، ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً، ولا تهيجوا امرأة بأذىً وإن شتمن أعراضكم، وسببن أمراءكم وصلحاءكم فإنهنّ ضعاف القول والأنفس والعقول.

لقد كنا نؤمر بالكفّ عنهنّ وإنهنّ لمشركات، وإن كان الرجل ليتناول المرأة بالهراوة والجريدة فيُعيَّر بها وعقبه من بعده». [٤٥]

ثم طلب إلى أحد أشياعه أن يرفع القرآن الكريم بين الجيشين ليكون حكماً بينهما، وأوضح لحامل القرآن، وكان فتى، بأنه سيقتل فتردّد ولكنّه أخذ القرآن العظيم ورفعه بين يديه إلى أعلى ما يستطيع ودعا الجيشين إلى تحكيم الفرقان، ونبذ القتال، فجاءته رشقة سهام من جيش البصرة أردته قتيلاً، عند ذاك بدأ القتال.

وخرج الزبير يطلب القتال والنزال فخرج إليه **الإمام عليّ** عليه السلام غير لابس لأمة حربه، بل كان حاسراً لا يلبس فوق ثيابه درعاً، وابتدره **الإمام عليّ** عليه السلام: يا زبير أتذكّر يوم مررت مع رسول الله صلى الله عليه وآله في بني غَنْم فنظر إليّ فضحك إليّ وضحكتُ إليه، فقلت: لا يدع ابن أبي طالب زهوه. فقال لك: صهْ، إنه ليس به زهو، ولتقاتلنّه وأنت له ظالم. فقال: الزبير: اللهمّ، نعم، ولو ذكرت ما سرت مسيري هذا، والله لا أقاتلك أبداً، ثم اعتزل القتال، وذهب إلى واد يقال له وادي السباع فاتّبعه رجل يقال له عمرو بن جرموز فغدر به وهو يصلي وأحضر فرسهُ وخاتمه وسلاحه لعليّ عليه السلام وطلب جائزة لقتله الزبير فقال له **الإمام علي** عليه السلام: أما إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: بشّر قاتل ابن صفيّة بالنار أمّا طلحة فقد رماه مروان بن الحكم بسهم فقتله لأنه كان يعتبره من المحرّضين على قتل عثمان، واشتدّ القتال حول الجمل الذي تركبه السيدة عائشة، ورشق الجمل بالنبل حتى صار مثل القنفذ.

ثم أمر الإمام عليه السلام بعقر الجمل فأسرع إليه أهل الكوفة، ولكن أهل البصرة أحاطوا بالجمل يدافعون عن السيدة عائشة وكان أشدّهم دفاعاً بني ضبّة الذين قتل منهم ألف رجل، ولما برك الجمل أسرع محمد بن أبي بكر، وكان في جيش الإمام عليه السلام وحمل مع آخرين هودج أخته عائشة وأخذها بعيداً عن مكان القتال، وبعد المعركة سيّر الإمام عليه السلام معها جيشاً من النساء يرتدين زيّ الرجال وقمن بحراستها حتى وصلت مكة، ولم تكن تعرف أنهنّ نساء

حتى وصلت بيتها فكشفن عن وجوههن وعرّفنها بحالهن. انتصر الإمام عليه السلام بمعركة الجمل وأمر بعدم الإجهاز على الجرحى أو ملاحقة الهاربين، وأمر بدفن القتلى من الجانبين، وصلّى عليهم، ولم يسمح بنهب أو سلب دور اعدائه، ولكنه قام بفتح بيت المال ترافقه جماعة من المهاجرين والأنصار، فلمّا رأى كثرة ما فيه من الأموال قال: غرّي غيري، مراراً، ثم نظر إلى المال فصعّد فيه بصره وصوّب وقال: «اقسموه بين أصحابي خمسمائة، خمسمائة، فقسم بينهم فما نقصت القسمة درهماً، ولا زادت درهماً كأنه كان يعرف مبلغه ومقداره». [٤٦]

بعد أن انتهى أمر البصرة دهب الإمام عليه السلام إلى الكوفة مع صحبه، واستقرّ بها، واتّخذها عاصمة للدولة لأنه كان يراها قريبة من بلاد الشام حيث بدأ يعدّ العدّة لقتال معاوية.

وما إن أخبرته عيونه في بلاد الشام بمسير معاوية بجيش كثيف لغزو العراق، حتى سار بجيش لَجِب لملاقاة معاوية، وقد التقى الجيشان في مكان يدعى (صفّين) قرب سد الفرات اليوم «بجوارً مدينة الرقة» وكان جيش معاوية قد سيطر على مواقع المياه ليميت جيش عليّ عليه السلام عطشاً، وبعد قتال شديد استطاع جيش الإمام عليه السلام طرد جيش معاوية عن مناهل المياه لكنه سمح لأفراد هذا الجيش بالسّقيا بدون رادع.

وبعد مراسلات بين الطرفين ومحاولات عديدة لتجنب القتال بدأ معاوية القتال، ولم يبدأه عليّ عليه السلام إلا بعد أن طلب إلى رجل من جيشه أن يرفع المصحف الشريف ويدعو معاوية وجيشه للقبول بما جاء في القرآن الكريم من دعوة إلى الصلح ونبذ للحرب، ومثلما جرى يوم الجمل جرى في صفّين أيضاً إذ أقدم جيش مُعاوية على قتل حامل المصحف المطّهر، وهكذا بدأت موقعة (صفّين) التي بدأت في ذي الحجة عام ٣٦هـ وانتهت في ١٣ صفر عام ٣٧هـ.

ابتدات بين جيشين عظيمين:

١ ـ جيش الإمام عليّ عليه السلام ويبلغ تعداده تسعين ألفاً.

٢ ـ جيش معاوية ومقداره خمسة وثمانون ألفاً.

منذ البداية كانت الغلبة للإمام عليه السلام وجيشه، ولما استحرّ (اشتدّ) القتال بأهل الشام وقتل منهم مقتلة عظيمة، ووصلت طلائع جيش الإمام عليه السلام إلى مضارب معاوية الذي حاول الفرار غير أنه تراجع، واجتمع بعمرو بن العاص الذي أقنعه برفع المصاحف فوق الرماح ودعوة عليّ عليه السلام إلى التحكيم، وقبول ما جاء في القرآن الكريم (لإحياء ما أحياه القرآن ولإماتة ما أماته).

أصبح جيش عليّ ﷺ فشاهد خمسمئة مصحف مربوطة إلى الرّماح يرفعها جيش الشام الذي كان يردّد بأجمعه: كتاب الله بيننا وبينكم، وردّد قسم منهم: يا معشر العرب!.. الله الله في نسائكم وبناتكم، فمن للروم والأتراك وأهل فارس؛ غداً إذا فنيتم؟ الله الله في دينكم.

واجتمع رؤساء القبائل في جيش الإمام ﷺ وطالب قسم منهم بوقف القتال والاستجابة للتحكيم، وقسم حضّ على متابعة الحرب حتى يتحقق النصر على معاوية وجيشه. وكان الإمام ﷺ يرى متابعة الحرب وقال للمجتمعين: إنهم لا يريدون ما في الكتاب، ولكنهم يقصدون الخديعة والحيلة. ولكن الذين كانوا يرون التوقف عن القتال انتشروا بين قبائلهم - على رأسهم الأشعث بن قيس الكنديّ الذي يتّهم بالتآمر مع معاوية لتثبيط همم جيش الإمام ﷺ - وحضّوهم على وقف القتال، وانقسم جيش الإمام ﷺ إلى أربعة أصناف مثلما يقول السيد محسن الأمين:

الأول: أهل البصرة المخلصون للإمام في الظاهر والباطن، العارفون بحقّه، العالمون بأنها خدعة: وهم القليل.

الثاني: المخلصون له بقلوبهم لكنّهم خدعوا أو أحبوا البقاء.

الثالث: الذين ليس لعليّ ﷺ في قلوبهم مكانته التي يجب أن تكون له مضافاً إلى أنهم قد خدعوا وهم القرّاء أهل الجباه السود، وهؤلاء كانوا وما زالوا في كلّ عصر أضرّ من الفسّاق المتجاهرين بالفسق.

الرابع: المنافقون الذين يظهرون النصيحة ويبطنون الغشّ أمثال الأشعث وخالد بن المعمر، فكيف يتم مع هؤلاء أمر؟[٤٧]

ولمّا رأى القرّاء تردّد الإمام ﷺ في قبول التحكيم أحاط به عشرون ألفاً منهم وهدّدوه باعتزاله، بل ويقتله كما قتلوا عثمان بن عفان. وارتفعت أصوات من جيشه أيضاً تنادي برفض التحكيم، وصاحت جماعة: لا حكم إلا الله. وفي هذا الموقف المضطرب أمر الإمام ﷺ الأشتر بوقف القتال وقبول التحكيم.

وليت الأمر اقتصر على ذلك فقد أرغم الإمام ﷺ على اختيار حكم من قبله لا يرغب فيه، فقد فرض الأشعث عليه أبا موسى الأشعري الذي كان قد فارق الإمام ﷺ بل وثبّط عنه الناس.

كان الإمام يرغب في ابن عباس حكماً فقال الأشعث ومن تابعه من اليمانية : لا نريد أن يكون الحكمان : ابن عباس وابن العاص من قريش ، بل يجب أن يكون واحد يمانياً والآخر قرشياً .

وبعد ثمانية أشهر من وقف القتال اجتمع الحكمان في دُومَة الجندل وقد خدع عمرو بن العاص ، الحكم المختار من قبل معاوية ، أبا موسى الأشعري الذي كان مغفّلاً ، فقد كان يقدمه أمامه ويعظمه ويجعله يتحدث قبله ، ويوافقه على أغلب آرائه إلى أن تمكّن من السيطرة عليه ، وفي ختام مباحثاتهما طرح أبو موسى فكرة خلع عليّ ومعاوية من الخلافة ليختار المسلمون بعد ذلك من يرغبون خليفة فأيّده عمرو بن العاص وطلب إليه أن يصعد المنبر ويعلن ذلك على المجتمعين ، وعظّمه ، وقدّمه قبله مردّداً : أنت صحبت رسول الله ﷺ قبلي ، وأنت أكبر منّي سنناً وقد مات رسول الله ﷺ وهو عنك راضٍ .

وانطلت الخدعة على المغفّل ، وصعد المنبر وأعلن على الحاضرين أنه خلع علياً ومعاوية من الخلافة كما يخلع خاتمه وقام بخلع خاتمه من إصبعه ثم نزل .

وصعد الداهية عمرو بن العاص المنبر وقال : إن هذا قال ما قد سمعتم وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فإنّه وليّ عثمان والطّالب بدمه ، وأحقّ الناس بمقامه .

فقال له أبو موسى : ما لك ؟ لا وفّقك الله . قد غدرت وفجرت ، وإنّما مثلك مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث ، وإن تتركه يلهث .

فقال عمرو : إنّما مثلك مثل الحمار يحمل أسفاراً .

ولنعم ما قال الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه عبقريّة الإمام : «كلبٌ وحمار فيما حكما به على نفسيهما غاضبين وهما يقضيان على العالم بأسره ليرضى بما قضياه ، وانتهت المأساة بهذه المهزلة ؛ أو انتهت المهزلة بهذه المأساة» . (١٨)

انتهت مهزلة التحكيم ، وهرب أبو موسى إلى مكّة يجلّله العار ، وعاد عمرو لصاحبه يهنئه بالملك . ورفض **الإمام علي** عليه السلام وأهل العراق مهزلة التحكيم ، ونبغ في العراق قرن انقسام خطير ، فقد اجتمع الذين رفضوا قبول التحكيم في مكان قرب الكوفة يدعى (حروراء) وتعرّضوا للمسلمين مثل قطّاع الطرق ، يدعونهم إلى رفض التحكيم ، وقتال من يقرّ به .

وحاورهم الإمام عليه السلام مستنداً إلى القرآن والسنّة فعاد قسم منهم إلى بيوتهم، ولكن عدة آلاف منهم رفضت النقاش والعودة إلى حظيرة الدين ورأوا أن قتل المسلمين حلّ لهم، وكفّروا الأمّة، وقتلوا بعض الصحابة والتابعين.

عند ذلك شنّ عليهم الإمام عليه السلام غارة وقال لأصحابه: «لن يقتل منكم عشرة، ولن ينجو منهم عشرة»، وقد أفلت من الخوارج ثمانية انتشروا في العراق وتابعهم آخرون، تكاثروا على مرّ الأيام حتى أصبحوا يشكلون خطراً حقيقياً على الإمام عليه السلام في العراق. ومع ذلك لم يبالِ بهم، وصار يعدّ العدة للمسير بجيش كبير لقتال معاوية.

وتباطأ أهل العراق في الانضمام لهذا الجيش، وفرّ قسم من أغنياء العراق ورؤساء القبائل إلى معاوية لأن الإمام عليه السلام ساوى بينهم وبين أفراد قبائلهم في العطاء، ولم يفرّق بين عربيّ وعجميّ، وهذا أغضب أصحاب الأموال والجبروت والطغيان، ورفضوا الانصياع إلى تعاليم الإسلام، والتحقوا بمن قدم لهم بيت مال المسلمين بدون حساب.

إنّهم موجودون في كلّ زمان ومكان ويرفعون في الوقت نفسه شعار التمسّك بالدين، والدعوة إلى التعصّب المذموم. ألا إن الدين منهم براء. إنهم تجار الدين والسياسة لاقتناص المغانم والمناصب، والتحكّم في رقاب المسلمين.

ليس من المستبعد - على ضوء الدراسات الحديثة - أن يكون معاوية قد دبّر مؤامرة لاغتيال الإمام عليّ عليه السلام - رأي أحمد عباس صالح.

إذ كيف يقتل الإمام عليه السلام ويصاب معاوية على عجيزته - وكان ضخم العجيزة - بينما يرسل عمرو بن العاص قائد شرطته ليقتله الخارجيّ وهو يظنّه عمرو بن العاص.

إن معاوية قد استخدم الاغتيال للتخلص من خصومه: فقد تخلص من الأشتر، وكان متوجهاً إلى مصر والياً، بأن سقاه أحد المكلّفين من معاوية شربة عسل مسمومة، وكذلك تخلص من أحد منافسي ولده يزيد في الحكم وهو عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بشربة مسمومة أيضاً. ألا ما أغرب الأمر؟ أصحاب المبادئ المثالية يموتون اغتيالاً أو قهراً أو ظلماً أو حبساً، أو فقراً، بينما ينعم المستغلون بالثراء والسلطة والملك.

فجر السابع عشر من رمضان عام ٤٠ هـ يرتفع صوت الأشعث بن قيس الكنديّ في فناء دار قريبة من المسجد يحث شخصاً على النهوض قائلاً: لقد فضحك الصبح. ويكمن القاتل

مع شريك له قرب المسجد في غبش الظلام، وعندما يقترب الإمام عليّ عليه السلام من المسجد وهو يدعو مسلمي الكوفة إلى الصلاة يضربه القاتل عبد الرحمن بن ملجم بسيف مسموم فيصيب رأسه، ويتهاوى إمام المستضعفين إلى الأرض، وتضجّ ملائكة السماء: لقد سقط إمام أراد أن يملأ الكون عدلاً ومساواة، ويقضي على الجور والظلم والاستغلال. وتبكي قلوب المؤمنين إمامها المرجوّ الذي رفع الحيف وقال: يا صفراء ويا بيضاء غرّي غيري ولم يعط أخاه عقيلاً درهماً واحداً زيادة عن عطائه مع أنه كان فقيراً مملقاً، بل إنه قرّب حديدة أحماها ولسعه بها فضجّ عقيل، وقال الإمام عليه السلام له: إنْ اعطيتك من مال المسلمين بدون حقّ فإنّ العليّ القدير سيحاسبني «يا عقيل أتخاف حديدة أحماها إنسان، ولا تخاف ناراً أعدّها ربّ العالمين للكفّار ومخالفي الشريعة؟».

ومن العجب أنّه كان كلّما مرّ بابن ملجم كان يتمثّل بهذا البيت:

أريد حياتــــه ويـــريــــد قتلـــــي عـــذيرَك مــن خليلك مــن مُـراد

فيقال: لم لا تقتله يا أمير المؤمنين!؟ فيردّ عليهم: كيف أقتل قاتلي؟!!.. (الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص٧٣).

وفي الليلة التي ضربهُ فيها الشقيّ ابن ملجم قال لابنه الحسن عليه السلام في السَّحَر: يا بنيّ: رأيت النبيّ صلى الله عليه وآله في نومة نمتُها فقلت: يا رسول الله، مالقيت من أمّتك من اللأواء واللدد!! فقال: ادعُ عليهم. فقلتُ: اللهمّ أبدلني خيراً منهم، وأبدلهم بي مَن هو شرٌّ منّي.

ويلفت نظر الباحثين والدارسين والمؤرّخين ميلاد الإمام عليّ عليه السلام فقد ولد في الكعبة إذ كانت أمّه تطوف بها فجاءها المخاض فدخلت إلى جوف الكعبة فولدته، وتوافق ميلاده مع استشهاده فقد ضُرب بالسّيف المسموم في المسجد بالكوفة.

المراجع:

٤٣ ـ اليمين واليسار في الإسلام ص٩٥ ـ ٩٦.

٤٤ ـ حرب الجمل وحرب صفين ص٨١.

٤٥ ـ حرب الجمل وحرب صفين ص٤٥.

٤٦ ـ حرب الجمل وحرب صفين ص٦٠.

٤٧ ـ حرب الجمل وحرب صفين ص٢٣٥.

٤٨ ـ حرب الجمل وحرب صفين ص٢٥٢.

الفصل الخامس

محاربة التشيُّع والمتشيِّعين

اغتيل إمام المستضعفين تمهيداً لتصفية العدل والمساواة، ونقاء الإسلام، ليعلو حكم المتسلطين والمستغلين والجائرين، ونهب بيت مال المسلمين. هذا هو شعور أهل العراق والحجاز وأطراف الدولة الفتية، أمّا أنصار معاوية في الشام فقد انتشرت علائم الابتهاج على وجوههم، وزغردت شرفات قصر الخضراء في دمشق، فقد حان تحقيق الحلم.

بعد اغتيال **الإمام عليّ** عليه السلام بايع أهل العراق ولده الأكبر الإمام الحسن عليه السلام خليفة للمسلمين، (منصب الأئمة بنصّ إلهي نبوي يبلّغه كل إمام لمن بعده وللشيعة جمعاء)، وطالبوه بشنّ الحرب على معاوية فجهز جيشاً تعداده اثنا عشر ألفاً، واتجه بهذا الجيش نحو الشام، لكن عندما وصل إلى المدائن فترت حماسة الجيش فتوقف وقام أحد أفراده بطعن الإمام الحسن عليه السلام في جنبه، وحاول بعضهم أن يربطه وثاقاً ويسلمه لمعاوية، وبعض آخر أراد قتله، وقد ألجأته هذه التصرّفات إلى مراسلة معاوية الذي كان قد راسله قبل سرّاً للاتفاق معه على شروط الصلح وتسليم مقاليد الحكم له، وبعد مفاوضات استمرت أشهراً يتم الصلح ويستلم معاوية الحكم شريطة أن يكون الإمام الحسن عليه السلام وليّ عهده، وفي حال موت معاوية تعود الخلافة إلى الإمام الحسن عليه السلام، وثمّة شرط آخر اشترطه الإمام الحسن عليه السلام على معاوية وهو ألا يتعرّض لشيعة الإمام عليه السلام وألا يؤذيهم في أموالهم وأنفسهم، وقد قبل معاوية ذلك. وارتحل الإمام الحسن عليه السلام إلى المدينة بأهله بعد أن قال لأهل العراق أثناء اجتماعه مع معاوية بالكوفة: «يا أهل الكوفة لو لم تذهل نفسي عنكم إلا لثلاث خصال لذهلت: مقتلكم أبي، وسلبكم ثقلي، وطعنكم في بطني، وإني قد بايعت معاوية». (٤٩)

صار معاوية خليفة عام (٤٠ هـ) وأعلن بعد رحيل الإمام الحسن عليه السلام: كلّ ما عاهدت عليه الحسن تحت قدميّ هاتين، ثم بدأ حرب الإبادة لشيعة **الإمام عليّ** عليه السلام.

١ ـ أعطى تعليماته إلى ولاته على الأمصار بسبّ **الإمام عليّ** عليه السلام من فوق المنابر عقب كلّ صلاة، وأردف هذه التعليمات بأخرى تقضي بقتل كلّ من يظهر الموالاة لعليّ عليه السلام واعتقال وسجن وتعذيب وقتل رؤساء الشيعة، وبدأت المطاردات المحمومة من جيش

الحاكم الجديد لجموع الشيعة في كلّ أنحاء الدولة، وصدرت من الولاة إغراءات عدّة ومكافآت بالأموال والمناصب لمن يدلّ على الشيعة.

وتوارى قسم من الشيعة عن الأنظار، ومن كان غير معروف أيّد الحكم الجديد علانية وأبطن حبّ **الإمام عليّ** عليه السلام ويومها ظهرت (التقيّة)، واستتر وراءها الشيعة مخافة القتل والسجن والتعذيب.

وصدرت تعليمات مؤكدة للولاة: كل من يمالئ (علياً) أو يهواه، اقتلوه، ولم يكتف بذلك بل أوعز معاوية إلى ولاته: من تقدم إليكم بأحاديث بسبّ بني هاشم فكافئوه.

وتهافت وضّاعو الحديث على المكافآت، واختلقوا أحاديث جمّة كلّها تقبّح بني هاشم وتركّز على تشويه صورة **الإمام عليّ** عليه السلام في نفوس المسلمين. وقد دفع معاوية للصحابي!! سمرة بن جندب خمسمائة ألف درهم ليروي له عن النبي صلى الله عليه وآله أن الآية: **﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام، وإذا تولّى سعى في الأرض ليفسد فيها، ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾** نزلت في علي بن أبي طالب، وأن الآية: **﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾** نزلت في عبد الرحمن بن ملجم لأنه قتل علياً عليه السلام.[٥٠] وكان أشد الولاة وأقساهم في تعذيب الشيعة والفتك بهم: المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه الذي استلحقه معاوية بنسبه وجعله أخاه بعد أن أشهد جماعة على أن أبا سفيان واقع أم زياد وكانت بغياً فولدت زياداً، وقد خالف معاوية الحديث الشريف القائل: الولد للفراش، وللعاهر الحجر. وقد فتك زياد بالشيعة فتكاً ذريعاً، وكان يلي لمعاوية البصرة أول الأمر ثم ولي الكوفة بعد موت واليها المغيرة بن شعبة إذ جمع له معاوية العراقين: البصرة والكوفة.

وعندما كان المغيرة والياً على الكوفة قام بإرسال أربعة عشر رجلاً من كبار زعماء الشيعة إلى معاوية في دمشق أشهد عليهم زوراً جماعة من أهل العراق بأنهم أظهروا شتم معاوية، ودعوا إلى حربه، وركّز على كبيرهم حجر بن عديّ الكنديّ واتّهمه بأنه قال: إن هذا الأمر لا يصلح إلا في آل أبي طالب، ثم وثب بالمصر وأخرج عامل معاوية، وأظهر عذر أبي تراب، والترحّم عليه، والبراءة من عدوّه وأهل حربه، وهؤلاء النفر الذين معه هم رؤوس أصحابه على مثل رأيه. ماذا تظن فعل معاوية بهم؟ أمرهم بسبّ **الإمام عليّ** عليه السلام والبراءة منه، ففعل ذلك ستة منهم.

أما حجر وسبعة من أصحابه فقد ثبتوا على موالاتهم للإمام عليّ عليه السلام ولم يعلنوا البراءة منه، فأمرهم معاوية أن يحفروا قبورهم بأيديهم في مرج عدرا قرب دمشق، ثم دفنهم وهم أحياء بهذه القبور التي حفروها بأيديهم!!..

ثم جاء عبيد الله بن زياد بعد أبيه والياً فكان أقسى وأمّر في مكافحة الشيعة وتعذيبهم، وهو الذي أمر بقتل الإمام الحسين عليه السلام وسنشرح مقتله بالتفصيل.

أما الحجّاج بن يوسف الثقفي والي العراقين زمن عبد الملك بن مروان فقد أذاق الشيعة أفانين العذاب، وكمّم الأفواه حتى لم يعد أحد يجرؤ على لفظ اسم عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وحتى أن الحسن البصريّ المحدّث المعروف الذي كان يتمتّع بشعبية كبيرة في العراق كان إذا أراد الاستشهاد بحديث عن الإمام عليّ عليه السلام لا يجرؤ على لفظ اسمه وكان يقول: حدّثنا أبو زينب، وقال أبو زينب وزينب هي إحدى بنات الإمام عليّ عليه السلام.

قال ابن أبي الحديد في نهج البلاغة: «وكان الحجّاج ـ لعنه الله ـ يلعن علياً عليه السلام، ويأمر بلعنه. وقال له متعرض به يوماً وهو راكب: أيّها الأمير!.. إنّ أهلي عقّوني فسمّوني علياً فغيّر اسمي، وصلني بما أتبلّغ به فإني فقير. فقال: للطف ما توصلتَ به، قد سميتك كذا، ووليتك العمل الفلاني، فاشخص إليه». [٥١]

وأورد نهاية زياد بن أبيه على النحو التالي: «أراد زياد أن يعرض أهل الكوفة أجمعين على البراءة من عليّ عليه السلام ولعنه، وأن يقتل كلّ من امتنع عن ذلك، ويخرّب منزله. فضربه الله ذلك اليوم بالطاعون فمات ـ لا رحمه الله ـ بعد ثلاثة أيام». [٥٢]

وقد أباح الإمام عليّ عليه السلام لمحبيه وأصحابه وشيعته سبّه إذا كان في سبّه حفاظ على حياتهم، ولكنه لم يوافق على البراءة منه، فقال: «فأمّا السبُّ فسبّوني فإنه لي زكاة، ولكم نجاة، وأمّا البراءة فلا تبرؤوا مني»، وقال: «إذا عُرضتم على البراءة منّا فمدّوا الأعناق». [٥٣]

وذكر أيضاً ان معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في الإمام عليّ عليه السلام تقتضي الطعن فيه والبراءة منه؛ وجعل لهم على ذلك (جُعْلاً) يرغب في مثله فاختلقوا ما أرضاه. منهم: أبو هريرة وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، ومن التابعين عروة بن الزبير.

وقد ولّى معاوية أبا هريرة المدينة لأنه اختلق حديثاً يغضّ من الإمام عليّ عليه السلام. وأبو هريرة هذا هو الذي ضربه عمر رضي الله عنه بالدرّة وقال له: قد أكثرت من الرواية وأحر بك أن تكون كاذباً على رسول الله صلى الله عليه. (٥٤)

وقد روي عن عليّ عليه السلام أنه قال: «ألا إن أكذب الناس ـ أو قال ـ أكذب الأحياء على رسول الله ﷺ أبو هريرة الدوسي. (٥٤م) ولما قدم أبو هريرة الكوفة جاءه شابٌ وهو جالس بباب كندة فجلس إليه وقال: يا أبا هريرة، انشدك الله أسمعت رسول الله ﷺ يقول لعليّ بن أبي طالب: «اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه»؟!.. فقال: اللهم، نعم، فقال الشاب: فأشهد بالله: لقد واليتَ عدوه، وعاديتَ وليّه، ثم قام عنه. (٥٤م) وظلّ بنو أمية يسبّون الإمام عليه السلام على المنابر، ويضعون فيه الأحاديث القبيحة، ويقتلون شيعته، حتى إن معاوية قتل الإمام الحسن عليه السلام بالسمّ، فقد تخلّص منه لأن الحسن عليه السلام اشترط على معاوية في كتاب الصلح أن يكون وليّ عهده، وأن تعود إليه الخلافة بعد موت معاوية.

ومن أخلاق معاوية الغدر والتخلّص من الخصوم بكل وسيلة، وعندما كبر ابنه يزيد، وتقدّم هو بالعمر فكر بتوريث ابنه يزيد الحكم ولذلك اتصل بزوجة الإمام الحسن عليه السلام جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي وأغراها بسمّ الحسن عليه السلام وجعل لها مكافأة مئة ألف درهم، ووعدها بأن يزوجها من ابنه يزيد. فأقدمت الآثمة على وضع السم في شربة قدّمتها للإمام الحسن عليه السلام فمات منها، وأعطاها معاوية المال، ولم يزوج ابنه منها وقال: أخاف أن تسمّه.

ألا كم قاسى الإمام عليّ عليه السلام من الأشعث وممّن ولد!!.. ولمّا مات معاوية كان قد اخذ البيعة لابنه يزيد من الأمصار ليكون حاكماً بعده فتولى الحكم عام ٦٠هـ، وطلب من واليه على المدينة ان يأخذ البيعة من الإمام الحسين عليه السلام.

ـ صار الإمام الحسين عليه السلام إماماً بعد موت الإمام الحسن عليه السلام ـ فرفض الحسين عليه السلام أن يبايع ليزيد السكير الخمّير الفاسق، وامتنع معه بعض زعماء المسلمين، وراسل أهل العراق الإمام الحسين عليه السلام طالبين منه الحضور إلى الكوفة ليبايعوه خليفةً بدلاً من يزيد، فأرسل لهم الإمام الحسين عليه السلام ابن عمّه مسلم بن عقيل ليعرف أمر الشيعة برئاسة سليمان بن صُرَد الخزاعي، وسمع يزيد بتحرّك الشيعة في العراق فعزل واليها النعمان بن بشير الأنصاري،

وولّى بدله عبيد الله بن زياد وأمره بقتل مسلم بن عقيل .

وصل ابن زياد الكوفة فجمع الناس في المسجد وخطبهم وطالبهم بتسليم مسلم بن عقيل ، فالتجأ مسلم إلى دار هانئ بن عروة المرادي واستجار به ، فعلم ابن زياد بأمره فطلب إلى هانئ تسليم مسلم فرفض فضربه ابن زياد وحبسه بالقصر ، ولما سمع مسلم بما جرى لهانئ ظهر مع أصحابه في شوارع الكوفة ونادوا بشعارهم : يا منصور أمت ، وهجموا على قصر ابن زياد وأحاطوا به ومرّة أخرى يخون أغنياء العراق وزعماء قبائلهم ورؤساؤهم ويستطيع ابن زياد إقناع هؤلاء الرؤساء بالأعطيات تارة وبالتخويف تارة أن يفرّقوا أفراد قبائلهم عن مسلم بن عقيل وأن يتركوا القتال معه ، ويلعب المال دوره وتلعب العصبيات القبلية دورها ، وينفضّ الناس عن مسلم ، ويصمد معه ٣٠ رجلاً فقط من جموع كانت تقدّر بثمانية عشر ألفاً كانت كلّها قد بايعته .

ويختبئ مسلم ، لكن عيون ابن زياد تخبره بمكان اختبائه ويرسل له هذا رجلاً ليقبض عليه . اتدري من الرجل؟ ! إنه محمد بن الأشعث بن قيس الكندي ! ! . .

ويستلم ابن زياد مسلماً فيقتله ، ويرميه منكوساً من أعلى القصر ، ويلحق به هانئ بن عروة المراديّ .

رحم الله مسلماً وهانئاً ومن جاهد في سبيل الحق .

المراجع

٤٩ ـ نظريّة عدالة الصّحابة ص١ ٥ عن مروج الذّهب للمسعوديّ.

٥٠ ت نظرية عدالة الصحابة ص٥٥ .

٥١ ـ نهج البلاغة ج٤ ص٥٨ .

٥٢ ـ نهج البلاغة ج٤ ص٥٨ .

٥٣ ـ نهج البلاغة ج٤ ص١١٣ .

٥٤ ـ نهج البلاغة ج٤ ص٦٧ ـ ٦٨ .

الفصل السادس

استشهاد الإمام الحسين (عليه السلام)

قبل أن يؤخذ مسلم بن عقيل بن أبي طالب (رضي الله عنهما) إلى ابن زياد، أرسل رسولاً إلى الإمام الحسين عليه السلام يخبره أن اهل الكوفة قد غدروا به، وانفضّوا عنه، ونكثوا ببيعته، ونصح له بألا يستمع إلى أقوالهم فهم الذين تقاعسوا عن **الإمام عليّ** عليه السلام، وبين ظهرانيهم قتل، وهم الذين دانوا لمعاوية، وصار رؤساؤهم من أخلص ثقاته.

سار الإمام الحسين عليه السلام بأهله وأهل مسلم بن عقيل إلى العراق وفي مكان يدعى الثّعلبيّة التقاه رسول مسلم بن عقيل وأخبره خبر مسلم ووصيّته له، ومرّ به الشاعر الفرزدق فسلّم عليه وأخبره أن قلوب أهل العراق معه لكنّ سيوفهم مع بني أميّة. وقد طلب منه بعض أصحابه الرجوع إلى المدينة لأنه لم يعد له بالكوفة ناصر ولا شيعة، غير أن بني عقيل صاحوا: والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا أو نذوق كما ذاق مسلم، فتابع الحسين عليه السلام طريقه حتى وصل إلى مكان يقال له (شراف) قابله جيشٌ أرسله عبيد الله بن زياد تعداده ألف فارس يقوده الحرّ بن يزيد التميميّ فقال الإمام الحسين عليه السلام للحرّ وأصحابه: «أيها الناس إنّها معذرة إلى الله وإليكم، إني لم آتكم حتى أتتني كتبكم ورسلكم أن أقدم علينا فليس لنا إمام، لعلّ الله أن يجعلنا بك على الهدى، فلقد جئتكم فإن تعطوني ما أطمئن إليه من عهودكم أقدم مصرْكم، وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذي أقبلنا منه». فلم يجيبوه بشيء في ذلك وقال له الحرّ: إنّا أمرنا إذا نحن لقيناك ألا نفارقك حتى نقدمك الكوفة على عبيد الله بن زياد. فقال الحسين عليه السلام: «الموت أدنى إليّ من ذلك». وخطب الجيش: «ألا وإنّ الدّعيّ ابن الدّعيّ قد خيّرنا بين اثنتين: السّلّة (استلال السيوف) أو الذّلّة، وهيهات منّا الذّلّة!.. يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون، وحجورٌ طابتْ، وحُجُزٌ طهُرتْ، وأنوفٌ حميّةَ، ونفوسٌ أبيّة».[55] وأراد الحسين عليه السلام الرجوع إلى الحجاز فمنعه جيش الحرّ بن يزيد، فسار الحسين عليه السلام شمالاً حتى وصل إلى نينوى التي وصلها جيش آخر سيّره ابن زياد وعلى مقدمته عمر بن سعد بن أبي وقاص، وكان هذا كارهاً لآل البيت الكرام. وقد طلب من الحسين عليه السلام أن يبايع ليزيد فأبى الحسين عليه السلام وطلب منه السماح له بالرجوع إلى الحجاز

أو أي مكان آخر فأبى عمر إلا أن يبايع ليزيد، ثم حال بينه وبين الماء تنفيذاً لوصية ابن زياد، وفي كربلاء وفي اليوم العاشر من محرّم عام ٦١ هـ نشب القتال بين ثمانين رجلاً من آل البيت الأشراف بقيادة الإمام الحسين ﷺ وبين جيش جرّار كلّه من اهل العراق يقوده عمر بن سعد بن أبي وقاص، وأظهر الثمانون بطلاً ضروباً من الشجاعة وأفانين من الضرب بالسيوف والطعن بالرماح ما أدهش هذا الجيش وخاف على نفسه الاصطلام.

قيل لرجل شهد ذلك اليوم: «ويحك!.. أقتلتم ذريّة رسول الله ﷺ؟ فقال: عضضت بالجَنْدَل؛ إنكَ لو شهدت ما شهدنا لفعلت ما فعلنا، ثارت علينا عصابة، أيديها في مقابض سيوفها كالأسود الضارية تحطم الفرسان يميناً وشمالاً، وتلقي أنفسها على الموت؛ لا تقبل الأمان، ولا ترغب في المال، ولا يحول حائل بينها وبين الورود على حياض المنيّة، أو الاستيلاء على الملك؛ فلو كففنا عنها رويداً لأتت على نفوس العسكر بحذافيرها؛ فما كنّا فاعلين لا أمّ لك؟!» .[٥٦]

وقبل مغيب شمس ذلك اليوم المشؤوم، استشهد الإمام الحسين ﷺ بعد أن تكاثرت عليه الجموع، ورمي بالسّهام، وضرب بالسيوف وطعن بالرماح. قيل أول من قتله شمر بن ذي الجوشن، ثم حزّ رجل رأسه وفصله عن جسده الطاهر، وانطلق به إلى ابن زياد يبشّره بالقضاء على سيّد شباب أهل الجنة، وقام آخر بسلب جبّته وحذائه، وأمر عمر بن سعد أن تدوس الخيل جثة الإمام الشهيد.

عجباً لهذا الحقد!!.. ويقيناً لو كان المقتول من الأعاجم لما فعلوا به ما فعلوه بالإمام الحسين ﷺ فأيّ عار كسبوا، وأيّ آخرة ربحوا؟!!

قتل مع الإمام الحسين ﷺ: من أهل بيته وقرابته ٧٢ شهيداً، وساق ابن سعد بن أبي وقاص نساء آل البيت إلى ابن زياد فسيَّرهن بأسوأ صورة إلى دمشق، يتقدّمهن رأس الإمام الحسين ﷺ مرفوعاً على قناة تبكيه العيون، وتتوجّع له القلوب، وكان يبكيه مع الباكين ولده الصغير المريض الذي أضحى إماماً بعد استشهاد والده العظيم، إنه الإمام عليّ زين العابدين عليه السلام.

لقد أبقى عليه القتلة لأنه كان صغيراً مريضاً، وكانوا يحسبون أنه لن يعيش كثيراً يوماً أو بعض يوم، وانكبّت عليه عمّته زينب تحميه من سيوف القتلة المجرمين.

قتل سيد أهل الإباء الذي علّم الناس الحميّة والموت تحت ظلال السيوف اختياراً له على الدنيّة: أبو عبد الله الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهما السلام، عرض عليه الأمان وأصحابه، فأنف من الذل وخاف من ابن زياد أن يناله بنوع من الهوان إن لم يقتله، فاختار الموت على ذلك.[٥٧]

ما أعظمك أيها الإمام!... فقد جاهدت وجُدت بنفسك لتعلّم الناس معنى التضحية في سبيل نصرة العدل والحقّ، وتساميت عن صغائر الدنيا وملذّاتها، وملاهيها وأموالها. لقد رأيت أنك إذا بايعت الظَّلَمة فسوف تشاركهم ظلمهم وإثمهم، فتنزّهت عن ذلك، وضربت لنا مثلاً في الاقتداء بالثورة على الظلم والظالمين:

ثائر الحق تسامى فهوى في كربلاء

أبصر الظلم مليكاً فاسقاً يسحق حلم الضعفاء

فتصدّى له شهماً أريحياً زارياً بالجبناء

شاهد العدل جريحاً فافتداه بالدّماء

علّم التاريخ معنى أضحيات العُظَماء

فانحنى التاريخ يعنو لإمام الفقراء

وحباه باعتزاز لقباً: سيّد كلّ الشهداء

من يجد بالنفس أضحى سيّداً للجُوَدَاء.[٥٨]

الجُوَدَاء: الكرماء.

وسأورد لك هذه الأخبار فاستنتج منها ما شئت:

قال نصر. عن هرثمة بن سليم قال: غزونا مع عليّ عليه السلام صفّين، فلما نزل بكربلاء صلّى بنا، فلمّا سلّم رفع إليه من تربتها فشمّها ثم قال: واهاً لك يا تربة، ليحشرن منك قوم يدخلون الجنة بغير حساب. (٥٩)

قال: فلما رجع هرثمة من صفين إلى امرأته جرداء بنت سمير، وكانت من شيعة عليّ عليه السلام حدّثها هرثمة فيما حدث فقال: ألا أعجبك من صديقك أبي الحسن!.. قال: لما نزلنا

بكربلاء وقد أخذ حفنة من تربتها، فشمّها وقال: واهاً لك أيتها التربة ليحشرنّ منك قوم يدخلون الجنة بغير حساب، وما علمه بالغيب! فقالت له المرأة: دعنا منك أيها الرجل فإن أمير المؤمنين عليه السلام لم يقل إلا حقاً.

قال: فلما بعث عبيد الله بن زياد البعث الذي بعثه إلى الحسين عليه السلام كنت في الخيل التي بعث إليهم، فلما انتهيت إلى الحسين عليه السلام وأصحابه عرفت المنزل الذي نزلنا فيه مع عليّ عليه السلام، والبقعة التي رفع إليه من تربتها والقول الذي قاله فكرهت مسيري، فأقبلت على فرسي حتى وقفت على الحسين عليه السلام فسلمت عليه، وحدّثته بالذي سمعته من أبيه في هذا المنزل؛ فقال الحسين: أمعنا أم علينا؟ فقلت: يا بن رسول الله، لا معك ولا عليك؛ تركت ولدي وعيالي وأخاف عليهم من ابن زياد. فقال الحسين عليه السلام: فولّ هارباً حتى لا ترى مقتلنا، فوالذي نفس حسين بيده، لا يرى اليوم مقتلنا أحد ثم لا يعيننا إلا دخل النار. قال: فأقبلت في الأرض أشتدّ هرباً حتى خفي عليّ مقتلهم. (٥٩م)

قال نصر... قال جاء عروة البارقيّ إلى سعد بن وهب فسأله فقال: حديث حدّثتناه عن عليّ بن أبي طالب قال: نعم، بعثني مخنف بن سليم إلى عليّ عند توجهه إلى (صفّين) فأتيته بكربلاء، فوجدته يشير بيده ويقول: ها هنا، ها هنا. فقال له رجل: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ فقال: ثقل لآل محمد ينزل ها هنا، فويلٌ لهم منكم، وويلٌ لكم منهم. فقال له الرجل: ما معنى هذا الكلام يا أمير المؤمنين؟ قال: ويل لهم منكم تقتلونهم، وويلٌ لكم منهم يدخلكم الله بقتلهم النار. (٥٩م)

قال نصر. إنّ علياً عليه السلام أتى كربلاء فوقف بها فقيل له: يا أمير المؤمنين هذه كربلاء، فقال: ذاتُ كرْب وبلاء ثم أومأ بيده إلى مكان آخر فقال: ها هنا مَرَاق دمائهم، ثم مضى إلى ساباط. (٥٩م)

قُتل مع الحسين عليه السلام سبعة عشر رجلاً كلّهم قد ارتكض في بطن فاطمة، وما على الأرض يومئذ أهل بيت لهم شبيهون.

وقد جاء عقاب القتلة سريعاً، وعجّل الله به كأنه لمح البصر، لم يتمتع القتلة بنصرهم وتثبيت سلطانهم، فقد مزّق الله ملك «يزيد» إذ انفضّ عنه أهل الحجاز وخلعوه فأرسل لهم جيشاً حاصر المدينة وفتك بأهلها فتكاً ذريعاً، وكان هذا الجيش بقيادة مسلم بن عقبة، ولكثرة ما أسرف في قتل أهل المدينة دعي (مسرفاً).

ثم تمرّد عبد الله بن الزبير في مكّة وخلع طاعة «يزيد» ودعا لنفسه بالخلافة. وفي شهر ربيع الأول عام ٦٤ هـ مات يزيد فجاءة واستلم الحكم بعده ابنه معاوية غير انه مات بعد شهر ونصف من حكمه. واستلم الحكم بعده مروان بن الحكم ولم تطل مدته فقد مات بعد ستة أشهر وتحقّق فيه قول **الإمام عليّ** عليه السلام: ستكون مدة حكمه كلعقة الكلب أنفَه.

واضطربت البلاد وماجت، وأصبحت مقسّمة بين الأمويين الذين لهم الشام ومصر، وعبد الله بن الزبير الذي دانت له الحجاز وسيطر على العراق الشيعة والخوارج.

بعد موت يزيد تنادى الشيعة من كلّ أنحاء العراق، واجتمعوا في الكوفة في بيت سليمان بن صُرد الخزاعي، وتداولوا في امر تخاذلهم عن الإمام الحسين عليه السلام ورأوا أنهم قد تسببوا في فاجعة كربلاء حينما كاتبوا الحسين عليه السلام ليقدم إليهم، ثم تخلّوا عنه، وأسلموه إلى عدوّه عبيد الله بن زياد بل كان بعضهم ممّن شارك في الجيش الذي قاتله.

وندموا، **وقالوا**: لن يغسل عار التخلّي عنه، ورفع الإثم عنّا إلا أن نقتل قتلته ولو كانوا في مشارق الأرض ومغاربها، ثم أعلنوا أنهم قد تابوا من ذنبهم وأطلقوا على أنفسهم اسم «التوّابين»، وجعلوا على رأسهم سليمان بن صُرد الذي شكل جيشاً منهم عدده أربعة آلاف رجل وسار بهم نحو بلاد الشام في ربيع الأول ٦٥ هـ.

وفي مكان يدعى (عين الوردة): (عين العرب، أو رأس العين في سورية) التقى هذا الجيش جيشاً أموياً يقوده عبيد الله بن زياد، وكان من الطبيعي أن ينهزم هذا الجيش الصغير أمام جيش أمويّ مدرّب جلّه من أهل الشام، وقتل القائد سليمان بن صُرد الخزاعيّ بعد أن كفّر عن تقصيره في مساندة الإمام الحسين عليه السلام.

تَزَعَّم الشيعة بعد استشهاد سليمان بن صرد رجلٌ مغامر متشيّع هو المختار بن عبيد الثقفيّ، رفع شعار الأخذ بثأر الحسين عليه السلام وقتل قتلته، والقضاء على الحكم الأمويّ، فانضوى تحت سلطته الشيعة وعلى رأسهم إبراهيم بن الأشتر، القائد العسكري الناجح، وتمكّن المختار من السيطرة على الكوفة وتشكيل جيش قاده إبراهيم بن الأشتر نحو بلاد الشام ليلتقي جيش عبيد الله بن زياد قرب الموصل.

ودارت الدائرة على الجيش الأموي، وهزم هزيمة ساحقة وقتل قائده عبيد الله بن زياد وكبار قواد هذا الجيش وكان فيهم عدد كبير من قتلة الإمام الحسين عليه السلام، ثم تابع الجيش

مسيره، واحتلّ أراضي الجزيرة السورية وألحقها بالسيطرة العراقية وصار المختار أميراً لمناطق واسعة، وأرسل الشيعة إلى كل مكان حلّ فيه قتلة الحسين ﷺ لتصفيتهم، واصطلمهم جميعهم. ولكن حكم المختار لم يدم طويلاً لأن أشراف العراق تخلّوا عنه، وفرّوا إلى عبد الله بن الزبير الذي استولى على الحجاز، وكذلك تخلّى عنه إبراهيم بن الأشتر وعدد كبير من الشيعة لأنهم رأوا فيه مغامراً تبنّى قضيتهم لتحقيق مطامعه الخاصّة.

بعد القضاء على المختار من قبل مصعب بن الزبير شقيق عبد الله صارت الدولة العربية الإسلامية مقسّمة بين عبد الملك بن مروان الذي ورث حكم أبيه ومقرّ حكمه دمشق، وبين عبد الله بن الزبير ومركز حكمه مكّة.

سار عبد الملك بن مروان على رأس جيش كثيف ليستخلص العراق من ابن الزبير، والتقى جيش مصعب في مكان يدعى (مَسْكِن) على نهر دُجَيْل، عند دير الجاثليق عام ٧٢هـ، وكالعادة تخلّى أشراف العراق ورؤساء القَبائل عن حاكمهم وانضموا إلى عبد الملك ممّا أدى إلى تخاذل جيش مصعب، وقاتل هذا القائد وسقط في أرض المعركة وهو يتمثل بهذا البيت:

وإن الألى بالطّف من آل هاشم   تأسّوا فسنّوا للكرام التأسّيا

والطفّ مكان استشهاد الحسين ﷺ.

سيطر عبد الملك على العراق بكامله وأرسل أحد قواده الحجّاج بن يوسف الثقفي إلى مكّة فحاصرها وسلّط المنجنيق على الكعبة المشرّفة وأشعل فيها النيران وهدمها حجراً حجراً، ودعا عبد الله بن الزبير للاستسلام فأبى، فشدّد الحصار على مكة وقطع المؤن عنها، فتسلّل سكانها إليه وتخلّى قسم كبير منهم عن ابن الزبير، ومنهم أخوه، وولداه، ودخلت جيوش الحجّاج مكّة وقتلت ابن الزبير وأعوانه، وقام الحجّاج بصلب ابن الزبير في السابع عشر من جمادى الآخرة عام ٧٣هـ.

وبمقتل ابن الزبير صفي الملك لعبد الملك وبدأت مطاردة الشيعة من جديد، ينفذها الولاة في كلّ الأمصار، وبخاصّة الحجّاج الذي لم يترك وسيلة شنيعة إلا واستخدمها في تعذيب وقتل الشيعة.

وقد قام الأمويون باغتصاب أملاك الشيعة ومنعوهم من قيادة الجيش، ومن الوظائف العامّة، وظل شتم **الإمام عليّ** عليه السلام عند كلّ صلاة، إلى أن استلم الخلافة الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز عام ٩٩هـ، فقد ألغى سبّ **الإمام عليّ** عليه السلام وطيّر كتاباً للأمصار بذلك، وأمر ولاته بإبطال السبّ وجعل مكانة الآية الكريمة التالية: **﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾**. وصار ذلك سنّة في حكمه. ويوضح عمر رضي الله عنه سبب إبطاله الشتم فيقول: «كنت غلاماً أقرأ القرآن على بعض ولد عتبة بن مسعود، فمرّ بي يوماً وأنا ألعب مع الصبيان، ونحن نلعن علياً، فكره ذلك ودخل المسجد، فتركت الصبيان، وجئت لأدرس عليه وردي، فلمّا رآني قام فصلّى وأطال في الصلاة ـ شبه المعرض عني ـ حتى أحسست منه بذلك، فلمّا انفتل من صلاته كَلَحَ في وجهي فقلت له: ما بال الشيخ؟ فقال لي: يا بنيّ: أنت اللاعن علياً منذ اليوم؟ فقلت: نعم. قال: فمتى علمت أن الله سخط على أهل بدر بعد أن رضي عنهم؟! فقلت: يا أبت: وهل كان عليّ من أهل بدر؟! فقال: ويحك!.. وهل كانت بدرٌ كلّها إلاّ له؟! فقلت: لا أعود. فقال: الله أنّك لا تعود؟ قلت: نعم. فلم ألعنه بعدها.

ثم كنت أحضر تحت منبر المدينة، وأبي يخطب يوم الجمعة، وهو حينئذ أمير المدينة ـ فكنت أسمع أبي يمرّ في خطبه تهدر شقاشقه حتى يأتي إلى لعن عليّ عليه السلام فيجرجم ويعرض له من الفَهَاهة والحَصَر ما الله عالمٌ به، فكنت أعجب من ذلك، فقلت له يوماً: يا أبتْ أنت أفصح الناس وأخطبهم، فما بالي أراك أفصح خطيب يوم حفلك حتى إذا مررت بلعنَ هذا الرجل صرت ألْكَنَ عيّاً؟!

فقال: يا بني، إن من ترى تحت منبرنا من اهل الشام وغيرهم، لو علموا من فضل هذا الرجل ما يعلمه أبوك لم يتبعنا منهم أحد. فَوَقَرت كلمته في صدري؛ مع ما كان قاله لي معلمي أيام صغري، فأعطيت الله عهداً لئن كان لي في هذا الأمر نصيبٌ لأغيّرنه، فلمّا منّ الله عليّ بالخلافة أسقطتُ ذلك.[٦٠]

أدّى هذا الانفتاح على الأمة في عهد عمر رضي الله عنه إلى ترك الشيعة لحذرهم وخوفهم من العذاب والقتل والتشريد فجاهروا بتشيّعهم وقام شعراؤهم بمدح عمر رضي الله عنه وهذا الشاعر (كثيّر عزّة) يمدح عمر ويقول:

وَلِيْتَ فلم تشتم علياً ولـم تخـف بـريّـاً ولـم تـتـبـع مـقـالـة مـجـرم
تكلّمتَ بالحـق المبيـن وإنّـما تبـيّـن آيـات الـهـدى بـالـتـكـلّـم
وصدّقت معروف الذي قلت بالذي فعلتَ فأضحى راضياً كلّ مسلم[61]

وفي القصة التالية تصديق لجرأة الشيعة في عهد عمر رضي الله عنه :

كتب له عامله ميمون بن مهران عن أمر أشكل عليه فلم يستطع له حلاً ولذلك أوكل حلّ هذا المشكل للخليفة لأنّه الموكّل بذلكَ. والأمر هو: ورد عليه رجلان وامرأة، وأحد الرجلين والد المرأة والآخر زوجها، وقد زعم أبوها أن زوجها حلف بطلاقها إن لم يكن عليّ بن أبي طالب عليه السلام خير هذه الأمة وأولاها برسول الله ﷺ والأب يزعم أن ابنته طلقت منه، وأنه لا يجوز له في دينه أن يتّخذه صهراً، وهو يعلم أنّها حرام عليه كأمّه، ولكن الزوج يقول له: كذبت وأثمت، لقد برَّ قسمي، وصدقت مقالتي، وهي امرأتي على رغم أنفك وغيظ قلبك.

ويسأل مهران الرجل عن يمينه فيقول: نعم قد كان ذلك وقد حلفت بطلاقها: إنّ علياً خير هذه الأمة وأولاها برسول الله ﷺ عَرَفه من عَرَفه، وأنكره من أنكره، فليغضب من يغضب وليرضَ من رَضيَ. . وقام عمر رضي الله عنه بجمع بني هاشم، وبني أمية، وأفخاذ من قريش ليكون الحكم عاماً وجماهيرياً وأحضر المرأة وأباها وزوجها، وقال لوالدها: ما تقول أيها الشيخ؟ قال: يا أمير المؤمنين!. . هذا الرجل زوّجته ابنتي وجهّزتها إليه بأحسن ما يجهّز به مثلها، حتى إذا أمَّلتُ خيره ورجوت صلاحه حلف بطلاقها كاذباً، ثم أراد الإقامة معها، فقال له عمر رضي الله عنه: يا شيخ، لعلّه لم يطلّق امرأته، فكيف حلف؟ قال الشيخ: سبحان الله!. . الذي حلف عليه لأبينُ حنثاً وأوضح كذباً من أن يختلج في صدري منه شكّ مع سنيّ وعلمي، لأنه زعم أن علياً عليه السلام خير هذه الأمة، وإلا فامرأته طالق ثلاثاً. فقال للزوج: ما تقول؟ أهكذا حلفت؟ قال: نعم. فقيل: إنه لمّا قال: نعم، كاد المجلس يرتجّ بأهله، وبنو أمية ينظرون إليه شذْراً، إلا أنهم لم ينطقوا بشيء، كلٌّ ينظر إلى وجه عمر رضي الله عنه. فنظر إليهم عمر بعد إطراق، وقال: ما تقولون في يمين هذا الرجل؟ فسكتوا، فقال: سبحان الله!. . قولوا، فقال رجل من بني أمية: هذا حكمٌ في فرْج، ولسنا نجترئ على القول فيه، وأنت عالمٌ بالقول، مؤتمنٌ لهم وعليهم. فقال له عمر رضي الله عنه: قل ما عندك، فإن القول، ما لم يكن يحقّ باطلاً ويبطل حقاً، جائزٌ عليّ في مجلسي قال: لا أقول شيئاً؛ فالتفت إلى

رجل من بني هاشم من ولد عقيل بن أبي طالب فقال له : ما تقول فيما حلف به هذا الرجل يا عقيليّ؟ فاغتنمها العقيلي فقال : يا أمير المؤمنين : إن جعلت قولي حكماً . أو حكمي جائزاً قلت ؛ وإن لم يكن ذلك فالسكوت أوسع لي ، وأبقى للمودة . قال عمر : قل ، وقولك حُكمٌ ، وحكمك ماض . فلما سمع ذلك بنو أمية قالوا : ما أنصفتنا يا أمير المؤمنين إذ جعلت الحكم إلى غيرنا ، ونحن من لُحْمَتك وأولي رَحمك ! . . فقال عمر : اسكتوا ، أعجزاً ولؤماً ؟ ! عرضت ذلك عليكم آنفاً فما انتدبتم له . قالوا : لأنك لم تعطنا ما أعطيت العقيليّ ، ولا حكّمتَنا كما حكّمتَه . فقال عمر : إن كان أصاب وأخطأتم ، وحَزم وعَجَزتم ، وأبصرَ وعميتم ، فما ذنب عمر لا أبا لكم ! . . أتدرون ما مثلكم ؟ قالوا : لا ندري . قال : لكن العقيليّ يدريَ ثم قال : ما تقول يا رجل : قال : نعم ، يا أمير المؤمنين ، كما قال الأول :

دُعيتم إلـــى أمر فلـــما عجزتـم تـنـاولـه مـن لا يـداخلـه عَـجْـزُ
فلما رأيتمْ ذاك أبدَت نفوسكـــم نداماً ، وهل يغني من القَدَر الحذْر ؟

فقال عمر : أحسنت وأصبت ، فقل ما سألتكَ عنه .

قال : يا أمير المؤمنين ، برَّ قسمه ، ولم تطلق امرأته . قال : وأنّى علمت ذاك ؟ قال : نشدتك الله يا أمير المؤمنين ألم تعلم أن رسول الله ﷺ قال لفاطمة رضي الله عنها وهو عندها في بيتها عائدٌ لها : يا بنيّة ، ما علّتك ؟ قالت : الوَعَك يا أبتاه ، وكان عليّ غائباً في بعض حوائج النبي ﷺ ، فقال لها : أتشتهين شيئاً ؟ قالت : نعم ، أشتهي عنباً ، وأنا أعلم أنه عزيز ، وليس وقت عنب . فقال صلى الله عليه وآله إن الله قادر على أن يجيئنا به ، ثم قال : اللهم ائتنا به مع أفضل أمتي عندك منزلة . فطرق عليٌّ الباب ، ودخل ومعه مكتَل قد ألقى عليه طرف ردائه ، فقال له النبي ﷺ ما هذا يا عليّ ؟ قال : عنب التمسته لفاطمَة . فقال : الله أكبر ، الله أكبر ، اللهم لما سررتني بأن خصصتَ علياً بدعوتي ، فاجعل به شفاء ابنتي ، ثم قال : كلي على اسم الله يا بنيّة . فأكلت ، وما خرج رسول الله ﷺ حتى استقلّت وبَرَأت . فقال عمر : صدقتَ وبررْتَ ؛ أشهد : لقد سمعته ، ووعيته ، يا رجل : خذ بيد امرأتك ، فإن عرض لك أبوها ، فاهشم أنفه . ثم قال : يا بني عبد مناف ، والله ما نجهل ما يعلم غيرنا ، ولا بنا عَمىً في ديننا ، وكلّنا كما قال الأول :

تصيّدت الدنيـــا رجـــالاً بفخّهـــا فلم يدركوا خيراً بل استقبحوا الشرّا
وأعماهُمُ حب الغني وأصمّهـــــم فلـم يدركوا إلا الخسارة والـــوزرا

قيل : فكأنما ألقم بني أمية حجراً ، ومضى الرجل بامرأته . (٦٢)

لم يستمرّ حكم عمر بن عبد العزيز طويلاً فقد أقدمت عائلته الأموية على سمّه، والتخلّص منه بعد فترة استمرت سنتين وخمسة أشهر قام أثناءها بردّ الحقوق إلى أصحابها حيث ردّ القطائع المغتصبة من أصحابها من قبل الأمويين أثناء حكمهم منذ عهد معاوية، وأقام العدل والمساواة بين المواطنين ممّا شجّع الوثنيين والبربر والموالي والمسيحيين على اعتناق الإسلام، وهادن الخوارج وأنصف الشيعة، وكرّم آل البيت الأطهار، بل وطلب إلى زوجه أن تتخلّى عن حليّها وجواهرها، وتردّها إلى بيت المال، وقد فعلت.

وقد عابه أحد أفراد عائلته الأموية على أعماله هذه، فهدّده بأنه سيبيعه ويردّ ثمنه إلى بيت المال لأن أمّه كانت أَمَةً اشتراها أبوه من بيت مال المسلمين.

وبعد موته استلم الحكم حاكمٌ عابثٌ لاهٍ مقبل على الملذات هو يزيد بن عبد الملك، وأمضى فترة حكمه يعبّ الخمرة ويستمع إليّ الغناء من جاريتيه (حبّابة) و(سلامة)، ولما ماتت حبّابة بعد أن شرقت بحبّة رمّان لحقها بعد أربعين يوماً، فآلت مقاليد الحكم إلى هشام بن عبد الملك وتميّز حكم هشام هذا باستقرار الدولة الأموية لأنه اتّبع سياسة شديدة لا هوادة فيها، وولّى عمالاً أقوياء شديدين.

وقد ولّى العراق خالداً القسري فاهتمّ بالاقتصاد، واستصلح الأراضي وساوى بين القبائل المتناحرة، وركن الشيعة في عهده إلى الاستقرار لأن الإمام محمد الباقر عليه السلام كان يرى عدم الثورة على الأمويين متّبعاً طريقة والده الإمام الرابع: عليّ بن الحسين عليهما السلام الملقّب بزين العابدين لأنه كان كثير العبادة والصلاة.

المراجع

٥٥ ـ نهج البلاغة ج٣ ص٢٤٩.

٥٦ ـ نهج البلاغة ج٣ ص٢٦٣.

٥٧ ـ نهج البلاغة ج٣ ص٢٤٩.

٥٨ ـ مسرحية ديك الجن وورد مسرحية شعرية لمؤلف الكتاب.

٥٩ ـ نهج البلاغة ج٣ ص١٦٩.

٦٠ ـ نهج البلاغة ج٤ ص٥٨ ـ ٥٩.

٦١ ـ الدولة الأموية ج٢ ص١٨٤.

٦٢ ـ نهج البلاغة ج٢٠ ص٢٢٢ وما بعدها.

الفصل السابع

انقسام الشيعة

بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام غدا ابنه (عليّ) عليه السلام إماماً، فالتفّ حوله الشيعة وأخذوا بنصائحه القاضية بعدم الثورة على الأمويّين لأن الشيعة كانت الأرصاد مبثوثة عليها تراقبها، وبالوقت نفسه لم تكن قوية بشكل تستطيع فيه القضاء على الدولة الأموية، واستفادت الشيعة في هذه الفترة من التنظيم السريّ المحكم فحافظت على نفسها، وزاد عددها. حسب النص الإلهيّ النبويّ قام الإمام عليّ زين العابدين عليه السلام بتسمية ابنه محمد عليه السلام إماماً ونصّ عليه ليكون خليفته في الشيعة، وقد امتاز الإمام محمد عليه السلام بعلمه الغزير الواسع، فلقبته شيعته بالباقر لأنه بقر العلم أي تبحّر فيه واتّسع وأصبح كالبحر في الغزارة والاتّساع.

وسار الإمام الباقر عليه السلام على خطّة والده في تنظيم الشيعة ورعاية أمورها، ولم يحاول الصّدام مع الدولة الأموية.

وكان للإمام محمد الباقر عليه السلام أخ اسمه (زيد) تتلمذ على يد واصل بن عطاء أحد مؤسسي فرقة المعتزلة فتبنّى أفكار هذه الفرقة ومعتقداتها ومنها جواز إمامة المفضول في وجود الفاضل. وكان يرى الثورة على الأمويين، فالتفّ حوله قسم من الشيعة يرون رأيه في الثورة، ولمّا تعرّض للسجن والعذاب على يد يوسف بن عمر الثقفي الذي أصبح والياً على العراق بعد خالد القسريّ المعزول، قام بثورته في الكوفة على الأمويين.

الانشقاق الأول:

اتّهم يوسف بن عمر (زيداً) بأنه يخفي ستمئة ألف درهم أودعها عنده خالد القسري الوالي المعزول فأنكر زيدٌ ذلك فأرسله يوسف إلى هشام بن عبد الملك في دمشق فتركه هشام مدّة طويلة بدون أن يسمح له بمقابلته، ولمّا رغب في مقابلته جلس في (عليّة) له، فرقي زيد إليها، وقد أمر هشام خادماً له أن يتبعه حيث لا يراه زيد ويسمع ما يقول فصَعد زيد وكان بادناً، فوقف في بعض الدَّرَجَة فسمعه الخادم وهو يقول: «ما أحبَّ الحياةَ إلا من ذلّ»، فأخبر الخادم هشاماً بذلك، فلما قعد زيد بين يدي هشام وحدّثه حلف له على شيء

فقال هشام: لا أصدقك. فقال زيد: إن الله لا يرفع أحداً عن أن يرضى بالله، ولم يضع أحداً عن أن يرضى بذلك منه. قال له هشام: إنّه بلغني أنّك تذكر الخلافة، وتتمنّاها، ولستَ هناك لأنّك ابن أمَة. فقال زيد: إن لك جواباً. قال: تكلّم. قال: إنه ليس أحد أولى بالله ولا أرفع درجة عنده من نبيّ ابتعثه، وهو إسماعيل بن إبراهيم وهو ابن أمة، وقد اختاره الله لنبوّته، وأخرج منه خير البشر. فقال هشام: فما يصنع أخوك البقرة؟ فغضب (زيد) حتى كاد يخرج من إهابه ثم قال: سمّاه رسول الله ﷺ الباقر، وأنت تسميه البقرة!.. لشدّ ما اختلفتما. لتخالفنّه في الآخرة كما خالفته في الدنيا، فيرد الجنة، وترد النار.

فقال هشام: خذوا بيد هذا الأحمق المائق، فأخرجوه، فأخذ الغلمان بيده فأقاموه. فقال هشام: احملوا هذا الخائن الأهوج إلى عامله. فقال زيد: والله لئن حملتني إليه لا أجتمع أنا وأنت حيّين، وليموتنَّ الأعجل منّا.[٦٣]

خرج زيد مغضباً، وعندما وصل العراق جمع يوسف بن عمر بينه وبين خالد القسري، وحلف زيدٌ إن خالداً لم يودع عنده مالاً فلم يصدقه يوسف، وكان زيدٌ ورعاً تقياً صادقاً، وآلمه ذلك، ولم يكتف الوالي بعدم تصديقه، بل قام بتعذيبه في السجن. لكن هشاماً أرسل لعامله يطلب منه أن يطلقَ سراحه، وبعد خروجه من السجن أراد التوجه إلى المدينة، فاجتمع إليه شيعته في الكوفة، وألحفوا عليه بالبقاء بينهم للتحضير للثورة على الأمويين، وقالوا له: «أين تذهب عنّا، ومعك مائة ألف رجل من أهل الكوفة يضربون بها بني أميّة دونك؟».

فبقي بينهم وبدأ التحضير للثورة استمر عشرة أشهر وفي أول صفر ١٢٢هـ ٧٤٠م أعلن ثورته، لكن الوالي كان قد سمع بها قبل زمن يسير من إعلانها فدعا أهل الكوفة للاجتماع في المسجد، وأحاطه بجيش كثيف وهكذا عَزل قسماً كبيراً من الشيعة في المسجد، ومن بقي منهم مع (زيد) لم يخوضوا معه المعركة ضد الأمويّين، بل طلبوا إليه أن يوضّح لهم موقفه من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وكانوا قد سمعوا منه أثناء فترة التحضير للثورة آراء تناقض رأي الشيعة في الشيخين، فقال لهم: كانا وزيري جدّي، ولا أقول فيهما إلا خيراً. فلما سمعوا ذلك منه تركوه، وارفضّوا عنه فسمّاهم (الرافضة).

لم يبق من الشيعة مع زيد غير ٢٠٠ رجل، هاجم بهم المسجد ليفرج عن أصحابه فصدّه جند الوالي، ودارت بين الطرفين مناوشات استمرت يومين، وأثناء الصدام أصيب زيد بسهم لا يعرف راميه أصاب جبهته اليسرى في دماغه فحمله شيعته إلى أحد المنازل،

وحينما نزعوا السهم مات زيد عليه السلام فدفنوه، وأخفوا قبره لكن جاء الوالي من اخبره بموضع القبر فأخرج جثمان زيد وصلبه بالكناسة (مكان سكنى السنة) بالكوفة، ثم فصل رأسه عن جسده الشريف وأرسله إلى هشام فصلبه على باب دمشق.

تابعه ابنه (يحيى) بحركة أخفقت هي الأخرى في نهاية العصر الأمويّ لكن انتشر المذهب (الزيديّ) نسبة إلى الإمام زيد عليه السلام في سواد الكوفة، ثم ازداد كثرة في إقليم طبرستان وجنوب بحر قزوين في الثلث الأخير من القرن الثاني للهجرة، واستطاع الزيديون تشكيل دولة في هذا الإقليم بقيادة الحسن بن زيد العلوي، أحد رؤوس الشيعة الزيدية، ثم وسّع هذه الدولة فشملت جرجان وبلاد الديلم والري، وكان قيام هذه الدولة عام ٢٥٠هـ واستمرّت حتى ٣٥٥هـ وإضافة إلى تكاثر الزيديين في طبرستان فقد تكاثروا في اليمن، وفي بداية القرن العاشر الميلادي استطاعوا تكوين دولة في اليمن رئيسها إمام زيدي ظلّت مستمرة حتى عام ١٩٦٢م حينما قامت ثورة ضد الإمام البدر بقيادة المشير عبد الله السلال - وهو زيدي - وأعلن قيام الجمهورية العربية اليمينية.

وفي فترة انهيار الحكم الأموي وقبيل القضاء نهائياً على هذا الحكم نشط الشيعة في العراق وخراسان، وانضمّ بعضهم إلى الدعوة العباسية لأن هذه الدعوة كانت سرية، وكان دعاتها يدعون إلى الرضا لآل البيت بدون تحديد لاسم صاحب الدعوة.

ولما آذن الله بأفول الدولة الأموية فقد اصطدمت القبائل اليمانية مع القيسيّة وتعاقب على حكم هذه الدولة عدّة حكام بعد موت هشام، وكلّ حاكم له ميل يختلف عن الآخر بشأن القبائل.

ولما تولّى مروان بن محمد وهو آخر حاكم أمويّ غلّبَ المضريّة على اليمانية فثاروا ضده، ثم ساعدوا بعض زعماء الشيعة، وانضموا إلى بني العباس في القضاء على الدولة الأموية عام ١٣٢هـ.

الدولة العباسيّة:

قامت الدولة العباسية على أكتاف جناح من الشيعة، فقد كان لمحمد بن الحنفيّة، ابن الإمام عليّ عليه السلام من زوجته خولة الحنفية شيعة خاصة دعيت بالكيسانيّة نسبة إلى كيسان خادم السيد محمد بن الحنفية رضي الله عنه. وقد التفّ قسم من الشيعة حول محمد بن

الحنفية بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام. وكان محمد رضي الله عنه يرى ألا يثور الشيعة ضد الأمويين الذي يمتلكون الجيوش المنظمة، وبيت المال الذي جعلوه بيت مال يخصّهم وحدهم، وليس بيت مال المسلمين. وكان يرى ان تنظّم الشيعة نفسها تنظيماً سّرياً حتى يصلب عودها وتمتد وتنتظر ضعف الدولة الأموية فتنقضّ عليها، وتنهيها، وتنفيذاً لفكرته بثّ الدّعاة في العراق وخراسان بخاصّة، وعندما توفّي تولّى الدعوة بعده ابنه أبو هاشم عبد الله.

ويقول المؤرخون إن الحاكم الأموي سليمان بن عبد الملك كشف أمر هذه الدعوة فتوصّل إلى سمّ عبد الله بن محمد بن الحنفية وهو متّجه لزيارة محمد بن علي بن عبد الله العبّاس في منطقة الحميمة قرب البحر الميت. وقبل أن يقضي عليه السمّ أخبر ابن علي بن عبد الله بن العباس بأمر دعوته، وعرّفه بأسماء الدعاة وأماكن وجودهم وكتب لهؤلاء الدعاة يطلب منهم إطاعة أوامر وتعليمات خليفته عليهم محمد بن عليّ العباسي. كان ذلك عام ٩٩هـ، ومنذ ذلك الوقت شغف العباسيون بتولّي الحكم، وقام محمد هذا بزيارة الدعاة ووجّههم إلى خراسان بخاصّة لأنها بعيدة عن مركز الدولة وفيها أقوام تكره الحكم الأموي، وقد أوصى دعاته بإبقاء أمر من يدعون إليه غامضاً، بل عليهم الدّعوة لشخص غير محدّد من آل البيت.

وعند نجاح الدعوة والقضاء على الدولة الأموية يتفق الثائرون على شخص يرتضونه من آل البيت، ولذلك طرح الدّعاة شعار (الرّضا من آل محمد).

وبعد موت محمد العباسي خلفه في قيادة الدعوة ابنه إبراهيم الذي صار يطلق على نفسه لقب الإمام تشبّهاً بالأئمة العلويين وصار كبير دعاته النّاجح شخصية غامضة لا يعرف نسبها، ولكنها تمتاز بالبراعة في التنظيم والدهاء، إنها شخصية أبي مسلم الخراساني الذي نظّم الدعوة في خراسان تنظيماً عظيماً وألف جيشاً استطاع فيه القضاء على والي خراسان الأموي نصر بن سيّار.

ولكن إبراهيم الإمام لم يرَ تحقيق ما يدعو إليه إذ عرف أمره مروان بن محمد آخر حاكم أمويّ فحبسه ومات في حبسه، وقبل موته أوصى لأخيه عبد الله بن محمد المعروف بأبي العباس السفاح.

وعندما دحرت الجيوش العباسية الفرق العسكرية الأموية بقيادة مروان واستولت على العراق وبلاد الشام ومصر، وقتلت مروان في بوصير في مصر قضي على الدولة الأموية، وقتل أكثر أفراد الأسرة الأموية، ونبشت قبور حكام تلك الدولة، وأحرقت جثة هشام بن عبد الملك لأنها وجدت كاملة لم تتحلل.

واستولى أبو العباس السفاح على الحكم وعيّن الفارسيّ أبا سلمة الخلال وزيراً له ولقّبه بوزير آل محمد، وهكذا قطفت الأسرة العباسية ثمار كلّ الحركات والثورات التي قام بها الشيعة إبّان حكم بني أمية وبذلوا نجيعهم في سبيل إقامة مجتمع العدل والمساواة والحرية، ولكنهم أخفقوا.

الانشقاق الثاني:

في نهاية الحكم الأمويّ وبداية الحكم العباسيّ كان إمام الشيعة الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وهو الإمام السادس، وقد أصبح إماماً بعد وفاة والده الإمام محمد الباقر عليه السلام وقد تمتّع الإمام جعفر عليه السلام بعلم غزير واسع كالمحيط، وكان العالم الأوّل والأوحد في زمانه وبخاصة في الفقه. وكان حجّة في كل العلوم، ويقال إنه واضع علم الكيمياء، وقد نبغ من تلاميذه في هذا المجال العالم العربيّ جابر بن حيّان، وإليه ينسب علم الكيمياء اليوم، وقد تخرّج على يد الإمام جعفر عليه السلام أكثر من ٤٠٠٠ عالم في الفقه، وكان من تلاميذه أئمّة السنّة الأربعة: أبو حنيفة، والشافعيّ والمالكيّ والحنبليّ: فأبو حنيفة تتلمذ على الإمام جعفر الصادق عليه السلام وتتلمذ على أبي حنيفة مالك، ثم تلقّى الشافعيّ عن مالك، وهكذا الأمر مع أحمد بن حنبل.

ويطيب لي أن أنقل ما كتبه الدكتور مصطفى غالب عن هذه الشخصية الفريدة في تاريخ العرب والإسلام. يقول الدكتور مصطفى:

«وما إن وصلت إمامة الشيعة بموجب النّص الشرعيّ إلى الإمام جعفر الصادق بن محمد ابن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهم السلام حتى التفّ حوله عدد كبير من الشيعة، واعتبروه المؤسّس الحقيقيّ للمدرسة الشيعيّة الدينية والفكرية وواضع أصول المعتقدات الشيعية.

ولا بدّ للباحث في فقه الإسلام على ضوء العقل من التحدّث عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام مفجّر الثقافات الفكرية الإسلامية وعميد المدارس الفلسفية في الإسلام؛ و إذا ما

افتخرت المدنية الغربية بالثقافة الإنسانية للأوائل، فليس علينا إلا أن نرفع رأسنا عالياً مفتخرين بالنزعة الإنسانية التي أوجدها التيار الفكري الإسلامي الذي تغذّى بالتقوى، ووضع أسسها وخطّط لها الإمام جعفر الصادق صاحب أول نداء انبعث من الأعماق لإيقاظ رسالة الإنسان الكاملة في معانيها الدقيقة، وأهدافها السامية النبيلة ولقد جعل الإنسان المحور الذي تدور عليه القيم، والمفسر لمعالم الكون من الوجهة الإنسانية.

يعتبر الإمام الصادق عليه السلام من أعظم الشخصيات العلمية في الإسلام في عصره، وبعد عصره بالرّغم من أن شخصيته العلميّة لا تزال غامضة تحتاج إلى من يفجّر طاقاتها، ويكشف كنهها، ويسبر غورها لأن التاريخ يحتّم علينا أن نرفع القناع عن حقيقة أعظم شخصية علميّة أوجدت مدارس خاصة في الإسلام كان لها تأثير قويّ في التيارات الفكرية الإسلامية.

وقد تخرّج من تلك المدارس فرق عديدة أهمّها: المعتزلة، الصوفية، الجعفرية، الإثنا عشرية.

ومن الملاحظ أن أكثر أحاديث الإمامة تروى عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام وأهمّها ما رواه عن جده الإمام: عليّ بن أبي طالب عليه السلام في كيفية خلق العالم، وكيف انتقل النور من آدم إلى محمد صلى الله عليه وآله ومن ثم انتقل ذلك النور إلى الأئمة المنصوص عليهم من آل البيت.

ويؤكد أكثر العلماء والمؤرخين أن الإمام الصادق عليه السلام هو الذي وضع الفقه المسمّى باسمه - الفقه الجعفري - الذي تسير عليه وبموجبه كافة الفرق الشيعية في العالم». (٦٤)

وقد قيل إن أبا سلمة الخلال عرض الخلافة على الإمام جعفر الصادق عليه السلام قبل أن يسلمها للسفاح فرفض الإمام جعفر عليه السلام عرضه، وقام بعد ذلك بمبايعة السفاح.

انصرف الإمام جعفر عليه السلام إلى شؤون العلم والتدريس ولكن أبا جعفر المنصور الذي خلف السفاح كان يراقب العلويين سراً وعلناً، ويخاف من قيام أئمتهم بحركات ثورية ضدّه وبخاصة بعد أن رفض شقيقان من الأسرة العلويّة مبايعته، وقاما بحركتين ثوريتين ضدّه، والشقيقان هما: محمد بن عبد الله (النفس الزكيّة) وإبراهيم بن عبد الله، وجدهما الإمام الحسن عليه السلام.

قام محمد ذو النفس الزكية بثورته في المدينة المنوّرة في شهر رجب ١٤٥ هـ ٧٦٢م وبايعته المدينة بأكثريتها ولكن عند وصول جيش أبي جعفر إلى المدينة تفرّق عنه عدد من

مبايعيه وبالرّغم من ذلك قاتل بشجاعة نادرة ورفض الاستسلام، وقتل في ١٤ رمضان ١٤٥هـ، وحُزّ رأسه الشريف وأرسل إلى أبي جعفر.

أما أخوه إبراهيم فقد ثار في البصرة واستولى على الأهواز وواسط، وبعد القضاء على أخيه محمد أرسل له أبو جعفر جيشاً كبيراً التقى جيشه في مكان يدعى (باخَمْري)، واستشهد إبراهيم في ٢٥ من ذي القعدة عام ١٤٥هـ.

لقد كان الشقيقان من أفضل الحكام في معاملة الناس إبّان حكمهما القصير، ولكن حظّهما عاثر، و..

كان للإمام جعفر الصادق عليه السلام عدّة أولاد أكبرهم إسماعيل، وقد توفّي في حياة والده، فأحضر الإمام الصادق عليه السلام جمعاً من الشيعة شهدوا موته، ثم سمّى ولده الأصغر موسى إماماً بالنصّ الشرعيّ فصار موسى الإمام السابع بعد وفاة الإمام جعفر الصادق عليه السلام، ولكنّ فريقاً من الشيعة قال: إن الإمام الصادق عليه السلام نصّ أن يتولى ولده الأكبر إسماعيل عليه السلام من بعده، وبما أن إسماعيل قد توفي في حياة والده فيجب أن تنتقل الإمامة إلى ابنه محمّد بن إسماعيل لأن الإمامة لا تكون إلا في الأعقاب، وقد قيل إن محمداً كان لا يزال في بطن أمه حينما توفي والده.

اضطرب أمر الشيعة في حياة الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وانقسموا إلى فريقين:

الأول اتّبع إسماعيل وابنه محمداً بعده وصاروا يلقّبون بالإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام.

والثاني اتبع الإمام السابع موسى الكاظم (لأنه كان يكظم غيظه) وهم جمهور الشيعة، وتابع ولده من بعده.

وهكذا حدث الانشقاق الثاني في الشيعة عام ١٣٨هـ أو عام ١٤٥هـ كما يؤكّد بعض المؤرخين.

يعرف الإمام موسى الكاظم عند أهل العراق بباب الحوايج لأنه ما خاب المتوسّل به في قضاء حاجة قط.

حبسه الحاكم العباسيّ المهدي فرأى في نومه الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام وهو يقول له: «يا محمد، فهل عسيتم أن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم؟».

فأرسل وزيره الربيع ليلاً فأحضره، وعانقه وأخبره بالواقعة وقال له: يا موسى! تعاهدني ألا تخرج عليّ ولا على أحد من ولدي. قال: والله، لا فعلت ذلك ولا هو من شأني. قال: صدقت.

وسأله الرشيد يوماً فقال: يا موسى، لم قلتم إنكم أقرب إلى رسول الله ﷺ منّا؟ فقال له: لو أن رسول الله ﷺ خطب إليك كريمتك هل كنت تجيبه؟ فقال: سبحان الله! وكنت أفتخر بذلك على العجم والعرب. فقال الإمام موسى عليه السلام: لكنه لا يخطب إلي ولا أزوجه لأنه والدنا لا والدكم فلذلك نحن أقرب إليه منكم، ثم قال: وهل كان يجوز له أن يدخل على حرمك وهنّ منكشفات؟ فقال الرشيد: لا. قال الإمام: لكنه كان له أن يدخل على حرمي ويجوز له ذلك، فلذلك نحن أقرب إليه منكم.

وكانت وفاته عليه السلام ١٨٣هـ، فلما توفي أمر الرشيد بوضع نعشه على الجسر ببغداد وينادى عليه: «هذا موسى بن جعفر الذي تزعم الشيعة أنه لا يموت، فانظروا إليه ميتاً». ثم دفن بمقابر قريش. (٦٥)

بعد وفاة الإمام موسى الكاظم أصبح ولده عليّ عليه السلام الإمام الثامن ولقبه (الرضا) والصابر، والزكي، وقد عاصر هارون الرشيد الذي أوصى بولاية العهد إلى ولديه محمد الأمين وعبد الله المأمون، وبعد موته صار الأمين حاكماً للدولة العباسية وقام بعزل المأمون عن ولاية عهده، وذهب المأمون إلى خراسان وتمرّد على أخيه، وأحاط به الفرس ـ لأن أمه كانت فارسية ـ وساعدوه. وقام المأمون بكسب ودّ العلويين، وتقرّب منهم، وجعل الإمام علياً الرضا عليه السلام ولي عهده ليستلم الحكم بعده.

وقد انخرط العلويون في جيش المأمون، وقاتلوا جيش الأمين واحتل جيش المأمون بغداد وقتل الأمين في ٢٥ محرّم عام ١٩٨هـ (٥/ ٩/ ٨١٣م) وصار المأمون في اليوم نفسه حاكماً عباسياً جديداً غير أنه أمر جيشه بطرح السواد شعار العباسيين، ولبس ثياب الخضرة شعار العلويين، وظل ذلك مرعياً حتى سنة ٢٠٤هـ، والمأمون لا يزال مقيماً بخراسان.

ولما سمع أن اهل بغداد خلعوه لأنه جعل ولاية العهد لعلويّ، وجعل شعار العلويين شعاراً له، ولأركان دولته، عند ذلك رحل إلى بغداد يصحبه الإمام علي الرضا عليه السلام.

وفي مدينة (طوس) توفي الإمام الرضا عليه السلام فجأة، واتُّهمَ المأمون بأنه دسّ السمّ له ليتخلّص منه، وليستميل إليه عائلته العباسية التي تمرّدت علَيه، وعيّنت بدله إبراهيم بن

المهدي. وبعض المؤرخين نفى هذه التهمة عن المأمون لأنه كان يفضل الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وقد صاهر الإمام علياً الرضا عليه السلام وليس من المستبعد أن تكون بطانة المأمون هي التي سمّت الإمام الرضا عليه السلام عام ٢٠٣هـ.

روى المؤرخ أحمد بن يوسف القرماني مؤلف كتاب (أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ) وهو ليس من الشيعة، أن رجلاً قال للإمام عليّ الرضا عليه السلام إن امرأتي حامل، فادع الله أن يجعله ذَكَراً. فقال الإمام عليه السلام: هما اثنان. فقال الرجل: أسمّي الواحد محمداً، والآخر علياً، فدعاه الإمام وقال: سمّ واحداً علياً، والآخر أمّ عمرو. يقول الرجل: فولدت لي امرأتي غلاماً وجاريةً فسمّيتهما كما ذكر. وروى الحاكم بإسناده عن أبي حبيب قال: رأيت النبي ﷺ في المنام في مسجد وبين يديه طبق فيه تمر صَيْحانيّ فوقفت بين يديه فقبض لي قبضة من التمر وناولنيها فعددتها فوجدتها ثماني عشرة تمرة فتأولت أنّي أعيش عدّتها، ثم جاء بعد أيام علي الرضا من المدينة فمضيت إليه فإذا هو في الموضع الذي رأيت النبي ﷺ جالساً فيه، والطبق والتمر بين يديه، فناولني قبضة عدّتها كقبضة النبي ﷺ فقلت: زدني، فقال: لو زادك رسول الله ﷺ شيئاً لزدناك.[٦٦]

بعد وفاة الإمام عليّ الرضا عليه السلام صار ولده محمد عليه السلام الإمام التاسع حسب النص الشرعيّ، وقد قرّبه المأمون إليه وزوّجه ابنته وكان الإمام محمد عليه السلام كريماً جداً فلقّب بالجواد، ولكنه لم يعش طويلاً فقد توفي عام ٢٢٠هـ وعمره (٢٥) سنة، وكان العلويون في زمنه مقرّبين من المأمون حتى عام ٢٠٧هـ حينما ثار عليه عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام في اليمن فقضى على ثورته لكنه لم يعاقبه بل أمر العلويين بلبس السواد بدل الخضرة. وقبل موته أوصى المأمون أخاه المعتصم بحسن صحبته للعلويين وتقديم الصّلات والإكرام لهم:

«وهؤلاء بنو عمك أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فأحسن صحبتهم، وتجاوز عن مسيئهم، واقبل من محاسنهم، وصِلاتهم فلا تغفلها في كل سنة عند محلّها فإن حقوقهم تجب من وجوه شتّى».[٦٧]

وقد نفّذ المعتصم الوصيّة ولم يقتل محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين عليه السلام وكان زيدياً وخرج على المعتصم بالطّالقان في خراسان فحاربه عبد الله بن طاهر أمير خراسان وهزمه ولكن أسره وأبقى على حياته غير أنه حبسه في سامرّاء فهرب من الحبس بعد ذلك.

أصبح عليّ بن محمد (عليهما السلام) الإمام العاشر بعد وفاة والده، ولقبه الهادي، وقد عاصر المعتصم والواثق والمتوكّل بن المعتصم، والمتوكّل هذا كان (ناصبياً) يكره **الإمام علياً** بن أبي طالب ﷺ، ويبغض العلويين وآل أبي طالب جميعاً. «وكان يقصد من يبلغه عنه أنه يتولّى علياً وأهله بأخذ المال والدم، وكان فيما يقال يبغض من تقدّمه من الخلفاء المأمون والمعتصم والواثق لمحبة عليّ وأهل بيته، وكان ينادمه ويجالسه جماعة اشتهروا بالنصْب وبغض عليّ فكانوا يخوّفونه من العلويين ويشيرون عليه بإبعادهم والإعراض عنهم، والإساءة إليهم، ثم حسّنوا الوقيعة في أسلافهم الذين يعتقد الناس علوّ منزلتهم في الدين، ومن آثار تلك الكراهية أنه أمر في سنة ٢٣٧هـ بهدم قبر الحسين بن عليّ بكربلاء وهدم ما حوله من المنازل والدور وأن يحرث ويبذر ويسقى موضع قبره، وأن يمنع الناس من إتيانه، فذكر أن عامل صاحب الشرطة نادى في الناحية: «من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة أيام بعثنا به إلى المطبق (السجن)، فهرب الناس، وامتنعوا من المصير إليه، وحرث ذلك الموضع وزرع ما حواليه». (٦٨)

وقال آدم ميتز في كتابه الحضارة الإسلامية: «كان المتوكّل ٢٢٣ ـ ٢٤٧هـ/ ٨٧٤ ـ ٨٦١م، شديد البغض لعليّ ولأهل بيته، حتى من جملة ندمائه رجل يشدّ على بطنه تحت ثيابه مخدّة ويكشف رأسه، وهو أصلع، ويرقص ويقول: قد أقبل الأصلع البطين أمير المؤمنين يعني علياً رضي الله عنه والمتوكل يشرب ويضحك». (عن أبي الفداء)(٦٩)

وقد سعى مبغض لآل البيت بالإمام الهادي ﷺ بأنه يخزّن في بيته سلاحاً وأموالاً وكتباً من شيعته فوجّه إليه من هاجم منزله ليلاً وهو غافل فوجده قائماً يصلي على حصير وعليه جبّة من صوف ولم يجد سلاحاً ولا مالاً ولا كتباً. وأحضر الإمام ﷺ إلى المتوكل وكان يشرب الخمر فأجلسه إلى جانبه وطلب إليه أن يشرب معه الخمرة فرفض واستعفاه من شربها فلم يقسره.

توفّي الإمام عليّ الهادي ﷺ عام ٢٥٤هـ في سامراء وقبل وفاته أوصى لولده الحسن فغدا الإمام الحادي عشر وكان لقبه العسكري لأنه ألزم على الإقامة في سامراء وكانت تعرف بالعسكر، وظلّ مقيماً بها ٢٠ سنة وقبض فيها عام ٢٦٠هـ ومن كراماته: «أصاب البلاد قحط أثناء حكم المعتمد فأمر الناس بالاستسقاء فما زادت السماء إلا صحواً، فخرج بعدهم النصارى والرهبان وكان فيهم راهب كلما مدّ يده إلى السماء هطلت ففُتِنَ به الناس، فأرسل

المعتمد إلى الإمام الحسن عليه السلام أن أدرك أمة جدّك محمد ﷺ قبل أن يرتدوا، وأطلَقَه من الحبس ومن معه، فلمّا رفع الراهب يده أمطرت السماء، وكان في ذلك المشهد الخليفة فمن دونه، فلمّا رفع الراهب يده أمر الحسن عليه السلام بالقبض على يد الراهب فإذا بين أصابعه عظم آدمي فأخذه الحسن عليه السلام ولفّه ودفنه، وقال للراهب: استسق، فانكشفت السماء، فعجب الناس، وقال الخليفة: ما هذا يا أبا محمد؟ قال الإمام: هذا عَظم نبيّ من أنبياء الله ظفر به هذا الراهب، وما كشف من عظم نبيّ تحت السماء إلا هطلت بالمطَر، فامتحنوا ذلك العظم فكان كما قال.

وسأله رجل أن يدعو له بالغنى لفقر مسّه فقال له: أبشر مات ابن عمّك، وخلّف مئة ألف درهم، وعن قريب يأتيك، فورد الخَبر عن قريب والمال معه.[٧٠]

قتل المتوكل بيد ابنه المنتصر عام ٢٤٨هـ فأزال عن العلويين الظلم والتضييق وسمح لهم بزيارة قبر الإمام الحسين عليه السلام، وأنصف رعيّته غير أنه توفي بعد ستة أشهر من حكمه، فتولى الحكم بعده أحمد بن محمد بن المعتصم الملقب بالمستعين الذي في عهده ظهرت للوجود أول دولة للشيعة الزيدية عام ٢٥٠هـ، وقد استمرت هذه الدولة حتى عام ٣٥٥هـ، وكانت منتشرة في إقليمي الريّ، وطبرستان، وتعاقب على حكمها الحسن بن زيد الداعي، ومحمد بن زيد القائم بالحق، والحسن الأطروش بن عليّ بن عمر بن زين العابدين، والحسن ابن القاسم بن عليّ بن عبد الرحمن ومعه أولاد الأطروش.

بعد قبض الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام أصبح إمام الشيعة الإمام محمد بن الحسن العسكريّ عليه السلام وهو الإمام الثاني عشر ولقبه المهديّ، وبعد ست سنوات من إمامته غاب عن الأنظار، وكانت غيبته في مدينة سامراء عام ٢٦٦هـ. وعند الشيعة عموماً اعتقاد وإيمان بأنه حيّ وسيعود إلى الظهور ويملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً، وسيكون يوم ظهوره في عاشوراء في مكّة ومنها ينتقل إلى الكوفة.

الانشقاق الثالث:

وبغيبة الإمام المهديّ عليه السلام حدث الانشقاق الثالث في الشيعة بسبب الخلاف حول مهمة الباب السيد محمد بن نصير العبديّ البكريّ النميريّ. فقد كان رأي قسم من الشيعة أنّ مهمته الدينية قد انتهت بغياب الإمام محمد المهدي عليه السلام. ويجب أن يتوقف عن كل نشاط

ديني، وهؤلاء كان لهم قيادات دينية كانت تزاحم السيد محمد بن نصير على مركزه الذي هو (الباب) ومنهم الشلمغاني بن أبي العزافر والسريعي، ومن المحتمل أن يكون الحسين بن منصور الحلاج منهم، لأن الحلاج هذا انتقل من مبدأ إلى مبدأ - ومنهم إسحق الأحمر أيضاً.

أما الفئة التي التزمت بابيّة أبي شعيب محمد بن نصير النميري، فقد أصرت على استمراريته في مركزه لأن الشيعة يجب أن يظل لهم مرجع دينيّ كبير يرجعون إليه في أمورهم الدينية بعد غياب الإمام المهدي المنتظر عليه السلام وبما أن أبا شعيب كان باباً لإمامين وقد ثقف علومه من الأئمة السابقين ومن إمام عصره فهو الجدير بقيادة الشيعة بعد غيبة الإمام المهديّ عليه السلام.

ولتوضيح أهمية الباب نقول: «إن الإمام كان يختار رجلاً عالماً فاضلاً، يتحلّى بالأخلاق الرفيعة والمزايا الحميدة يأخذ عنه العلم، ويكون واسطة بينه وبين شيعته ويبلغ عنه، وينقل تعليماته ونواهيه، ويحدث عنه بالعلوم التي اجتناها ولقفها منه هذا الرجل الثقة الأمين المحب المتفاني في الإخلاص والفداء كان يطلق عليه لقب (الباب) وهذه التسمية مأخوذة من قول الرسول ﷺ: «أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها، فمن أراد العلم فليأت الباب». (٧١) فكان لكلّ إمامٍ من الأئمّة بابه. وبهذا الانقسام الجديد أصبحت الشيعة أربعَ فرق:

١ - **الفرقة الزيدية وإمامها المعظم عندها:** زيد بن علي بن الحسن عليه السلام، وقد استطاعت هذه الفرقة تأسيس أول دولة شيعية زيدية في طبرستان أثناء حدوث الانشقاق الثالث للشيعة، وهي تؤمن باستمرار الإمامة.

٢ - **الفرقة الإسماعيلية** وإمامها إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وتولّت بعده ابنه محمداً المكتوم وسارت على تعاليم خاصة، ومزجت بين العلم والعقل، واتبعت التنظيم السري الشديد في بثّ دعوتها، وكان مركز الدعوة ومركز الإمامة في مدينة (سلمية) القريبة من مدينة حماة السورية، وكانت أثناء الانشقاق الثالث في طور الانتشار، وتؤمن باستمرار الإمامة إلى يوم الإقامة.

٣ - **الفرقة الشيعية:** التي تعظم شأن **الإمام عليّ** عليه السلام وتؤمن باثني عشر إماماً، وتقف عند الإمام محمد المهدي القائم المنتظر القائم بالحجّة عليه السلام وكان أفرادها ينتشرون في بقاع الدولة العباسية وبخاصة في العراق وبلاد الشام وخراسان، ويختلفون عن العلويين ببابية أبي شعيب.

٤ ـ **الفرقة العلوية:** التي تعظم شأن الإمام المرتضى عليّ بن أبي طالب عليه السلام إمام الأئمة، وإمام الشيعة جميعها، وتؤمن باثني عشر إماماً وتتوقّف عند الإمام محمد الإمام المهدي المنتظر عليه السلام، ولكنها ترى أن أبا شعيب محمداً بن نصير النميريّ هو المسؤول عن الشؤون الدينية بعد غيبة الإمام الثاني عشر، وهو المرجع الوحيد لهذه الفرقة التي يأخذ بشأنها لتظلّ سائرة على طريق الهدى والحق.

على هذا النحو برزت الطائفة العلوية فرقة من فرق الشيعة يقودها (الباب) أبو شعيب محمد بن نصير النميريّ بعلمه الغزير وقيادته السمحة، وزهده وتقشّفه وفقهه في الدين، وشدّة حبه للإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام وموالاته لأهل البيت الكرام. وقد اتّبع التنظيم السري في نشر الدعوة العلوية وكوّن التلاميذ والأتباع في مناطق متعدّدة من الدولة العباسية، ولكنه ركز بشكل كبير على العراق وبلاد الشام ومصر.

نَفَسَ على أبي شعيب علمه وقيادته المدعو إسحق الأحمر فجحد بابيته وزعامته للعلويين، وأصبح خصماً معارضاً معانداً منافقاً يتلفّظ بألفاظ الإيمان ولكنه يبطن الكفر فطرد من بين صفوف العلويين ونعت بأنه: «عنصر الشيطان، ومعدن الكفر والطغيان». [٧٣]

قبل موته سلّم أبو شعيب محمد بن نصير النميريّ مرجعيَّةَ العلويين وقيادتهم إلى السيد أبي محمد عبد الله بن محمد الجنّان الجنبلانيّ الذي كان مقيماً ببلدة (جَنْبُلا) وموقعها في العراق بين واسط والكوفة. ولد عام ٢٣٥هـ ونشأ محباً للعلم فثقف علوم عصره فأصبح عالماً علامة، صاحب فلسفة فتكلّم عن الهيئة والاستقصاء والكور والدور والنجوم، وطعن على المنجّمين، وتكلّم عن الأفلاك والدائرة والنقطة في كتاب له يدعى (إيضاح المصباح) وُصف كتابه بأنه لم يكن أبلغ منه بياناً.

وإلى جانب علمه كان عابداً زاهداً ممّا رشّحه لأن يكون خليفة للسيد محمد بن نصير النميري فتولى رئاسة العلويين وأصبح شيخهم فقام برحلات إلى مصر وغيرها لبثّ الدعوة واكتساب الأنصار والتلاميذ. وفي (جنبلا) التقى الخصيبي فضمّه إلى الدعوة ثم اختاره ليخلفه في رئاستها، وضمّ إلى جانب الخصيبيّ رجالاً امتازوا بقراءة القرآن الكريم وشرحه، وكتابة كتب في التفسير والفقه.

وممّا لفت نظري في سيرتهم أنهم كانوا حجّاجاً إلى بيت الله الحرام، وبعضهم حجّ إلى القدس.

انتقلت رئاسة العلويين بعد وفاة الجنبلاني عام ٢٨٧هـ إلى تلميذه المقرّب والعالم الفقيه السيد أبي عبد الله الحسين بن حمدان الخصيبي الذي ولد عام ٢٦٠هـ في مصر، وقد شبّ على حبّ العلم والدين فحفظ القرآن الكريم وهو ابن إحدى عشرة سنة، وحجّ وعمره خمس عشرة سنة، وحجب بصره وعمره عشرون سنة، وكان لا يبصر إلا ما يقرؤه. (٧٤)

وقد سافر إلى (جنبلا) برفقة أبيه وعمّه أحمد بن الخصيب، والتقى الجنّان الجنبلاني شيخ الدعوة وتتلمذ له، ثم خلفه بعد موته في رئاسة العلويين الدينية، وانتقل إلى بغداد فدمشق، واستقرّ أخيراً في حلب، إلى أن توفي فيها، وقبره اليوم في شماليّها يزار، وهو معروف لدى الحلبيين بمزار الشيخ (يبرق) أو براق.

وقد ألّف كتباً في مذهب العلويين أعظمها وأهمّها كتاب (الهداية الكبرى) يتضمّن فضائل النبي ﷺ وفضائل الأئمة الأطهار عليهم السلام، وله كتاب (أسماء النبي ص)، وأسماء الأئمة ع)، والإخوان، والمائدة.

وقدّم كتابي (الهداية الكبرى والمائدة) للأمير الحمدانيّ سيف الدولة. (٧٥)

ويورد المستشرق بروكلمان في كتابه تاريخ الأدب العربي أن الخصيبيّ كان يؤمّ سيف الدولة في الصلاة، وكان قيّماً لمكتبته الكبيرة.

يعتبر الخصيبي شيخ العلويين الأكبر لأنه كان رئيساً عالماً، وداعية منظماً، قوياً، كبيراً، صاحب حجّة وإقناع، استطاع بقدرته العلمية، وحجته العقلية أن يستميل الحكام والرؤساء والولاة إلى المذهب العلوي مما ساعد على تكاثر العلويين وانتشارهم في كل بقاع الأرض.

وله الفخر أنه استطاع ضم سيف الدولة الحمداني إلى صفوف العلويين، وكذلك رؤساء بني بويه الذين حكموا بشكل فعلي الدولة العباسية أكثر من مئة عام، وبدر بن عمّار والي طبرية، وهو ممّن مدحهم المتنبي، ثم ضمّ غيرهم كثيرين، وسنتعرض لترجمة بعضهم، وإذا كان السادة القادة للعلويين قد اتّبعوا التنظيم السري لنشر التعاليم وجذب الأتباع وتكتّموا في بعض المسائل الإسلامية (فجميع طرق التصوف في الإسلام تقول بضرورة كتمان بعض المعلومات الدينية عن غير مستحقيها)(٧٥ مكرر)، والعلويون أتباع طريقة من طرق التصوف في الإسلام.

المراجع

٦٣ ـ نهج البلاغة ج٣ ص٢٨٦ ـ ٢٨٧ .

٦٤ ـ الحركات الباطنية في الإسلام ص٥٠ ـ ٥٢ .

٦٥ ـ كتاب أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ص١١٣ .

٦٦ ـ كتاب أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ص١١٤ .

٦٧ ـ كتاب الدولة العباسية ص١٩٠ .

٦٨ ـ كتاب الدولة العباسية ص٢٥٩ .

٦٩ ـ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج١ ص١٢٨ .

٧٠ ـ كتاب أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ص١١٧ .

٧١ ـ كتاب المراجعات ص١٦٦ .

٧٢ ـ تاريخ العلويين للطويل ص٢٥٤ ـ ٢٥٥ .

٧٣ ـ مؤلفات الشيخ حسين أحمد (مخطوط) .

٧٤ ـ خير الصنيعة ج١ ص١٥٣ .

٧٥ ـ الأعلام ج٢ .

٧٥ مكرر : تاريخ العلويين نقد وتقريظ الشيخ عبد الرحمن الخيّر ص٢٧ .

الفصل الثامن

تكاثر العلويين وانتشارهم

يعتبر القرن الرابع الهجري منذ بداية القرن الذهبيّ للعلويين، ففيه لقيت دعوتهم الاستجابة في النفوس في كل مكان من الدولة العباسية المترامية الأطراف.

وانتشروا في المدن والأمصار والأرياف والجبال، وعلى سواحل البحار، واعتنق مذهبهم الحكّام والولاة والأدباء والكتاب والشعراء، وكثير من عامّة الناس وبخاصة في بلاد الشام لوجود الخصيبي في حلب، وتفرّق تلاميذه ودعاته في كل مكان وصقع، في الشرق والغرب وفي الشمال والجنوب، في أفريقيا ومصر، في طبرية، في صيدا، في صور، في دمشق، وحمص، وحماة، وحلب، وأنطاكيّة واللاذقية، وعانة، وبغداد، وفي المشرق حتى الصين. ولنا أن نتساءل: كيف قيّض لهذه الدعوة الانتشار بعد كبت وانكسار، ومحاربة، ومقاومة بلغت إلى الفتك بالنفوس، وتعليق الأجساد والرؤوس على عيدان الصلب فوق الجسور وعلى مفترق الطرق؟

إن الدولة العباسية بعد مرور مئة عام على قيامها، وبعد موت الحكام الأوائل الأقوياء بدأت تميل إلى الضعف بعد القوة، واستلم الحكم حكّام صاروا ألعوبة بيد قوّاد الجيش من الأتراك والأجانب الذين استعان بهم المعتصم ليحدّ من نفوذ القوّاد العرب، وقد شجّعته على هذا الأمر أمّه التركية، وقد دقّ بذلك الإسفين الأول في نفس دولة آبائه وأجداده وأصبح قواد الجيش من الأتراك يخلعون خلفاء الدولة إذا لم يستطيعوا إرضاء نزواتهم وشهواتهم وسيطرتهم المتلفعة بالتقلّب والمزاجية وسوء الطويّة.

وقد أنهك الدولة قيام الثورات المتعاقبة التي قام بها الشيعة في عدة أطراف من أجزائها، فمنذ قيام هذه الدولة والشيعة تحاربها وتسعى للقضاء عليها لأن الشيعة اعتبروا العباسيين مغتصبين لحق العلويين في الحكم.

وقد عامل العباسيون العلويين بقسوة بالغة تجاوزت قسوة الأمويين وبخاصة من قبل الحكام الأوائل مثل أبي جعفر المنصور، والرشيد، والمتوكل فقال شاعر شيعيّ:

يا لـــيتَ جَورَ بني مـــروان دام لـــنا   يا ليتَ عدلَ بني العباسِ في النار

وكنا قد ذكرنا قيام ثورتين بقيادة علويين شقيقين هما : محمد بن عبد الله (النفس الزكية) وإبراهيم بن عبد الله، ضد أبي جعفر المنصور في عام ١٤٥هـ، وقد قضى أبو جعفر على الثورتين بلا شفقة ولا رحمة. وفي عام ١٦٩ هـ أثناء حكم المهدي خرج الحسين بن علي بن الحسن المثلث في المدينة، والتقى جيشه جيش المهدي في مكان يدعى (فخّ)، واستشهد الحسين، ولكن فرّ من الموقعة رجلان من آل البيت استطاعا تأسيس دولتين إحداهما في المغرب، ودعيت دولة الأدارسة بقيادة مؤسسها إدريس بن عبد الله الحسن بن عليّ أخي محمد النفس الزكية، واستمرّت من ١٧٢هـ أثناء حكم الرشيد القوي.

أما الدولة الثانية فكانت بقيادة مؤسّسها عبد الرحمن بن عبد الله وهو أخو إدريس، وقامت في المشرق، في بلاد الديلم، لكنها لم تستمر طويلاً لأن هارون الرشيد استطاع إقناع يحيى بالتخلّي عن دولته والعودة إلى بغداد ليعيش تحت رقابته.

وفي عام ٢٠٧هـ خرج باليمن من آل البيت عبد الرحمن بن عبد الله لكنه لم يستقل باليمن لأن المأمون سيّر إليه جيشاً وعرض عليه الصلح فأجاب وتخلّى عن ثورته.

ونتيجة لسياسة المأمون المتسامحة قامت ثورات متعددة في أطراف الدولة الشرقية وكانت ثورات عرقية تدعو للانفصال عن جسم الدولة، ولم يكن للعلويين فيها شأن.

وقد أسست دول في المشرق بقيادة قواد أو ولاة تابعين للدولة العباسية، أو متمردين ذوي نزعات دينية وثنية فقامت الدولة الطاهرية في خراسان إبّان حكم المأمون، ثم قامت الدولة الصفارية بزعامة يعقوب بن الليث الصفّار (صانع النحاس) في منتصف القرن الثالث الهجري في سجستان وقضى عليها السامانيون وأسسوا دولة لهم عام ٢٨٧هـ.

وقامت الدولة الزيدية في طبرستان عام ٢٥٠هـ، وهي دولة شيعية، ثم ظهرت إلى الوجود الدولة الفاطمية عام ٢٨٦هـ، وهي دولة الإسماعيليين الذين استطاعوا نشر مبادئهم بطريقة سريّة عبقرية منظمة، نشروها في أفريقيا بين البربر وأقاموا دولتهم في المغرب والجزائر وتونس وليبيا وأعلنوا قيام الخلافة الفاطمية، وبنوا مدينة المهدية في تونس عاصمة لهم، ثم زحفوا على مصر واحتلوها عام ٣٥٨هـ، ونقلوا حكمهم إليها، وشيّدوا مدينة القاهرة عام ٣٥٩هـ وجعلوها عاصمة لحكمهم، ثم توسعوا شمالاً فاحتلوا بلاد الشام والحجاز

واليمن وحصروا العباسيين في رقعة ضيّقة من العراق وخراسان، وأصبحت الدولة الفاطمية تمتد من أفريقيا إلى أعالي الفرات.

وعانت الدولة العباسية من ثورات الزنج عام ٢٥٢هـ، والقرامطة عام ٢٧٨هـ، وقيام إمارات الحمدانيين في الموصل وميافارقين، وديار بكر في مطلع القرن الرابع الهجري، وتأسيس إمارة حلب من قبل سيف الدولة الحمداني عام ٣٣٣هـ.

وفي عام ٣٣٤هـ في ١١ جمادى الأولى استلم (بنو بويه) الشيعة الحكم في بغداد، بعد طلب من قواد بغداد والخليفة العباسي المكتفي الذي عيّن كبير الأخوة أحمد وزيراً مطلقاً يتحكم في كل شيء وحتى في مصير الخلفاء، وأطلق عليه لقب (معزّ الدولة) وعلى أخيه الحسن لقب (ركن الدولة) وعلى (علي) لقب (عماد الدولة) وأصبح البويهيون حكاماً للعراق وفارس والريّ والجبل.

وهكذا صار الحكام في المغرب والمشرق والعراق وبلاد الشام (شيعة)، وأصبح الشعب الذي يحكمه هؤلاء الحكام بغالبيته من الشيعة، والناس على دين ملوكهم.

وانتشر التشيّع كموج زاخر بعد انحسار وجزر استمرا أكثر من ٢٥٠ عاماً بعد مقتل الإمام علي عليه السلام.

في هذا الجو الشيعيّ المحض بدأ العلويون يتكاثرون وينتشرون بتأثير دعاة مدرّبين منظّمين يستندون إلى دعم حكّام علويين لهم اليد العليا في مقاطعاتهم وأقاليمهم. يقول مؤلّف علويّ في وصف العلويين في هذا القرن:

«ولقد زها لهم العصر، ولاحت لهم أعلام النصر سنة ٣٤٠هـ، وكان الغالب على الملوك كلمة التوحيد (العلويون هم أهل التوحيد وبهذا يعرفون)، وكان أبو الحسن رايق بن الخضر الغساني ممن مَلَك طبرية وطرابلس وما يلي تلك الجهات، والنواحي، ملكها بعده ولده محمد بن رايق في زمن الأمير سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان العدوي سنة ٣٤٧هـ صاحب حلب.

وفي ذلك الوقت كان بدر بن عمار والياً على طرابلس من قبل محمد المذكور، وكان الحسين بن إسحق التنوخي يومئذ صاحب اللاذقية سنة ٣٥٣هـ، وكان أبو العشائر الحمداني العدوي التغلبيّ «من بني حمدان الخصيبي». [٧٦].

وماذا في بغداد؟ في سنة ٣٥١هـ معز الدولة البويهي يكتب على المساجد لعن معاوية، وفي ٣٥٢هـ أمر في العاشر من (محرّم) بإغلاق الدكاكين، وإبطال البيع والشراء في الأسواق، وأمر الناس أن يظهروا النياحة، ويلبسوا قباباً عملوها بالمسوح، وأن تخرج النساء منشورات الشعور مسودات الوجوه، وقد شققن ثيابهنّ، يدرن في البلد بالنوائح ويلطمن وجوههن على الحسين عليه السلام ففعل الناس ذلك ولم يكن للسنّية قدرة على المنع لكثرة الشيعة ولأن السلطان معهم.

وفي ثامن عشر ذي الحجة أمر معز الدولة بإظهار الزينة في البلد، وأشعلت النيران بمجلس الشرطة، وأظهر الفرح، وفتحت الأسواق بالليل كما يفعل ليالي الأعياد، فعل ذلك احتفالاً بعيد (الغدير) يعني غدير خم الموضع الذي يروى أن رسول الله ﷺ قال فيه: «من كنت مولاه فعليٌ مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه» وضربت الدبادب والبوقات، وكان يوماً مشهوداً. (٧٧)

الدعوة بعد وفاة الخصيبي:

مات الخصيبيّ عام ٣٤٦هـ والدعوة في أوجها، والتلاميذ الدعاة يجولون الأمصار والمدن لكسب الأتباع، وبالرغم من أن الدعوة سرية فقد برز قواد وكتاب وشعراء يعلنون عن علويتهم مثل: معز الدولة البويهي وأخويه.

وبتأثير الثقل العلوي للبويهيين صار في بغداد مركز للدعوة يتزعمه الشيخ: علي الجسريّ، وظلّ المركز الرئيس في حلب، ويشرف عليه الشيخ محمد بن علي الجلّيّ.

١ ـ الشيخ علي بن عيسى الجسري: أبو الحسن، عراقيّ، عالم، فقيه، راوية، محدّث، مؤلف؛ ألف عدّة كتب ورسائل وكان عمله الإشراف على جسور بغداد لذلك لقب بالجسريّ.

حجّ عشرين مرّة. (٧٨)

٢ ـ محمد بن علي الجلّيّ: أبو الحسن، ولد عام ٣٣٠هـ، عالم، فقيه، حجّ قبل أن يبلغ الحلم، مرتين، وحجّ مرة ثالثة وهو في الثالثة والعشرين، مؤلّف قدير، شاعر ولم يصل من شعره إلا القليل، اختاره الخصيبيّ ليكون خليفة له في رئاسة الدعوة، بثّ الدعاة وأشرف على شؤون العلويين، مات سيف الدولة الحمدانيّ أثناء رئاسته للدعوة، توفيّ عام ٣٩٩هـ. (٧٩)

خلفه في رئاسة الدعوة سرور بن القاسم الطَبراني الملقب بالميمون.

ولد في طبريا بفلسطين ولذلك نسب إليها، وكانت ولادته عام ٣٥٨هـ ٩٦٩م. ثم انتقل إلى حلب فتفقّه بفقه العلويين أصحاب الخصيبيّ والجنبلانيّ، وصنّف كتباً في المذهب، ثم رحل إلى مدينة اللاذقية، والتفّ حوله من فيها منهم، وأصبح شيخاً للطريقة ورئيساً إلى أن توفي، وقبره اليوم في مسجد الشعراني على شاطئ البحر. (٨٠)

وكان عالماً، لسناً، فيلسوفاً، متورّعاً، متزهداً في الدنيا، دأبه العلم والمعارف، وهو شاعر، حافظ للقرآن الكريم، ألّف عشرين كتاباً، غزير الإنتاج، ومجادل مفحم للخصوم، ظهر في زمانه رجل اسمه إسماعيل بن خلاّد، ولقبه أبو ذهيبة، كان يؤمن بمذهب التفويض، وقد ناظره الطبراني وتفوّق عليه، وألف كتاباً يشرح فيه ردّه على أبي ذهيبة.

اشتهر الطبراني بلقب الشاب الثقة، توفي عام ٤٢٧هـ - ١٠٣٦م. ولنا أن نسأل: لم انتقل مركز الدعوة من حلب إلى اللاذقية؟ هل لموت سيف الدولة عام ٣٥٦هـ وتلاشي دولته بعد موته علاقة بذلك؟ وهل لاستيلاء الفاطميين على بلاد الشام علاقة بذلك أيضاً؟ أم أن رجال الدعوة رأوا أن وجود مركز الدعوة في اللاذقية وجبالها المكتظة بالعلويين فقط أقوى وأكثر اطمئناناً ومحافظة على الدعوة ورجالاتها وشيوخها في محيط كله من العلويين؟ ولربّما كان السبب كثرة الغارات التي شنّها الروم على حلب بعد موت سيف الدولة وقتل وسبي من فيها.

لا شك أنه حدث ارتداد باتّجاه المذهب الإسماعيلي بتأثير الفاطميين ودعاتهم، وقدرتهم على جذب الأتباع بالمناصب والأموال، وشتّى الإغراءات.

علماء وأدباء وكتّاب وشعراء وحكّام علويّون

من القرن الرابع الهجري:

من الملفت للنظر والمثير للاهتمام وجود عدد كبير من الفئة المثقفة بين صفوف العلويين في هذا القرن وبخاصة في الطبقة القيادية، ويثير الانتباه وجود فئة من القرّاء التي تحفظ القرآن الكريم وتُعلّمه، وقامت بالحجّ إلى بيت الله الحرام مرّات ومرّات، ثم وجود نخبة من الحكّام، قوية الشكيمة بارعة في مجال الحرب، مدبّرة في شؤون السلم، قوية الجسم شجاعة النفس، ملتزمة بالأمور الدينية، بل نستطيع القول: إنها حافظة للدين والدنيا.

لفت انتباهي من القرّاء : أبو الحسن عليّ الطوسي الكبير الذي قرأ القرآن الكريم بالقراءات السبع ، وحج إلى بيت الله الحرام ، وصنّف كتاباً في علم النجوم والفلك ، ومات بالنجف الأشرف .

ثم المؤرخ أبو الحسن العسليّ ، قرأ القرآن الكريم وكان فقيهاً وتُوفّي وهو يصلّي ، ثم أبو الجارود المحدّث الذي كان فقيهاً ومن ثقاة المحدّثين . وأبو إسماعيل بن القاسم الفقيه الذي أسلم على يديه عدة أشخاص . وأبو القاسم بن علي القوساني الذي كان عالماً حافظاً للقرآن الكريم ، حجّ إلى بيت الله الحرام ، وإلى القدس الشريف . ويونس البديعيّ من دمشق ، شرح القرآن الكريم ، وحجّ مصطحباً معه ثمانية أشخاص أنفق عليهم من ماله . وأبو حمزة الكتّاني من دمشق ، كان شجاعاً ، محجاجاً للمسيحيين واليهود ، حافظاً للقرآن الكريم بقراءاته السبع ، نحْوياً ، حجّ ومات في حمص . وإينال المتطيّب ، كان ذميّاً فرأى رسول الله ﷺ في المنام يعلمه القرآن فأصبح وقد حفظه فأسلم هو وذريته في حماة وأسلم على يده خلق كثير . وأبو الطيّب المنشد ، كان حسن الصوت ينشد معجزات رسول الله ﷺ فأسلم على يده خلق كثير من اليهود والمسيحيين لحسن صوته ؛ حجّ معه عشرة رجال على نفقته الخاصة .(٨١)

ومما لفت نظري أيضاً موقف اليهود من الدّعوة فقد حاربوها بكل قواهم ، وإذا أسلم يهوديّ بواسطة علويّ فإنهم كانوا يعمدون إلى المكر للقضاء على علويّ معروف بقراءة القرآن الكريم ومتمسّك بالإسلام الحنيف .

وكانوا يعمدون إلى السمّ للتخلّص من العلويين أو إلى وضع الزئبق في الأذن .

فهذا أبو محمد النهاوندي ، الشريف ، العراقي ، المطّلع على جلّ العلوم «وقد قرأ التوراة واستخرج رموزها وأظهرها ، واستخرج اسم النبيّ محمد (ص) ، وخبر ما بُدّل منها أو حرّف ، فاجتمع عليه ملأ من اليهود ، وأظهروا صحبته ، واجتمع يوماً معهم في أحد الأعياد ، فمكروا به ، وزيّنوا له النوم عندهم ، وعندما نام وضعوا في أذنه زئبقاً فلم يعد يسمع . وكان ذلك بهمذان ، فعلم ذلك صاحب المدينة فأخذهم جميعاً ، وكانوا اثنين وعشرين رجلاً ، فعاقبهم بأنواع العذاب فأقرّوا بذنبهم ، فصلبهم من يومهم ، كلّ واحد على باب داره ؛ وأرسل رئيس الأطباء وكان متشيّعاً ، فحضر وعالج النهاوندي ، وانتزع الزّئبق من أذنه فشفي ولكنه عجز عن القراءة والكتابة .(٨٢)

وهذا أبو الحسن محمد الكوفيّ من العراق يجمع كل آية نزلت في حقّ اليهود فلمّا سمعوا بعمله مكروا به ودعوه ليطعم معهم، فأطعموه وسقوه شراباً فمات عندهم، فعلم بهم المستضيء بأمر الله فأحضرهم، وأقرّوا بفعلتهم فقتلهم، وكانوا ثلاثة وعشرين رجلاً. [٨٢]

لكنّ علوياً من الشام يجادله أحد اليهود في رسول الله ﷺ بأنه ليس بنبيّ صدق، فقتله العلوي. [٨٣]

ولا أستطيع سرد أسماء الحافظين للقرآن الكريم والحاجّين لبيت الله الحرام لكثرتهم، ولكني أذكر لَكَ أن أبا الحسن العسكري العراقيّ حفظ القرآن الكريم، وحج أربعين حجّة، وكان ممن شاهد الإمام الحسن العسكري عليه السلام وعُمّر خمساً وتسعين سنة.

أما الشعراء والأدباء فعددهم كثير وقد اقتصرت على ذكر عدد منهم:

آ. الشعراء:

- السّريّ بن احمد الكندي المعروف بالسّريّ الرفّاء: من شعراء القرن الرابع الهجري. قال فيه الثعالبي مؤلف كتاب (يتيمة الدهر): السري، وما أدراك ما السري، صاحب الشعر، الجامع بين نظم عقود الدرّ، والنفث في عقد السّحر ولله درّهُ!.. ما أعذب بحرَه!.. وأصفى قطرَه!.. وأعجب أمرَه!.. وكان في أول أمره يرفو (يخيط) ويطرّز الثياب، ثم نبغ بالشعر وقصد سيف الدولة في حلب ومدحه، ومنذ ذلك طار صيته في كل مكان وسار شعره في الآفاق. ومن شعره الذي يكتب على جبهة الدهر، ويعلّق في كعبة الفكر الذي كتب منه الثعالبي محاسن وملحاً، وبدائع وطرفاً كأنها أطواق الحمام وصدور البزاة البيض، وأجنحة الطواويس، وسوالف الغزلان، ونهود العذارى الحسان، وغمزات الحدق الملاح.

من شعره في مدح سيف الدولة:

لله سيف! تمنّى السيف شيمتَه ... ودولةٌ حَسَدَتها فخرَها الدولُ
وعاشق خيلاءَ الخيل مبتذل ... نفساً تُصان المعالي حين تُبتذل
أشمّ تبدي الحصونُ الشمّ طاعتَه ... خوفاً ويسلم مَن فيها ويرتحل
تشوقه ورماحُ الخطّ مشرعةٌ ... نجلُ الجراح بها لا الأعين النجل

كأنه وهجير الـرّوع يـلفحـــه نشـوانُ مدّ عليه ظلّه الأسلُ
فالصّافنات حشايــاه وإن قــلقت والسابغات وإن أوهت ، له حلل

وقال يذكر أيّام الصّبا ومواطن الهوى :

أسلاسلَ البرق الذي لَحَظ الثـرى وَهْناً فوشّحَ روضَه بسلاسل
أذكرتنا النشوات فـي ظـلّ الصبا والعيش في سنة الزمان الغافل
أيــام أستـر صَبوتي مـن كاشـح عمداً وأسرق لذتي من عاذل[84]

- أبو بكر محمد بن أحمد المعروف بالخبّاز البلدي : من شعراء القرن الرابع الهجري ، من بلدة يقال لها (بلد) قرب الموصل ، وأبو بكر من حسناتها ، ومن عجيب شأنه أنه كان أميّاً ، وشعره كله ملح وتحف ، وغرر وطرف ، ولا تخلو له مقطوعة من معنى حسن ، أو مثل سائر وكان حافظاً للقرآن الكريم مقتبساً منه في شعره كقوله :

كأن يميني حين حــاولت بسطها لتوديع إلفي والهوى يذرف الدمعا
يمين ابن عمران وقد حــاول العصا وقد جعلت تلك «العصا حية تسعى»
وقائلة هل تملكُ الصبر بعدهــم ؟ فقلت لها لا ، «والذي أخرج المرعى»

ويقولُ :

ســار الحبيـــب وخلّف القلبا يبدي العزاء ويضمر الكربا
قــد قلت إذ ســار السّفين بهــم والشوق ينهب مهجتي نهبا
لـــو أن لـــي عزّاً أصـــول به «لأخذت كلّ سفينة غصبا»

وكان يتشيّع ويتمثل في شعره بما يدل على مذهبه كقوله :

وحمائـــم نبّهننــــي والليل داجي المشرقينْ
شبّهتهـــنّ وقــد بكيـــن ومــا ذرفــن دمــوع عــينْ
بنســــاء آل محمـــد لـما بكينَ على الحسينْ

وكقوله :

جحـدت ولاء مــولانا عــليّ وقدّمت الدّعيَّ على الوصيّ
متى ما قلـت إن السيـف أمضـى من اللحظات في قلب الشجيّ

لقد فعلت جفونك في البرايا كفعل يزيد في آل النبيّ

وكقوله:

أنا إن رمتُ سلوآ عنك يا قرّة عيني
كنتُ في الإثم كمن شارك في قتل الحسين
لك صولاتٌ على قلبي بقدّ كالردّيني
مثل صولات عليٍّ يوم بدرٍ وحنين

وكقوله:

أنا في قبضة الغرام رهينُ بين سيفين أرهفا ورديني
وكأن الهوى فتىً علويٌّ ظنّ أنّي وليت قتلَ الحسين
وكأني (يزيد) بين يديه فهو يختار أوجع القتلتين

وكقوله:

انظر إليّ بعين الصفح عن زلّلي لا تتركنّيَ من ذنبي على وَجَلِ
هذا فؤادي لم يملكه غيركمُ إلا الوصيّ أمير المؤمنين علي(٨٥)

ب. الأدباء والكتّاب:

- أبو محمد عبد الله بن عمرو بن محمد الفيّاض: كاتب سيف الدولة ونديمه، معروف ببعد المدى في مضمار الأدب وحلبة الكتابة، أخذ بطرفي النظم والنثر، وكان سيف الدولة لا يؤثر عليه في السّفارة إلى الحضرة أحداً لحسن عبارته وقوة بيانه ونفاذه في استغراق الأغراض، وتحصيل المراد، ومن ملح شعره قوله، ولم أسمع في معناه أحسن منه:

قم فاسقني بين خفق الناي والعود ولا تبعْ طيبَ موجودٍ بمفقودِ
كأساً إذا أبصرت في القوم محتشماً قال السرور له: قم غير مطرود
نحن الشهود وخفق العود خاطبنا نزوّج ابن سحابٍ بنت عقود(٨٦)

ـ أبو ذرّ أستاذ سيف الدولة :

حجّ معه تسعة رجال على نفقته ، ومن شعره :

نفسي الفداء لمن عصيتُ عواذلـــي	في حبّه لم أخش من رقبائه
الشّمس تطلع في أسرّة وجـــــهه	والبدر يطلع من خلال قبائه[٨٧]

ـ النحوي اللغوي المعروف عثمان بن جنيّ :

هو القطب في لسان العرب ، وإليه انتهت الرّياسة في الأدب ، وصحب أبا الطيّب المتنبي دهراً طويلاً وشرح شعره ، ونبّه على معانيه وإعرابه ، وكان الشّعر أقلّ خلاله لعظم قدره ، وارتفاع حاله .[٨٨]

لابن جني كتاب (الخصائص) وهو مرجع قيّم في النحو والصرف .

ـ يزيد بن شعبة الحرّانيّ : أديب ، مؤلّف ، كان كثير الأسفار . دعا إلى العلويين في جبال اليمن ، وصار له أتباع ، وانتقل إلى بلاد الشام وتوفيّ في مدينة حماة .

ـ حمزة بن عليّ بن شعبة الحرّاني :

العالم الفيلسوف ، وهذه الأسرة معروفة لدى العلويين بعلمها الغزير ، وصدق إيمانها بالدّين الإسلامي الحنيف ، وكثرة تأليفها في الفقه وشرح القرآن الكريم ، وقال الشيخ حسين ميهوب حرفوش في هذه الأسرة : لم يسبق بني شعبة ولا يجاريهم أحد بمضمار العلم ، منها خصوصاً حمزة بن علي بن شعبة ، وله كتاب مطبوع اسمه (أنوار العقول في فضائل آل الرسول) .[٨٩]

ج ـ الحكّام والرؤساء الشجعان :

ـ سيف الدولة الحمداني : أبو الحسن عليّ بن عبد الله بن حمدان . قال الثعالبي في (يتيمة الدهر) :

كان بنو حمدان ملوكاً وأمراء أوجههم للصباحة ، وألسنتهم للفصاحة ، وأيديهم للسّماحة ، وعقولهم للرجاحة ، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم ، وواسطة قلادتهم ، وكان ـ رضي الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنة مأواه ـ غرّة الزمان ، وعماد الإسلام ، ومن به سداد

الثغور، وسداد الأمور، وكانت وقائعه في عُصاة العرب تكفّ بأسها، وتفلّ أنيابها، وتذلّ صعابها، وتكفي الرّعيّة سوء آدابها، وغزواته تدرك من طاغية الروم الثّار، وتحسم شرّهم المثار، وتحسن في الإسلام الآثار.

وحضرته مقصد الوفود، ومطلع الجود، وقبلة الآمال، ومحطّ الرّحال، وموسم الأدباء، وحلبة الشعراء، ويقال إنه لم يجتمع قطّ بباب أحد من الملوك، بعد الخلفاء، ما اجتمع ببابه من شيوخ الشّعر ونجوم الدهر.(٩٠)

وكان الفصل الأكبر لحكام الدولة الحمدانية في انتشار التشيّع بشكل عام، والدعوة العلوية بشكل خاص، لكن لم يجبروا أحداً على اعتناق أيّ المذهبين بالقوة، ولم يعلن سيف الدولة عن علويته مجاهرة، ولم يفرض على سكّان إمارته التشيّع، وكان قاضي القضاة عنده سنيّاً حنفيّاً بالرّغم من أن إمارة حلب كان أكثرها شيعةً، وكان أكثر من نصف سكان مدينة حلب من الشّيعة والعلويّين.

ومن المعلوم أن الحكام لا يظهرون معتقداتهم إذا كانت تخالف معتقدات رعاياهم، بل يتظاهرون ـ من الناحية الدينية ـ باعتناق عقائد هؤلاء الرعايا ليستقرّ حكمهم ويستمر، وهكذا كان حال إمارة حلب التي كان يحكمها الحمدانيون الشيعة الذين ينعتون بأن تشيّعهم كان خفيفاً، وأرجّح أنهم كانوا متساهلين في أمور مذهبهم كي يؤلفوا بين أبناء إمارتهم لمواجهة الروم الأقوياء الراغبين في الاستيلاء على الأراضي العربية التي لم يبق من يدافع عنها في مواجهة الروم غير سيف الدولة الحمداني لضعف الدولة العباسية. قال المتنبي يمدح سيف الدولة لمدافعته عن الأرض العربية وتخلّي الآخرين عن الدفاع والمواجهة.

ليس إلاكَ يا عليّ همـامٌ	سيفُهُ دون عرضه مسلولُ
كيف لا تأمن العراق ومصر	وسراياك دونها والخيولُ
لو تحرّفتَ عن طريق الأعادي	ربط السّدرُ خيلَهم والنّخيلُ
ودرى من أعزّه الدّفع عنه	فيهما أنه الحقير الذليلُ
أنت طولَ الحياة للروم غاز	فمتى الوعد أن يكون القفولُ؟(٩٠م)

وليس بمستغرب كَره المَستشرقّين لسيف الدولة لأنهم ينطلقون في كرهه والحقد عليه من منطلق التعصّب المَقيت لأنه كان طوال حكمه من ٣٣٣ إلى ٣٥٦هـ، يغزو الرّوم ويصدّهم عن الثغور العربيّة، بل إنه أتعب هذه الدولة البيزنطية وسقاها كؤوس المرّ مترعة كما يقول

الدكتور مصطفى الشكعة في كتابه (سيف الدولة الحمداني)، ويصفه بأنه كان بطلاً مظفّراً، وقائداً موهوباً، متّصفاً بالأخلاق العربية، متّسماً بالجرأة والشجاعة.

ولم يقف الأمر بسيف الدولة عند حدّ صدّ الجيوش المعتدية الغازية وحسب، بل إنه نقل المعارك إلى أرض الروم وأخذ يخرج للغزو مرّتين أو أكثر كلّ عام.[٩١]

وعدّت غزواته للروم فوجدت أربعين غزوة انتصر في أكثرها، وكان ينفض ثيابه من الغبار العالق عليها من جهاد الروم ويجمعها في وعاء وطلب أن تُضرب (لبنة) توضع تحت رأسه في قبره لتكون شاهداً له عند الله سبحانه وتعالى في مجاهدة الرّوم، ودفاعه عن العروبة والإسلام. ولمّا مات عام ٣٥٦هـ ٩٦٧م غُسل تسع مرّات أولاها بالماء ثم بزيت النيلوفر، ثم بالصندل، وبعد ذلك بالضريرة ثم بالعنبر، ثم بالكافور، ثم بماء الورد، وغسل بعد ذلك بالماء المقطّر ونشّف بعد غسله بدبيقي ثمنه خمسون ديناراً أخذه الغاسل وهو قاضي الكوفة إلى جانب أجرته ثم دهن بالزعفران والكافور، ووضع على خدّيه ورقبته مائة مثقال من الغالية وفي عينيه وأذنيه ثلاثون مثقالاً من الكافور، وبلغ ثمن كفنه ألف دينار، ثم وضع في تابوته، ورش عليه الكافور.[٩٢]

- **معزّ الدولة البويهي**: حاكم الدولة العباسية الفعليّ، وفي مدّة حكمه تكاثر العلويون في شمالي شبه جزيرة العرب والبلاد الشرقية.

- **عضد الدولة البويهي**: الذي انتظم الملك واتّسق لبني بويه أثناء حكمه وصار الحاكم العباسيّ ينشد إبان حكمه:

عجبت لمن لـه الدنيـا كمثلـي ومنـهـا لـبـس شـيء فـي يـديـه

لقد أبقى له البويهيون الدعاء على المنابر في أيّام الجمع والأعياد وأخذوا لأنفسهم المناصب والسّلطة الرسمية والأموال، وأطلق عضد الدولة على نفسه لقب (معين المؤمنين) بدلاً من (أمير المؤمنين) لحديث الإمام عليّ عليه السلام: «لا يقولها بعدي إلا كلّ مأفون في عقله، مفتون في دينه»، ولولا هذا لَتَلَقَّبَ بإمرة المؤمنين وصار خليفة.[٩٣]

- **أبو العشائر الحمداني وكان والياً على أنطاكية أيام سيف الدولة.**

- **أبو الحسن بن كليب وكان نقيباً بقلعة على شاطئ الفرات.**

- **أبو الحسن رايق بن الخضر الغسّانيّ والي طبرية وطرابلس، وولده محمد بن رايق.**

- **بدر بن عمّار الوالي على طبرية ثم طرابلس.**

- **الحسن بن إسحق التوخي والي اللاذقية.**

- **تغلب بن داود العدويّ.**

- **الصاحب بن عبّاد:** إسماعيل بن عبّاد، الوزير، يقول فيه الثعالبي: هو صدر المشرق، وتاريخ المجد، وغُرَّة الزمان، وينبوع العدل والإحسان ومن لا حرج في مدحه بكلّ ما يمدح به مخلوق، ولولاه ما قامت للفضل في دهرنا سوق، وكانت أيامه للعلويّة والعلماء والأدباء والشعراء. (٩٤)

من توقيعاته: من نظر لدينه نظرنا لدنياه، فإن آثرت العدل والتوحيد بسطنا لك الفضلَ والتمهيد، وإن أقمتَ على الجَور فليس لكسرك من جبر.

- **خضر بن مزيد:** من العراق. كان أعرابياً شجاعاً، حفظ القرآن وهو ابن اثنتي عشرة سنة، وحجّ، وبعد حجّه جمع عشرة من المقاتلين الشجعان وغزا بهم الروم.

مرّة كمن له مائة فارس من أبطال الروم فواقعهم هو وفرسانه وقتلوا (٩٥) فارساً منهم، وأسروا الباقين وكان فيهم ابن إمبراطور الروم فأرسل والده في فدائه، فأحضر خضر بن مزيد ابن الإمبراطور أمام رسول والده المكلّف بفدائه فقال الابن لخضر بن مزيد: لقد أحببت أن أكون في حفظ من أنت في حفظه. فقال مزيد لرسول الإمبراطور: أما سمعت ما قاله ولد الإمبراطور من تلقاء نفسه؟ وأنا بعد اليوم لا أكرهه على ما لا يريد، ولا أرجعه إلى الكفّار، وقد أسلم الولد على يديه، فحجّ به، وحفظ سورة الكهف، وسورة يوسف، فزوّجه خضر ابنته. (٩٥)

- **زيد الضرّاب:** كان ضرّاب الذهب ببغداد، قرأ القرآن الكريم.

- **أبو الفتح مؤمّل العجّان:** من حماة، كان فقيهاً عالماً، حجّ باثني عشر رجلاً على نفقته، وكان عجّاناً في مخبز لحاكم المدينة، فأثر على هذا الحاكم وصار علوياً، ولما مات دفن في حماة بباب يعرف بباب العميان عند (التوبة) عند قبر عمر بن الفرات، وهي قبّة عتيقة. (٩٥م)

المراجع

٧٦ ـ خير الصنيعة ج١ ص١٣٢ ـ ١٣٣ .

٧٧ ـ الدولة العباسية ص٣٨٢ .

٧٨ ـ خير الصنيعة ج١ ص١٥٩ .

٧٩ ـ خير الصنيعة ج١ ص١٥٨ .

٨٠ ـ الأعلام ج٢ ص٢٥٤ .

٨١ ـ خير الصنيعة ج١ ص١٥١ وما بعدها .

٨٢ و٨٢ مكرر ـ خير الصنيعة ج١ ص١٦٥ ـ١٦٨ .

٨٣ ـ خير الصنيعة ج١ ص١٦١ .

٨٤ ـ يتيمة الدهر ج٢ ص١١٧ ـ ١٦٤ ـ ١٦٠ .

٨٥ ـ يتيمة الدهر ج٢ ص٢٠٨ وما بعدها .

٨٦ ـ يتيمة الدهر ج١ ص١٠١ .

٨٧ ـ يتيمة الدهر ج١ ص١٠٤ .

٨٨ ـ يتيمة الدهر ج١ ص١٠٨ .

٨٩ ـ خير الصنيعة ج١ ص١٦٤ .

٩٠ ـ يتيمة الدهر ج١ ص١٥ .

٩٠ مكرر ـ العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ص٤٥٦ .

٩١ ـ سيف الدولة الحمداني ص٤ .

٩٢ ـ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج٢ ص٢٣٤ .

٩٣ ـ خير الصنيعة ج١ ص١٣٤ .

٩٤ ـ يتيمة الدهر ج٣ ص١٨٨ .

٩٥ ـ خير الصنيعة ج١ ص١٦٠ .

الفصل التاسع

العلويون في القرن الخامس الهجريّ

تميّز القرن الخامس الهجري بالأحداث التالية:

١ ـ انشقاق الفاطميين الإسماعيليين وظهور المذهب الدرزيّ (مذهب الموحدين) عام ٤٠٨هـ، وانتشار مذهب الدروز الموحدين في وادي التيم وحوران وفي منطقة إدلب، وكان انتشارهم في لبنان بين العلويين والشيعة والإسماعيليين.

٢ ـ قيام الدولة النجاحية في اليمن ٤١٢هـ.

٣ ـ قيام الدولة المرداسية في حلب ٤١٤هـ.

٤ ـ انتهاء حكم البويهيين في العراق ٤٤٨هـ.

٥ ـ قيام أحد أتباع البويهيين المدعو بأبي الحارث أرسلان (البساسيري) بالدعوة للفاطميين في العراق، واستطاع الاستيلاء على بغداد عام ٤٥٠هـ، وأقام الآذان بحيّ على خير العمل حتى عام ٤٥١هـ، وقيام فتن طائفية بين الشيعة والسنة في بغداد.

٦ ـ استيلاء السلاجقة على الحكم في العراق بدلاً من البويهيين عام ٤٤٨هـ والتلاعب بمصير الدولة العباسية.

٧ ـ انتهاء الدولة العقيلية في الموصل عام ٤٨٩هـ.

٨ ـ خروج أمور الحكم من يد العرب إلى فئات غير عربية، وابتعاد العنصر العربي عن القيادة والسلطة وتمزّق الشعب العربيّ إلى مذاهب وطوائف متناحرة متقاتلة ممّا أدّى إلى ضعف الوطن العربيّ فسقط قسمٌ منه تحت أقدام جحافل الغزاة الإفرنج.

٩ ـ الحروب الصليبية ٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م.

١٠ ـ وفاة الشيخ الشاب الثقة أبي سعيد سرور بن القاسم الطّبراني الملقّب بالميمون عام ٤٢٧هـ، بعد عمر قضاه في نشر الدعوة العلويّة والرّد على خصومها وبخاصة إسماعيل بن خلاّد الملقب بأبي ذهيبة وجماعته الذين منهم ابن كرّاز المُتَركّل، وأبو العكارش وابن بشار،

والهنديّ، والضرّاب، والحميصيّ، وقد اكتسب بمناظرته لابن خلاد مكانة كبيرة في نفوس مؤيديه وأتباعه، وأثّر على قسم من مؤيّدي أبي ذهيبة فانفضّوا عنه، وقد مدحه الشاعر العلويّ الخبّاز الصّوري (من مدينة صور) بقوله:

لولاك يا شيخ الديـــانة والحجـــى　　　من كان أردى الوغدَ إسماعيلا؟
من كـــان كذَّبه وبـــدَّد شملَـــــه　　　من كان صيّر عرضه مبـذولا؟

لم ينصّ أبو سعيد على من يخلفه في قيادة الدعوة ولكنه اعتمدَ على الحكّام العلويين في الإشراف على شؤونهم وحمايتهم من تسلّط حكام المناطق المجاورة لمناطقهم.

وقد لمع في سماء هذا القرن حكّام وأسر معروفة في تاريخ العلويين متوزعة في عدة مناطق في بلاد الشام ومصر، وسأقدّم ترجمة حياة هؤلاء الحكّام. ومنهم:

-السيد عيسى الأديب البانياسي: أبو محمد عيسى بن محمد بن عبد الله الناسخ البغدادي ويعود نسبه إلى الخزرج، وكان أميراً حاكماً قلعة بانياس الشام (تقع في الجولان السورية) وتوفي فيها عام ٤٢٠هـ، وإلى جانب كونه حاكماً دنيوياً كان عالماً شاعراً. وهنالك عدة عائلات تنتسب إليه اليوم منتشرة في جبال العلويين في قرى وبلدات كثيرة منها؛ القرداحة حمّين، والملاّجة، ومجدلون البستان، وحير الأحمر في محافظة حماة.[٩٦]

- ثم الأمير محمد الملقّب بعصمت الدولة: محمد أبو الفتح، أبوه الأمير معز الدولة علي بن عيسى كوبج، عاش في القاهرة في مصر، وقد نعته المؤلف أبو صبح الديلمي بأنه كان أميراً شريفاً حسيباً نسيباً عابداً زاهداً، متورّعاً شاعراً. قال عنه الشيخ حسين ميهوب حرفوش أنه تولى الحكم أربعين سنة. (٩٦م)

- ثم الأمير ناصح الدولة أبو الفتوح: حبيش بن محمد بن جعفر بن محرز، تحدّث عنه صاحب كتاب (خير الصنيعة) فقال: كان ملكاً شديد البأس وركناً عظيماً من أركان البيت المحرزيّ، وكان عنده فضل عظيم، وأدب، فكان ذاسياسة وهيبة عظيمة، وعدل وافر، وغزواته كثيرة، وكان بغاية السماحة والكرم، والرفق بالرعية، والإحسان إليها.. حسن السيرة، حاذقاً، متيقّظاً، غزير العقل، سديد الرأي، صبوراً، حليماً، يسمع ما يكره ويغضى عنه واتته السعادة، واتّسع ملكه، ولم يُر أحد من الملوك الذين اشتهرت أخبارهم من الشيعة بالحذاقة مثله. توفي ٤٩٩هـ.[٩٧]

ـ ثم محمد بن إبراهيم النّعماني (أبو عبد الله) وكان حاكماً بأنطاكية.

وفي هذا القرن نبغ الشاعر العلويّ (المنتجَب) المستطار الشهرة حتى يومنا هذا. وهو محمد بن الحسن المنتجب الدين العانيّ الخديجيّ المصريّ. ولد في عانة في العراق ويظهر من لقبه المصري، أن أسرته كانت تسكن مصر، ثم انتقلت إلى العراق، واستقرت في عانة.

ومعلوم أن هذه المدينة كانت تكتظ بسكانها العلويين، وقد اتصل المنتجب بآل فضل الحلبيين الأخيار الأبرار فمدحهم وأثنى عليهم، والتقاهم وصارت بينه وبينهم مودّة عظيمة ومن مدائحه فيهم:

وبيداء مرّت ليس فيها لسالك	يمرّ بها إلا ضبابٌ وعُنظُبُ
إذا ما اشتكين إليهم فيها من الظمأ	تعاوت بها من شدة الجوع أذؤبُ
تعسّفتُها والليل قد صبغ الرّبا	بوجناء تطفو في الظلام وترسبُ
إلى بحر جود ما وَراه لطالب	يحاول إدراك المغانم مطلبُ
عليّ بن فضلٍ ذي المعالي ومن بهِ	إلى الله في مدحي له أتقرّبُ
جوادٌ أعار المزنَ جوداً، وماجدٌ	يعم بني الآمال إن ضنّ صيّبُ
أخو همّة علْويّة أريحيّة	إلى آل (عمرو) بالنباهة يضربُ

وآل عمرو قبيلة بني فضل.

يمتاز المنتجب بتمسّكه الشديد بعلويّته والدفاع عنها، ولا يبالي أن يصرّح بمخالفة خصومها.

وبهذه المخالفة اتّخذ شهرة عظيمة عريضة، وطار صيته بين العلويين بقوّة شاعريّته، وغزارة علمه. وقد وصفه مؤلّف خير الصنيعة بأنه شاعرٌ مبدعٌ لا يجاريه في رقّة الألفاظ ومتانة الأسلوب شاعر. شعره بغاية الانسجام، والنسيب والغزل المطرب العجيب لقوله (سلكن من الألفاظ ما كان دانيا) وقد بلغ من الشهرة وبعد الصيت منزلة سامقة أصبح بها يُشَرَّف على شعراء عصره ومن وليهم حتى هذا العصر، بل فضّله بعضهم على شعراء شعبه، وقد ألقيت له مقاليد الزعامة الشعرية بلا استثناء.[٩٨]

لا يعرف تاريخ مولده بالتحديد، وهناك خلاف على تاريخ وفاته يقيناً. فبينما يذكر الزركلي في الأعلام (ج١٠) أنه توفي ٤٠٠هـ أو ٣١٣هـ، يذكر مؤلف كتاب خير الصّنيعة أنه توفي ٥٣٤هـ، وصاحب الدار أعلم بما فيها.

شرح ديوانه الشيخ إبراهيم عبد اللطيف عام ١٣٢٦هـ، وقدم له بأنه أجلّ مدّخرات العارفين أهل الفقه والدين ذكر فيه محض التوحيد بنظم كالدّر النضيد، وتركيب فصيح مجيد، عَريَ عن التشويش والتعقيب، جمع بين جزالة الألفاظ وفخامة المعاني، ومتانة القوافي، وسهولة المباني. من شعره:

ما الغيث لمّا جرى بالسّيل واديـــــه | كصيّب الدمع إذ فاضت مآقيه
ولا تلهّب ذاك البرق منه حكـــــى | لهيبَ قلبٍ مشوقٍ فيه ما فيهِ
بنتم فلا اخضرَّ ذاك الروضُ بعدكُمُ | ولا زهت في نواحيه أقاحيه
ماضٍ من العيش لو يُفدى بذلت لـه | روحي ورخّصتُ في ماكنت أُغليه
لمّا تيقّنتُ أن الوصلَ منقطـــــعٌ | وأنني لم أطق ردّاً لماضيهِ
ما زلت أنثر عقد الدرّ من أســـفٍ | حتى رجعن يواقيتاً لآليهِ

وله في حرب الجَمل:

فصاح فيهم أمير النحل مـن غضب | أنا عليٌّ فلم تحملهم الرُكبُ
فظلّ جمعهمُ المشحــون فـي بَدَدٍ | وسيفه لرقاب القوم يحتطبُ

نستشف في شعر المنتجب الجريء قوّة العلويين في هذا القرن بالرغم مما تعرضوا له من المضايقة في بداية هذا القرن وفي نهايته، فقد تعرّضوا لشيء من الأذى والكبح أيام سيطرة الدولة المرداسية في بلاد الشام، ومقرّ دولتهم كان حلب على أنقاض الحمدانيين، وكان حاكم هذه الدولة صالح بن مرداس يخطب حيناً للخلافة الفاطمية وحيناً للخلافة العباسية.

فإذا والى الفاطميين كان يرفع الضغط عن العلويين والإسماعيليين والشيعة عموماً، وإذا خطب للخليفة العباسي في بغداد ضايق الشيعة جميعاً.

وبانتهاء الدولة المرداسية عام ٤٨٢هـ حلّ خطر من نوع آخر تعرّض له العلويون والعالم العربيّ والأمة الإسلامية كافّة وهو الغزو الفرنجي لبلاد الشام ومصر. وخلال فترة حكم الدولة المرداسية امتدّ حكم الفاطميين إلى بلاد الشام، واستولوا على دمشق وجبال لبنان والحجاز، وسيطروا عام ٤٠٥هـ على بغداد لفترة وجيزة. وقد رحّب العلويون بالفاطميين وانضموا إليهم وساعدوهم في حروبهم وشارك قادة منهم في هذه الفتوحات المستمرّة التي قام بها الفاطميون.

وانتشرت الدعوة الإسماعيلية في بعض مناطق العلويين مثل مصياف والقدموس وقلعة الخوابي، لكن الفاطميين لم يقابلوا هذا الصنيع بمثله، بل على العكس قاموا بإقصاء العلويين عن مرافق الدولة وقيادة كتائب الجيش، وحاربوا الدعوة العلويّة لما بين الدعوتين من خلاف، وكانت أهدافهم إعلاء المذهب الفاطمي وسيادته على كل المذاهب والفرق، وطمس كل مذهب يخالف مذهبهم.

لكن يلمع في سماء العصر الفاطمي بريق ضوء علويّ يتمثل بالأمير ناصر الدولة الذي نشأ في مصر وتولّى قيادة جيش الخليفة المستنصر بالله، وكان يعتنق الدعوة العلوية، ورأى فيه العلويون سنداً وحامياً، غير أن القواد الأتراك في جيش الخليفة الفاطميّ ائتمروا به وقتلوه غيلة عام ٤٦٥هـ.[٩٩]

وقد سكن العلويون والإسماعيليون والدروز جنباً إلى جنب في بعض المناطق مثل وادي التيم في جبل لبنان وفي الضنيّة وكسروان والمتن وبلاد الغرب، ومرج عيون والعاقورة. وقد كانت هذه الأماكن تغصّ بالعلويين والإسماعيليين، وأصبحت المناطق اللبنانية الجبلية مستقراً لكل فرق الشيعة (من شيعة إمامية وعلويين وإسماعيليين) ودروز. أما في طرابلس وعكّار فكانت الغلبة للشيعة الإمامية، وكذلك الأمر في جبال الساحل السوري من طرطوس وحتى الأناضول كانت الغلبة للشيعة العلويين مع بعض التجمعات الإسماعيلية في الأماكن التي ذكرناها سابقاً وخلت هذه الجبال من الشيعة الإمامية. لكن هذه الشيعة كان انتشارها كبيراً في طرابلس وبعلبك وصيدا وصور وجبل عامل ومرجعيون وشيعة العراق كان جلّها من الإمامية.

في منتصف القرن الخامس فقد العلويون ناصراً قوياً كانوا يستعينون به في وجه الخصوم، ويخافهم أولئك الخصوم للجوئهم إلى هذا الناصر ونعني به الحكم البويهي في العراق. لقد انتهى حكم الأسرة البويهية في العراق عام ٤٤٨هـ بتأثير الأتراك السلاجقة الذين كانوا يعتنقون المذهب السنيّ، وقد استدعاهم الخليفة العباسي في بغداد ليطرد آل بويه من الحكم، ولكن بعد دخولهم بغداد استولوا على السلطة مثل البويهيين وجعلوا الخليفة والخلافة ألعوبة يلعبون بها ويشبعون رغباتهم في الحكم والتحكم. وقد أصيب الشيعة عموماً بنكسة كبرى بانقضاء الدولة البويهية وقيام الحكم السلجوقي في بغداد، وحاولوا القيام بثورة تنهي الوجود السلجوقي وساعدهم عامّة أهل بغداد من السنّة لما فعل بهم السلاجقة، وتزعّم ثورة بغداد أحد أتباع البويهيين المدعو بأبي الحارث أرسلان (البساسيري) وليكسب دعم الفاطميين

خطب لهم على منابر بغداد وأذّن بحيّ على خير العمل واستولى على بغداد وما حولها عام ٤٥٠هـ، في الثامن من ذي القعدة وهرب الخليفة العباسي إلى الموصل واستجار بحاكم الدولة العقيلية وتابع البساسيري سيطرته على باقي العراق فاحتل البصرة وواسط ترتفع فوق رأس جيشه الألوية البيضاء رمز الفاطميين. لكن هذه الثورة لم تستمر طويلاً فقد استطاع السلاجقة القضاء على قائدها البساسيري عام ٤٥١هـ في ذي القعدة وعقب كل حركة مثل هذه كان البطش يحلّ بالشيعة عموماً ويتوارى أفرادهم المعروفون عن العيان حتى يخفّ الطلب عنهم، ويقوم فريق من العلويين بالهرب نحو التجمعات الكثيفة في عانة أو منطقة سنجار قرب حماه، أو الاتجاه نحو جبال اللاذقية أو جبال لبنان ليحموا أنفسهم ويقوها من القتل والفناء. وقبل أن ينتهي القرن الخامس بأحد عشر عاماً وبالتحديد في عام ٤٨٩هـ حلّت النكبة الكبرى ببلاد الشام بخاصّة، وذلك من جرّاء قدوم الفرنجة الصليبيين من أوربة ليستردوا بيت المقدس من المسلمين كما كانوا يزعمون. قدم الصليبيون في فترة ضعف الشعب العربي الإسلامي من جرّاء الصراع بين الدولتين الفاطمية والعباسية وقيام إمارات وممالك في المنطقة الواحدة يسيطر عليها حكام أعاجم جلّ أمانيهم السلب والنهب والفتك بالشعب العربيّ الممزّق القوى، المهيض الجناح، هذا الشعب الذي تعرّض لمذابح جماعيّة رهيبة حصدت النفوس ودمّرت المدن والقرى، وحولّت الأراضي الخصبية إلى أرض بور عقيم. ولم يتورّع الحكام عن قتل بعضهم بعضاً ولو كانوا أخوة أو أبناء عم.

في غمرة الصراع السنيّ الشيعيّ والتعصّب المقيت، وفي فترة الذهول الذي لا وصف له والذي سيطر على النفوس جاءت جحافل الجراد المفسد المدمّر من الغرب الأوربي لتعيث فساداً في بلاد الشام ولتدمّر الحضارة وتحيل الأراضي إلى يباب، ولتفتك بالنفوس المستضعفة المقهورة بواسطة حكام أجانب لا يعرفون الله ولا الحقيقة، ولا حرمة الوطن، ولا حتى المحافظة عليه!..

قدمت جحافل الصليبيين وشعارها الحقد، وإرادتها القتل والتدمير، وتأسيس الإمارات والممالك، وهدفها نهب ثروات الشرق واستعباد العرب من المسلمين وغيرهم، وقد كان للسلجوقيين دور كبير في إذكاء التعصّب إن كان بين المسلمين أنفسهم أو بينهم وبين المسيحيين ولا سيّما بعد أن انتصروا على الدولة البيزنطية بقيادة الإمبراطور رومانوس في معركة (ملاذ كرد) عام ٤٦٤هـ، ١٠٧٢م.

بعد هذه المعركة استغاث أباطرة الدولة البيزنطية بمسيحيي أوربة بالرّغم من العداء الموجود بين الكنيستين البيزنطية الأرثوذكسية والكنيسة الغربية اللاتينية الكاثوليكية، فاهتبل البابا أربان الثاني الفرصة ليسيطر على الكنيسة الأرثوذكسية التي انفصلت عام ١٠٥٤م عن الكنيسة الكاثوليكية.

ولهذه الغاية أصدر نداءً تاريخياً يدعو فيه مسيحيي أوربة لاسترداد بيت المقدس ومحاربة «الكفار» المسلمين مغتصبيه!.. ولعدة أسباب سارع هؤلاء المسيحيون الغربيون لتلبية نداء البابا، وانطلقت الحملة الصليبية الأولى من فرنسا في شهر آذار عام ١٠٩٦م، ووصلت إلى القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية أواسط تموز ١٠٩٦م/ ٤٨٩هـ، وفي ٢١ تشرين الأوّل ١٠٩٦ اصطدمت بالقوات السلجوقية قرب المدينة التاريخية (نيقيا) فسحقتها القوات السلجوقية، وقتلت منها خمسة وعشرين ألفاً وأسرت الكثير منها، وفرّ حوالي ٣آلاف رجل إلى القسطنطينية، وهكذا أخفقت الحملة الأولى. ولكن الحملة الثانية وصلت نيقيا في ٦ أيار ١٠٩٧م وحاصرتها وكان السلطان السلجوقي (قلج أرسلان) يحارب أحد خصومه من أقربائه فهادنه وعاد إلى عاصمة ملكه (نيقيا) فوجدها محاصرة فاشتبك مع الصليبيين ودارت معركة شديدة استمرت يوماً واحداً فلم يحقّق فيها السلجوقيون النصر، وانسحبوا إلى الجبال وتركوا المدينة لمصيرها فسقطت بأيدي الصليبيين في ١٩ حزيران ١٠٩٧م. وبسقوط نيقيا تحقق النصر الأول للغزاة الفرنجة، وأمنت الدولة البيزنطية من غارات السلاجقة عليها، ويقال إن سقوط نيقيا كان بالاتفاق مع قيادة الحامية السلجوقية وبتعليمات من السلطان السلجوقي (قلج أرسلان).[١٠٠]

وتابع الفرنجة زحفهم نحو الجنوب الشرقي خلال المقاطعات الداخليّة من آسيا الصغرى وهزموا السلجوقيين مرة ثانية في (ضورلبوم) فانفتح أمامهم طريق سورية، ثم احتلوا (قونية وهرقلة) واتجهوا نحو كيليكية حيث يسكن الأرمن وحاصروا (طرسوس) ففتح لهم سكانها المسيحيون الأبواب، واستولى الأسطول الصليبي على مرفأ الإسكندرونة، وتم الاستيلاء على (كومانا) الأرمنية وبمعاونة حاكم أرمني استولى الصليبيون على بعض القلاع الهامة قبل أن يصلوا (الرها) التي فتح أبوابها أمامهم أميرها الأرمني (طوروس) في ٦ شباط ١٠٩٨م، فكافأه الصليبيون بعد ذلك بأن ثقبوا جسمه بآلاف السهام، وأقاموا في الرها أول إمارة صليبية، وحين فوجئ الأرمن بذلك، وكانوا يتوقعون تكوين دولة أرمنية حسب وعد الصليبيين لهم

ليتحرروا من حكم الكفّار المسلمين!!!، تمرّدوا على الصليبيين واستغاثوا بالسلاجقة فأعدم الصليبيون قسماً منهم وسجنوا قسماً آخر وصادروا أموالهم ووزّعوها على الفرسان الإفرنج[١٠١]. وفي ٣١ تشرين الأول وصلت قواتهم إلى أنطاكية التي تبعد ٢٠ كم عن البحر وتقع على الضفة الشرقية من نهر العاصي، وكان يحكمها في تلك الفترة (ياغي سيان) المعيّن من قبل السلطان السلجوقي، وكان سكان المدينة خليطاً من المسلمين والمسيحيين. وكان المسلمون العلويون يستوطنون تلك المدينة منذ انتشارهم أيام الدولة الحمدانية ولهم فيها مكانة كبيرة، ولذلك دافعوا عن مدينتهم دفاعاً مستميتاً متعاونين مع بقيّة سكانها، وصمدت المدينة ـ وكانت حصينة ـ أمام المتوحشين صموداً مذهلاً، وحاول حاكم دمشق السلجوقي (دقاق) نجدة أنطاكية فأرسل قوات كبيرة هزمها الصليبيون أواخر كانون الأول ١٠٩٧م.

وأرسل حاكم حلب السلجوقي (رضوان) جيشاً هزم بدوره في شباط ١٠٩٨ (رضوان ودقاق أخوان ولكنهما كانا متعاديين فرضوان يعتنق المذهب الإسماعيلي ودقاق يعتنق المذهب السني).

وتفاوض الصليبيون مع حكام مصر الفاطميين على تقاسم سورية وفلسطين شريطة أخذ القدس من السلجوقيين وتأسيس مملكة فرنجيّة فيها، ولكن الفاطميين رفضوا الشروط الصليبية.[١٠٢]

وبعد حصار دام سبعة أشهر سقطت أنطاكية بيد الصليبيين حينما أقدموا على رشوة آمر سلجوقي اسمه (فيروز) وكان مكلفاً بحراسة ثلاثة أبراج في الجانب الغربي من أسوار أنطاكية.

وفي ليلة ٢ ـ ٣ حزيران ١٠٩٨م فتح لهم هذه الأسوار ـ والمدينة نائمة ـ ودخل الصليبيون، ويا لهول ما فعلوا القتل والذبح، وهتك الأعراض، والسلب والنهب.

وننقل من كتاب (الصليبيون في الشرق):

«فقد نهب الصليبيون المدينة كلياً وتماماً، وليس بمقدورنا أن نقول لكم: كم من الغنائم أخذت إجمالاً في أنطاكية فإذا تصورتم بأقصى ما يسمح لكم خيالكم، فاحسبوا أكثر من ذلك!»[١٠٣]

وأقام الصليبيون حفلات ومآدب تهتكية، وقتلوا الآلاف من سكان المدينة، وانتشوا بسيول الدماء التي سفكوها ولم يفرّقوا بين مسلم ومسيحي، وامتلأت الساحات كما يشهد

ماهد عيان بجثث القتلى بحيث إن أحداً لم يكن بوسعه أن يوجد هناك بسبب الرائحة الكريهة لقوية، ولم يكن بوسع أحد أن يمرّ في الشوارع إلا بالسّير على الجثث وينعت مدوّن الأخبار لأرمني (متّى الرّهاوي) المذابح التي اقترفها الصليبيون: بالمجزرة الرهيبة.

وفي أنطاكية أسسوا مملكتهم الثانية، ثم تابعوا سيرهم نحو القدس، وانقسموا فريقين:

الفريق الأول وسار بمحاذاة الساحل يعاونه الأسطول الصليبي، والثاني سار شرقي جبال العلويين ولم يدافع الحكام السلجوقيون - حكام المنطقة - عن المواقع التي مرّ بها لصليبيون، ولهذا لم يلقوا أية مقاومة إلا في جبلة وطرطوس مقر العلويين منذ القديم.

وفي جبال لبنان رحّب بهم الموارنة وساعدوهم وصاروا أدلاء لهم، وأثناء زحفهم تحاشوا المدن الكبيرة مثل طرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا وحيفا.

وفي فلسطين استولوا على بيت لحم حيث ولد السيد المسيح ﷺ وفي ٧ حزيران ١٠٩٩م وصلوا إلى مشارف القدس وحاصروها، وكان حاكمها الفاطمي قد حصّنها «طرد الفاطميون السلجوقيين من القدس قبل وصول الصليبيين إليها بمدة قليلة» وعبأها بالمواد الغذائية والمياه ووسائل الدفاع. وبعد معارك حامية مضنية سقطت القدس في ١٥ تموز ١٠٩٩م بعد أن تكبّد الصليبيون خسائر كبيرة.

وقد دفع سكان القدس ضريبة هذه الخسائر إذ اندفع مخلّصو قبر السيد المسيح؟؟!! يقودهم تعصّبهم الأعمى - كالوحوش الضارية في أنحاء المدينة ويا لبشاعة وهمجيّة ما أقدموا عليه.

ولننقل أيضاً من كتاب (الصليبيون في الشرق) الوصف الذي لا يتصوّره إنسان متحضّر من فعل أجداد أصحاب الحضارة في هذا العصر. يقول مدوّن أخبار إيطالي نورمانيّ «عندما دخل جماعتنا المدينة ساقوا وقتلوا المسلمين حتى هيكل سليمان بالذات، وقد تجمّع المسلمون فيه وخاضوا معركة ضدّنا في منتهى القساوة طوال اليوم كله، ولذا سال الدم في الهيكل كلّه، وأخيراً تغلب رجالنا على الوثنيين!!! واعتقلوا عدداً من الرجال والنساء في الهيكل وقتلوا منهم قدر ما أرادوا، وأبقوا منهم على قيد الحياة قدر ما أرادوا». وفي المسجد الأقصى ذبح الصليبيون ما لا يقلّ عن عشرة آلاف شخص. ويقول أحد الشهود العيان «أمّا أيّ قدر من الدماء سفك في ذلك اليوم فمن المشكوك فيه أن يكون من الممكن التصديق».

والمجازر وعمليات النهب والسلب تخلّلتها الصّلوات المحمومة أمام قبر السيد المسيح، ومن الصلوات كان الفرسان ينتقلون في الحال إلى الأعمال الدموية «كانوا يقتلون الجميع من رجال ونساء وأطفال وشيوخ، وأصحاء ومقعدين، ولم يكن ثمّة مكان كان بوسع المسلمين أن يتحاشوا فيه القتلة» وكانوا يسحقون رؤوس الرضّع على الحجارة.

ثم تفرّق الصليبيون على بيوت المدينة، ونهبوا كلّ ما وجدوه فيها.

وفضلاً عن المسلمين سقط يهود القدس ضحيّة لجنون الصليبيين ووحشيتهم، فقد اجتمعوا في كنيس كبير، وفيه أبادهم الصليبيون عن بكرة أبيهم، فقد أحرق الصليبيون الكنيس بمن فيه.[١٠٤]

ويصف مصدر صليبي آخر المجزرة بقوله: «إنه وصل إلى مسجد المدينة في بحر من الدماء وصل إلى ركبتيه».[١٠٥]

لقد سفكت في القدس دماء سبعين ألف شخص، وكلّ من بقي حيّاً بيع بعد ذلك بيع العبيد.

وقد بكى الشاعر العربي محمد الأبيوردي القدس وأهلها بقصيدة تعد من أعظم القصائد التي قيلت في هذا الباب نقتطف منها الأبيات التالية:

مزجنا دماءً بالدموع السواجم	فلم يبقَ منا عرضة للمراحم
فكم من دماء قد أبيحت ومن دمىً	تواري حياءً حسنَها بالمعاصم
بحيث السيوف البيض محمرّة الظُّبى	وسمر العوالي داميات اللهاذم
وبين اختلاس الطّعن والضرب وقفةٌ	تظلّ لها الولدان شيبَ القوادم

وفي القدس أسّس الصليبيون مملكتهم الثالثة.

جرى ما جرى وخليفة بغداد نائم لم توقظه تأوهات الثكالى ونحيبهن، ولا صُراخ الفرسان وهم يتجالدون، ولا بكاء الأطفال وهم بالحجارة يرضخون.

واحسرتا على أمة تصبح في القرن الخامس الهجري أضعف أمة تحتلّ أراضيها ويقتل سكانها من جرّاء الفرقة والتنابذ والصراع على حُطام الدّنيا!!

لقد تكاسل الحكّام عن البلاد لأنها لم تكن بلادهم فهم أجانب غرباء عنها، استذلّوا سكانها وجعلوهم شياهاً للحلب واللحم والصوف، ومزّقوهم طوائف متناحرة متقاتلة

ليتمكّنوا من السيطرة عليهم واستنزاف خيراتهم. وجاء وحوش أكثر فتكاً وتدميراً، فتركوا لهم قسماً من الغنيمة واعتصموا في بروجهم يلهون ويعربدون ويتلذّذون.

قاسى الشعب العربي ما قاساه من حكامه الأجانب ومن الصليبيين الذين سيطروا على مساحات واسعة من الأراضي العربية تمتد من أرمينيا إلى البحر المتوسط عند عكّا وحيفا ويافا، ومن ضمنها الساحل السوري واللبنانيّ والفلسطيني، وكوّنوا دولة رابعة في طرابلس بعد الاستيلاء على القدس.

يقول مؤلف كتاب (الصليبيون في الشرق): «إن الصليبيين الأوائل كانوا مدينين بانتصاراتهم إلى تلاحمهم ووحدتهم اللتين يتحدث عنهما مدوّنو الأخبار اللاتين بإسهاب أقلّ ممّا في انقسامات العالم الإسلاميّ في المقام الأول، ففي الشرق لم يواجهوا كتلة متكاملة واحدة موحدة من الأعداء، بل واجهوا خليطاً متناحراً ومبرقشاً من كيانات السلجوقيين والعرب الدولية، ومن أمرائهم الكبار والصغار الذين لا لحمة بينهم. كان العالم الإسلامي منقسماً على نفسه، وكان تمزّقه السياسيّ يرافقه التبعثر الديني فإن السلجوقيين السنيين لم يجدوا لغة مشتركة مع الشيعيين المصريين، ناهيك بأن الصراع كان محتدماً بدوره في صفوف الشيعيين بين مختلف التيارات والملل، وبالنتيجة لم يلقَ الفاتحون الرّد اللازم في الشرق واستطاعوا، وإن بثمن خسائر كبيرة، أن يوطّدوا سيطرتهم لعشرات السنين في الأراضي الغنية في سورية ولبنان وفلسطين». [١٠٦]

بعد سيطرة الصليبيين على بلاد الشام أصبح قسم من العلويين يعيش تحت حكمهم، والقسم الآخر ليس لهم سيطرة عليه، واستقرّ في جبال العلويين المطلّة على الساحل السوري، ولكن سفوح هذه الجبال في الغرب والشرق صارت تحت الحكم الصليبي وكذلك مما تاخم السفوح الشرقية من أراضٍ تابعة لمحافظتي حمص وحماة اليوم.

تراجم من القرن الرابع والخامس:

١ ـ أبو الخير سلامة بن أحمد المعروف بالحَذّاً: ٣٦٢ ـ ٤٥٨هـ.

كان عالماً بارعاً زوّاراً للإخوان كثير الهجرة إليهم قلّما ترك بلداً إلا وشاهده وجالس علماءه كما يظهر من رسالته التي ذكر فيها ملاقاته للثقات في العراق ومصر والشام وطبرية وصيدا وأنطاكية وطرابلس وصور وحلب وحرّان وحصن القدموس وجماعة الطوبان بحماة، والغرباء.

أشهر تآليفه (الرسالة) التي تعدّ من كتب السيرة لأنه ذكر فيها من لقيهم من العلماء المعاصرين له ولقي من الخصوم أبا ذهيبة ويقول في ذلك: «ولقيت أبا ذهيبة خزاه الله، ونصرني عليه». تعتبر رسالته سجلاً تاريخياً دقيقاً عدّد فيها أسماء الشخصيات العلوية البارزة كما أبرز مدى انتشار العلويين ومكانتهم في زمانه. «المغمورون القدامى في جبال اللاذقية ص١٣٣».

٢ ـ أبو عبد الله محمد بن محمد المهلهليّ صاحب الرسالة البغدادية:

كان عالماً علاّمة بارعاً له مؤلفات شتّى منها الرسالة البغدادية يردّ فيها على أبي ذهيبة.. من علماء المئة الرابعة.. «خير الصنيعة ص٢٨٠».

٣ ـ محمود الفرا الشيزري من علماء المئة الخامسة.

ينسب إلى شيزر، بليدة على شاطئ نهر العاصي تبعد عن حماة (٣٥) كم غرباً شمالاً فيها قلعة قديمة، مرّ بها الشاعر امرؤ القيس في رحلته إلى القسطنطينية. نشأ بها كثير من العلماء، وكانت مقرّاً لأسرة بني منقذ المعروفة. ومحمود الفرّا نشأ بها وكان شاعراً ذكياً مدح ناصح الدولة وجماعة الطوبان الذين منهم الجديلي المشهور، وكان وجيهاً عند ناصح الدولة، مدحه بقصيدة يهنّئه فيها بعيد الغدير مطلعها:

عيدٌ أتى يزهو على الأعياد — بمسيرة مقرونة بسداد
وافاكم عيد الغدير بسعده — عيدٌ له شرفٌ على الأعيادَ

«المغمورون القدامى في جبال اللاذقية ص١٦٤».

٤ ـ أبو منصور بن سبع بن جبّة الفارسيّ (القرن الخامس).

ذكره الجديلي وأثنى عليه إذ كان معاصراً له، وكان شاعراً واسع الخيال طويل النفس الشعريّ. مجّد الإمام علياً عليه السلام وصوّر بطولته ومواقفه المشرّفة في الإسلام في يوم بدر وحنين وخيبر متوسلاً به إلى الله طالباً الغفران. من شعره:

يا سائراً يبغي إلى حلب وقد — أضحى بريع لما يحنّ سقاءَ
واعلم هُديت بأن حبّ محمّد — ووصيّه وأولئك الزهراءَ
ينجيك والعبد بن «جبّ» من لظىً — إذ فاقَ فيما قاله الشعراءَ

«القدماء المغمورون ص١٥٥» .

شخصيّات من هذا القرن والقرن الرابع:

١ ـ الحسين بن محمد بن عليّ الجلّي ٣٥٥هـ توفي أول القرن الخامس .

٢ ـ حمزة بن عليّ بن شعبة الحرّاني ٣٥٣ ـ ٤١٤هـ .

٣ ـ حيدرة القطيعيّ الشاعر اللغوي وفاته ٤٠٠هـ .

٤ ـ أبو الحسن عليّ المعروف بابن بطيطة الحلبي الشاعر . ولد ونشأ بحلب لاقاه الحَدّاً .

٥ ـ أبو الحسن عليّ بن عيسى الجسريّ (الكلبي الكناني التنوخي) من علماء المئة الرابعة .

٦ ـ محمد بن شعبة الحرّاني ولد ٣٦٨هـ .

٧ ـ الأمير محمد الملقّب بعصمت الدولة ٣٩١ ـ ٤٥٠هـ .

٨ ـ أبو الحسن عليّ الحسن بن عليّ بن هيّاج الشاعر الصوري اللغوي ولد ٣٨٣هـ .

٩ ـ أبو الحسن عليّ الأنصاري الجوهري . (المئة الرابعة) .

المراجع

٩٦ ـ خير الصنيعة ج١ ص٢٥٣ .

٩٦مكرر ـ خير الصنيعة ج١ ص٢٦٦ .

٩٧ ـ خير الصنيعة ج١ ص٢٨٥ .

٩٨ ـ خير الصنيعة ج١ ص٣٠٤ .

٩٩ ـ النّبأ اليقين عن العلويين ص١٥٠ .

١٠٠ ـ الصليبيون في الشرق ص٧٥ .

١٠١ ـ الصليبيون في الشرق ص٨٤ .

١٠٢ ـ الصليبيون في الشرق ص٨٩ .

١٠٣ ـ الصليبيون في الشرق ص٩٢ .

١٠٤ ـ الصليبيون في الشرق ص١٢٣ .

١٠٥ ـ تاريخ مصر الإسلامية ص٧٤ .

١٠٦ ـ الصليبيون في الشرق ص١٣٠ .

الفصل العاشر

العلويون في القرن السادس الهجري

يتميز هذا القرن بأنه زمن الجهاد ضدّ الصليبيين الغزاة من جميع فئات الشعب في بلاد الشام ما عدا الموارنة، فقد بدأ الكفاح أوّلاً ضدّهم سكان الأرياف لأنهم تعرّضوا لسيطرتهم وأذاهم قبل سكان المدن.

وقد قامت انتفاضات فلاحيّة في عدة أماكن من بلاد الشام ضدّ الصليبيين قبل أن يبدأ الجهاد الرسميّ للحكام ضدّهم.

فقد ثار الفلاحون في فلسطين بعد ربع قرن من احتلال القدس، وهاجموا مدينة السّامرة عام ١١٢٣م، واستولوا عليها لفترة قصيرة، وفي عام ١١٢٥م، قامت انتفاضات فلاحيّة واسعة في مناطق بيروت وصيدا، ومرات كثيرة رفض السكان دفع الضرائب للصليبيين ممّا يؤدي إلى استقدام جيوش صليبية إلى المناطق الرافضة والمتمرّدة وكان المتمردون يعمدون إلى قتل شخصيات صليبية ذات تأثير، ففي عام ١١٣١ قام السكان في منطقة طرابلس بانتفاضة وقتلوا من يدعى (بونتي الطرابلسي)، وفي سنة ١٢٦٦ يثور سكان المنطقة نفسها وقاموا ليلاً بإبادة الفرسان الإفرنج. وكان سكان الأرياف يتعرّضون للحجّاج الإفرنج ويفتكون بهم، ممّا أدى إلى تخصيص قوّة عسكرية تحرسهم وتوصلهم إلى القدس.

والأعمال الانتقامية من جانب السكان دفعت الصليبيين إلى بناء عدة قلاع ضخمة في بلاد الشام يلوذون بها ويجمعون فيها قوة عسكرية كبيرة للدفاع عن أنفسهم أو للهجوم على من يعيش بجوارهم من سكان البلاد الأصليّين ولم يكن السكّان المسلمون هم وحدهم الذين يقومون بهذه الأعمال الانتقامية بل شاركهم فيها السكان المسيحيون / ما عدا الموارنة/ وتحفل كتابات المؤرّخين الصليبيين بالمرارة من أعمال المسيحيين العرب الذين كانوا يناصبونهم العداء، ويصفهم هؤلاء المؤرخون بأنهم لا يثقون باللاتين بل «إنهم غالباً ما يطلبون العون ضدّ المسيحيين من أعداء ديننا ولا يستحون من أن يبدّدوا لما فيه ضرر المسيحية القوى والأموال التي يجب إنفاقها لمجد الربّ ضد الوثنيين !!!» هذا ما يدوّنه مؤلف كتاب (تاريخ القدس) الصليبي.[١٠٧]

وكان المسيحيون يفضون بأسرار الصليبيين العسكرية إلى المسلمين إذا عرفوها، وكانوا يشاركون في حماية المسلمين وإخفائهم من الصليبيين.

ومن أراد المزيد من الاطلاع على أعمال المقاومة التي أبداها السكان فعليه بكتاب (الاعتبار) لاسامة بن منقذ ففيه الكثير من هذه الأخبار وبخاصة مشاركة النساء في المقاومة.

«ومن إقدام النساء أن جماعة من الإفرنج الحجّاج حجّوا وعادوا إلى رفنيّة (جنوب غرب حماة) وكانت ذلك الوقت لهم، وخرجوا منها يريدون أفامية. فتاهوا في الليل وجاؤوا إلى (شيزر) وهي إذ ذاك بغير سور فدخلوا المدينة وهم في نحو ٧٠٠ ـ ٨٠٠ رجال ونساء وصبيان وكان عسكر شيزر قد خرج مع عمي عز الدين أبي العساكر سلطان وفخر الدين أبي كامل شافع رحمهما الله للقيا عروسين قد تزوجاهما من بني الصوفي الحلبيين أختين (أسرة الصوفي علوية منها محمود الصوفي عالم معروف) ووالدي رحمه الله في الحصن فخرج رجل من المدينة في شغل له في الليل، فرأى إفرنجياً فعاد وأخذ سيفه وقتله، ووقع الصياح في البلد، وخرج الناس فقتلوهم، وغنموا ما كان معهم من النساء والصبيان والفضة والبهائم.

«وفي شيزر امرأة من نساء أصحابنا يقال لها نضرة بنت بوزرماط، خرجت مع الناس أخذت إفرنجياً أدخلته بيتها، وخرجت أخذت آخر أدخلته بيتها، وعادت خرجت أخذت آخر. فاجتمع عندها ثلاثة من الإفرنج فأخذت ما كان معهم وما صلح لها من سلبهم وخرجت دعت قوماً من جيرانها قتلوهم» .[108]

وشاهد أسامة بن منقذ عجوزاً تشترك في القتال ضدّ الصليبيين، وقتلت امرأةٌ مسلمةٌ زوجها لأنها علمت أنه يشترك مع الإفرنج في قتال المسلمين.

وارتفعت صرخات الشعب المقهور تطالب الحكام المتناحرين بالاتحاد وقتال الصليبيين بدلاً من إفناء بعضهم بعضاً.

وجاء العون من الموصل بعدما أسس آل زنكي دولتهم فيها عام ٥٢١/ ١١٣٣م، وقام الأتابك عماد الدين زنكي السلجوقي (أتابك كلمة تركية تتكون من لفظتين أتا وبك، أتا ومعناها أب أو مربّي وبك ومعناها الأمير: مربي الأمير) بمهمة توحيد العرب والمسلمين في بلاد الشام وجزء من العراق ليقاوم الصليبيين وقد استطاع الاستيلاء على عدّة مناطق يحتلها الصليبيون واستولى على حصن (بارين: بعرين في محافظة حماة) عام ٥٣٤هـ، وبالعام

نفسه استولى على معرّة النعمان وكفر طاب وحرّرهما من حكم الفرنجة الغزاة، وفي عام ٥٣٩هـ أخذ مدينة الرّها وأزال الدولة الصليبية الأولى فهلّل له المسلمون وكبّروا للنصر الذي حققه على الصليبيين وارتفعت ثقة الشعب بنفسه وعادت له معنوياته العظيمة التي توارت لعثرات السنين نتيجة استهتار المسلمين بهذا التمزق الذي فقد كل ناصر ومعين، والذي ارتكب بحقه الصليبيون أفظع الجرائم، فقد قاموا عام ٥١٨هـ بحصار حلب وقطعوا الأشجار ونبشوا قبور الموتى، وكانوا يعمدون إلى من لم تتقطع أوصاله منهم فيربطونه في حبال، ويسحبونه أمام المسلمين قائلين لهم: «هذا نبيكم»، وأحياناً «هذا علي»[١٠].

وبعد وفاة عماد الدين عام ٥٤١هـ تابع مسيرة الكفاح ولده نور الدين محمود، واستطاع ضمّ دمشق إلى ملكه عام ٥٤٩هـ، وبهذه الخطوة حقّق وحدة بلاد الشام فتكوّنت لديه قوة كبيرة استطاع بها تحرير حارم عام ٥٥١هـ، ثم حرّر عزاز وبزاغة (حلّ أهلها إسماعيليه) وراوندان ودلوك وأفامية وقد امتدت دولته من دجلة إلى نهر العاصي في لبنان، وطمح ببصره ليستولي على مصر وهيّأت له الأقدار ذلك فقد اختلف وزيرا العاضد الفاطمي: شاور وضرغام واشتدّ الصّراع بينهما فطلب شاور من نور الدين محمود مساعدته بإرسال جيش إلى مصر للقضاء على خصمه ضرغام ففعل، ولما رأى ضرغام ما فعله خصمه استنجد بالعدوّ الصليبي وبملك القدس عمّوري، ولكن طلائع جيش نور الدين كانت قد وصلت إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه (أسد الجبل) وقضت على ضرغام وأنصاره، وثبّتت (شاوراً) في الوزارة عام ٥٥٩هـ، وبعد أن نجح شاور في تحقيق أطماعه ولم يقدّم لشيركوه المبلغ المالي الذي وعده بتقديمه للتخلص من خصمه، بل طلب إليه الانسحاب بجيشه من مصر، ولمّا رفض الانسحاب استغاث شاور بعمّوري الصليبي فأسرع بجيشه لمساعدته مخافة أن يملك نور الدين مصر فتصبح قوى الصليبيين وأملاكهم في بلاد الشام محصورة بجيش نور الدين من الشمال والجنوب، ولم يلتق الجيشان في معركة فاصلة غير أن شيركوه وعمّوري اتفقا على الانسحاب معاً من مصر بوقت واحد.

أقنع شيركوه نور الدين بضرورة الاستيلاء على مصر لأنها ضعيفه ولن تستطيع الوقوف في وجه الصليبيين فجهّزه بجيش كبير قصد به مصر، وكان نور الدين يرغب بالقضاء على الخلافة الفاطمية ونشر المذهب السنّي، واستنجد شاور من جديد بالصليبيين فأسرع عمّوري لنجدته، والتقى الجيشان في عدة معارك لم يكن النصر الحاسم فيها حليف أيّ فريق، واضطراً

إلى التفاوض، وخلصا إلى الخروج بجيشهما من مصر بآن واحد. وفي عام ٥٦٣هـ/ ١١٦٨م خرج عمّوري إلى مصر ليحتلها فاستنجد الخليفة الفاطمي العاضد بدون إرادة شاور بنور الدين فأنفذ إليه شيركوه بجيش لجب وما أن وصل إلى مصر حتى انسحب عموري بجيشه أوائل ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م، وهكذا استطّاع شيركوه أن يستقرَّ في مصر ويقضي على شاور فكلّفه العاضد بالوزارة، ولم يهنأ بها سوى شهرين، توفي بعدهما، فكلّف العاضد ابن أخ شيركوه (يوسف الأيوبيّ: صلاح الدين يوسف الأيوبي) بالوزارة خلفاً لعمّه.

القضاء على الخلافة الفاطمية:

جاء صلاح الدين مع جيش نور الدين منذ الحملة الأولى فكان يعرف أحوال مصر جيداً ويدرك مقدار ضعف الدولة الفاطمية، ولذلك سعى إلى تثبيت أقدامه في مصر فقضى على فتنة في الجيش الفاطمي كانت تسعى للقضاء عليه وإخراجه من مصر، ثم هزم الصليبيين الذين هاجموا مصر للمرة الرابعة، وبعد أن تم له ذلك فكّر جدياً بالقضاء على الخلافة الفاطمية فقام بإبعاد القواد الفاطميين عن القاهرة واستولى على أراضيهم وأملاكهم ومنحها لقوّاده ليضمن ولاءهم وإخلاصهم ثم قام بإنشاء مدارس لتدريس المذهب السني مثلما فعل السلاجقة والهدف هو محاربة المذاهب الشيعية، فكانت أول مدرسة أنشأها لهذا الهدف في مصر هي المدرسة النّاصريّة ومركزها الفسطاط قامت بتدريس المذهب الشافعي (كان صلاح الدين شافعي المذهب أشعري الاعتقاد) ثم أنشأ مدرسة أخرى لتدريس المذهب المالكيّ، وأقدم على خطوة أخرى أكثر جرأة فعيّن ابن درباس الشافعي قاضياً للقضاة، وجعل القضاة في مصر شافعية.

وفي يوم الجمعة الأول من المحرّم عام ٥٦٧هـ/ ١١٧٢، قطع الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد ودعا للخليفة العباسي المستضيء، وما إن سمع العاضد بذلك حتى اشتدّ به مرضه وأدّى إلى وفاته في العاشر من المحرّم (يوم عاشوراء ٥٦٧هـ). وهكذا انتهت الدولة الفاطمية التي جعلت من مصر أثناء قيامها فيها إمبراطورية مستقلّة واسعة مترامية الأطراف ذات حضارة مجيدة مزدهرة.[١١٠]

وجعل نور الدين يوم عاشوراء عيداً يحتفل فيه بالفرح والسرور وإظهار الزينات مثلما كان يفعل الأمويون. يقول الدكتور جمال الدين الشيّال: «إن نور الدين كان يودّ أن يبادر صلاح الدين بالقضاء على الدولة الفاطمية وقطع الخطبة لآخر خلفائها العاضد والخطبة للخليفة العباسي وكان مدفوعاً إلى هذا بسنيّته وكرهه للشيعة».[١١١]

ويقول: «قضى صلاح الدين على الخلافة الفاطمية بالرغم من أن العاضد أكرمه وقدّم له كلّ الدّعم في حربه ضد الصليبيين حتى لقد قال صلاح الدين نفسه فيما رواه ابن واصل: ما رأيت أكرم من العاضد أرسل إليّ مدّة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها». [١١٢]

ويروي أبو الفداء في تاريخه، الجزء الثالث: «إن صلاح الدين أحضر داعي الدعاة الفاطميّ وعمارة بن عليّ اليماني الشاعر الفقيه والقاضي العويرس، وعبد الصمد الكاتب المعروف، وغيرهم من خواصّ الفاطميين، فأمر بصلبهم عن آخرهم وكان عددهم اثني عشر رجلاً وذلك عام ٥٦٩هـ». [١١٣]

لم يكتف صلاح الدين بذلك بل حارب المذاهب الشيعية في مصر وبلاد الشام ليقتلعها من الوجود، وَقد قضى على الدولة الزنكية في بلاد الشام عام ٥٧٠هـ بعد موت نور الدين. وقد بدأ اولاً بالاستيلاء على دمشق ثم على حمص وحماة ولما وصل إلى حلب قاومه سكانها مقاومة شديدة تحت قيادة الصالح إسماعيل بن نور الدين الذي استعان بالإسماعيليين لصدّ صلاح الدين عنها ثم استنجد بأمير طرابلس الصليبي ريموند فأنجده بجيش كبير فانسحب صلاح الدين عنها ثم عاد إليها عام ٥٧١هـ، فحاصرها وصالحه حاكمها عماد الدين، وبعد أن بقي فيها فترة التفت إلى محاربة الإسماعيليين فحاصر إعزاز وبزاغة فوثب عليه إسماعيلي وضربه بسكين في رأسه وجرحه ولكن لم يستطع القضاء عليه. ثم قام بحصار مصياف مركز الدعوة الإسماعيلية في بلاد الشام، ومقرّ سنان راشد الدين زعيم الإسماعيليين آنذاك وداعي الدعاة في بلاد الشام (برتبة وزير)، وقد توسط خال صلاح الدين حاكم (حماة) المدعو شهاب الدين الحارميّ، وكان صديقاً لسنان راشد الدين، بين الجانبين، وأقنعهما بالصلح والاتفاق والاتحاد يداً واحدة لمحاربة الصليبيين الأعداء فتم له ذلك عام ٥٧٢هـ.

لا شكّ أن العلويين والشيعة عموماً فقدوا سنداً قوياً بانقراض الدولة الفاطمية، وقد تعرّضوا للأذى والاضطهاد على أيدي الزنكيين السلاجقة الذين أرغموهم على النزوح من المدن والسفوح الجبليّة والالتجاء إلى المعاقل الجبلية ليحافظوا على حياتهم.

وقد قام السلاجقة (التركمان) والأيوبيون الأكراد بإسكان التركمان والأكراد بين العلويين في القرى الآهلة بهم ليمنعوهم من التكتل ومن مقاومة الحكام وليرصدوا تحركاتهم وأعمالهم.

كان صلاح الدين في بداية حكمه عنيفاً في معاملة الشيعة وقاسياً في عقابه لهم ولكن لما تمّ له توحيد مصر والشام واليمن والموصل وأصبح قادراً على مجابهة الصليبيين رأى أنه من الخير توحيد قلوب كافة الفئات الإسلامية للقضاء على الصليبيين وطردهم من البلاد العربية ولذلك اتفق مع مختلف فئات الشيعة على محاربة العدو المشترك، واستعان بفدائيي الإسماعيليين فقتلوا له المركيز صاحب صور وكان شديداً على المسلمين (٥٨٨هـ) وقتلوا له برنس طرابلس (ريمون) وكان كثير التعرّض لقوافل المسلمين التي تسير بطريق الساحل ويقال إن التعاون بين صلاح الدين والشيعة فوّت على بقايا أسرة زنكي القضاء على الدولة الأيوبية ويقال أيضاً: «إن الأمير يوسف ابن عمّ صلاح الدين تاق للسكن في بلاد الإسماعيليين فاستوطن بلادهم، ويقال إن أسرة الأمراء الإسماعيليين تمتّ بنسبها إلى ذاك الأمير». [١١٤]

بل نرى بعد ذلك أحد أفراد الأسرة الأيوبية يتحوّل إلى المذهب العلوي ويعتنقه ونعني به ملك حماة (أبو الفداء عماد الدين بن إسماعيل)، وسنشرح أمره بالتفصيل. . .

استطاع صلاح الدين هزيمة الصليبيين يوم السبت الخامس عشر من ربيع الأول عام ٥٨٣هـ في معركة حطين المظفرة، وقتل من الصليبيين ثلاثين ألفاً وأسر مثلهم.

وفي العشرين من رجب ٥٨٣هـ حاصر بيت المقدس وبعد أسبوع من الحصار طلب الصليبيون الأمان مقابل فدية يدفعونها، وفتحت المدينة أبوابها في ٢٧ رجب وتحرّرت بعد احتلال دام تسعين عاماً، ثم بدأ بتحرير المدن والمناطق حولها. وفي جمادى الأولى ٥٨٤هـ حرّر طرطوس وجبلة واللاذقية وقلعة صهيون وقلعة برزية في جمادى الثانية وقلعة دَرْبَسَاك في شهر رجب وهي قلعة حصينة قريبة من أنطاكية، واستولى على قلعة بغْراس وهي قريبة من أنطاكية أيضاً.

وفي أزمنة تالية حرّر صفد وكوكب والشقيف ويافا وعكا وحيفا والناصرة وبيت لحم وصيدا وبانياس والدامور قرب بيروت، وفي عام ٥٨٨هـ عقد هدنة مع ملوك الصليبيين، وبعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء ٢٧ صفر عام ٥٨٩هـ توفي في دمشق ودفن فيها.

يقول الشيخ عبد الرحمن الخيّر في رده على الطويل: «إن العلويين هم الذين ساهموا أكبر مساهمة في الدفاع عن الثغور الإسلامية، فدولة بني حمدان منذ عهد سيف الدولة كانت تحمي الحدود الشمالية والأمراء العلويون في سورية وجنودهم من العشائر العربية

الصريحة الأنساب ساهموا جميعاً أكبر مساهمة في قتال الحملات الصليبية الواحدة تلو الأخرى قبل صلاح الدين وعلى عهده وبعده، وصلاح الدين بقضائه على قيادات العلويين في مصر كما في سورية أضعف المسلمين من جهة، وإن كان سار بهم إلى النصر في بعض مواقعه من جهة أخرى». (١١٤مكرر)

وفي النصف الثاني من القرن السادس الهجريّ ظهرت بوادر حركات جدلية بين العلويين، وانتهز بعض ضعاف النفوس انصراف العلويين للجهاد ضد الصليبيين فصار يدعو لنفسه ليصبح رئيساً أو زعيماً أو عالماً أو فقيهاً، ونلمس ذلك في وصيّة كتبها الرئيس خليفة بن عبد الله بن سالم التّنوخيّ ٥٢٠ ـ ٥٨٠هـ إلى جابر بن جبلة تلميذه يقول فيها: «يا بني قد نشأ في زماننا هذا أقوام أظهروا البدع، وتخلّوا عن الورع.. وهؤلاء أقوام اتّخذوا دينهم هزواً ولعباً يتأكلون بالدين، ويتسمّون مؤمنين، وهم عن التذكرة معرضون وعمّا قليل ليصبحنّ نادمين. وينصحه بأن يتجنب معاشرتهم ومذاكرتهم ويتوقّى صحبتهم وطريقتهم لئلا يقع في الفتنة ويرجع إلى المحنة، ثم يوصيه بقوله: فأوّل ما أوصيك الإيمان بالله ورسوله الكريم محمد ﷺ ويطلب إليه أن يطلب العلم ويتفقّه بالدين لقول الرسول ﷺ «إن فضل العلم أحبّ إليّ من فضل العبادة. فالعلم خليل لا يضجرك، وأنيس لا يهجرك فإذا جعلته دثارك وشعارك ليلك ونهارك وجدت رأيه حَفظَكَ». (١١٥)

ولعل هذه الحركات الجدليّة كانت مقدمة لما سيحدث بين العلويين من اختلاف وظهور أصحاب المقالة الثامنة في بداية القرن السابع الهجري.

ولم يعدم القرن شخصيات عظيمة في القيادة والعلم والتأليف بل يعتبر هذا القرن قرن المؤلفين والعلماء فقد نبغ فيه جمال الدين بن محمود بن طرخان الدعّان الحلبيّ العالم العلامة ممدوح الشاعر المنتجب، والشيخ عليّ بن بدران المهاجريّ الخديجيّ وكان رئيساً مدحه المنتجب وأثنى عليه لكرمه وجوده.

والسيد منصور المفلحي الذي كان أريحياً تقياً، ماجداً لوذعياً، وعالماً له تآليف شتّى. وأبو رشيد الصّابريّ العالم النبيل ولعلّه كان يسكن في شيزر.

والسيد أحمد السعدي العالم الذي كان له شرف الردّ على المخالفين المعاندين سراج الدين وزمرته، وكان يسكن العراق وينظم الشعر.

وفي هذا القرن نبغ الشيخ أحمد قرفيص. وهو العماد أبو الحسين أحمد بن جابر بن جبلة بن أبي العريض البانياسيّ، وهو العالم الفيلسوف صاحب المنطق والعلوم العقلية وقد اعتبر من أجّل علماء الشيعة العلويين وفلاسفتهم، تكلم عن سبب حركة العالم وسكونه فقال:

«فالحركة إمّا طبيعية كحركة الحجر إلى أسفل طلباً للمركز، والنار إلى فوق طلباً للأثير، وإمّا قسرية كحركة الحجر إلى فوق، أو كحركة كلّ ما ليس فيه شيءٌ يضادّ عنصره.

والحركة الاختيارية ليست إلا لما فيه نفْس، فالنفس هي المحرّكة، وهذه النفس معلولة النفس الكليّة، التي هي باب الرحمة وينبوع الحكمة.

والنفس الكليّة تتحرك بجرمها السماوي إلى علّتها الذي هو العقل حركة تشوّق إلى تلك العلّة الفاضلة، والنعمة الشاملة فهو يتحرك لطلب تلك العلّة الفاضلة ولا يسكن دونها، كحركة العاشق إلى معشوقه، وكل متحرك إذا بلغ غايته سكن كالمتحرك حركة طبيعية أو قسرية». (١١٦)

ضريح الشيخ أحمد قرفيص في برج قرفيص وهي قرية تقع على رأس نبع السن بمسافة قريبة شرقاً، ويستطيع المشاهد أن يميّز الضريح الموجود قرب المسجد الذي يؤلف مع الضريح بناءً بعشر قباب متلاصقة (بناها المقدم أحمد بن مخلوف الكلبي).

وهذا عالم اسمه عليّ بن محمد الزجّاج يموت كمداً لأنه فقد كتاباً عزيزاً على نفسه، اختطفه طائر كبير الحجم، وكان يجفف في حرارة الشمس من بلل أصابه، فاختطفه الطائر ورمى به في شارع المدينة في سنجار، فالتقطه قوم لم يعرفوا الفوائد الموجودة فيه فطرحوه في النار فلمّا سمع صاحبه بما فعلوه بكتابه مات من الغد كمداً وغبناً.

وتقتضي المعرفة أن أقدم لك الشيخ أحمد الهرماسيّ الشاعر وأن أقدم لك قسماً من (حرزه: تميمتة) الذي نظمه شعراً وتوسّل فيه بسور من القرآن الكريم بأسماء الأئمة عليهم السلام لردّ الأذى والشفاء من الأمراض والأسقام، يقول:

تبدّيتُ باسم الله في أوّل السطر ... وأسماؤه حصنٌ منيعٌ من الضرّ
وصلّيتُ بالثاني على خير خلقه ... محمّد المبعوث بالفتح والنّصر
تعوّذتُ بالرحمن سرّاً وجهرةً ... من الشكّ والشيطان ما دمت في عمري

باسمك يا ذا العرش أفتتح الدعا ... وأنثال بالأقسام ما مُدّ في عمري
فسبحانك اللهمّ أنت إلهنا ... بديع السموات المدبّر للأمر
إلهي بحقّ أمّ الكتاب التي لها ... من الفضل ما لا نَحْتصيه ولا ندري
بالأنعام، بالأعراف يا ربّ جيرنا ... بالأنفال يا ربّ سهّل بهم أمري
بسورة ياسين المعظّم قدره ... وما هي إلا كالعروسة بالخدر
بسورة خير الأنبياء محمّد ... عليه سلام الله بالسرّ والجهر
وبالمصطفى المبعوث من آل هاشمٍ ... محمد خير المرسلين النبيّ الطهر
بحقّ عليّ المرتضى وبفاطم ... وبالحسنين السيدين هما ذخري
أجبنا بما ندعوك أنت إلهنا ... بكشفك بلوى من كآبة ومن ضرّ
وعجّل لنا بالنصر بالقائم الذي ... ذخيرته مولاي في آخر العمر
ومن ألم الحمّى ومن كيد بردها ... ومن ألم الأرياح والضرّ والسّحر
ومن رمد العينين والبأس كلّه ... ومن شرّ ما نخشاه من ألم الشرّ
وانفع به الإسلام يا ربّ كلهم ... فإنّك تقضي ما تشاء من الأمر
وإن كان مسحوراً بملحٍ وخردل ... ونيلٍ وكبريت ويدفن في القبر
وشمع ومسمار ونعلٍ وحنظلٍ ... وآذيَة يا صاح تُرمى على الجمر
وإن كان سحّاراً فيبطل سحره ... بتوراة موسى بالصحائف بالزبر
وإن عُلّق الحرز العظيم على امرئ ... يخشّ على الحكام في أوّل الأمر
وإن كان هذا الحرز في مهد مرضعٍ ... فيحفظه ربي من العين والضرّ

تراجم من القرنين الخامس والسادس:

١ ـ جمال الدين بن محمود بن طرفان الحلبيّ الدهّان:

كان عالماً علامة سامي الهمة، مدحه الشاعر المنتجب وأثنى عليه بقصيدة مطلعها:

لعاذلي قلبٌ ولي قلبٌ ... مقسّمٌ بين الورى نهبُ

(خير الصنيعة ٢٩٣)

٢ ـ الرئيس خليفة بن عبد الله بن سالم التنوخي ٥٢٠ ـ ٥٨٠هـ:

وليّ آل محمد ﷺ كان عالماً بارعاً فاضلاً له تآليف منها وصيّة لولده جابر بن جبلة ولعلّه أبو الشيخ أحمد قرفيص، وهي وصيّة غرّاء نصّ عليها حاتم الجديلي بكتابه (التجريد) والظاهر ان زمانه كان فيه بدعٌ وتخبيط واختلاف آراء حيث يقول: «يا بنيّ قد نشأ في زماننا هذا أقوامٌ أظهروا البدع وتَخلّوا عن الورع».

(خير الصنيعة ص٢٩٤).

٣ ـ منصور المفلحي صاحب الرسالة المنصورية:

كان أريحياً تقياً، ماجداً لوذعياً تمادح والمنتجب وأثنى عليه المنتجب، ذكره حاتم الجديلي في التجريد وذكر أنه تصدّى لسراج الدين صاحب البدعة وألّف رسالة في الردّ على بدعته.

(خير الصنيعة ص٣٠٨).

٤ ـ الشيخ يوسف بن سلمان المعروف بابن صفيفات (القرن السادس):

الصفيفات مزرعة في جرد صافيتا تبعد عن الدريكيش ٢٠ كم شرقاً فشمالاً عمّر سبعين عاماً ذكره الصويري والأجرود ومدحاه، له ديوان شعر كبير فهو شاعر مجيد يجمع في شعره بين الرّقة والانسجام. من شعره:

وميّز القــــرآنَ تلـــوَ كَلمــاً ... أنزل في وحي النبيّ المصطفى
من سورة الحمد إلـى أن ينتهـي ... يجلي به الله عن القلب الصـ..

(المغمورون القدامى ص١٦٦).

شخصيات من القرنين الخامس والسادس:

١ ـ علي بن الفضل وإخوانه وسكناهم حلب.

٢ ـ عفيف الجمّال وذووه وسكناهم حلب.

٣ ـ الفهريّ بن سرب جناح المالكيّ الشاعر اللغوي. من نظمه:

لا يبصر الحقّ إلا قلبُ عارفــــه ... والعارفون لأهل الحقّ أنصارُ
إن الكواكبَ فــي الأفلاك دائــرةٌ ... ومثلها للورى في الناس أقمارُ

٤ ـ الشيخ نصر الدوارة التنوخي الشاعر من وادي الأحمر

المراجع

١٠٧ ـ الصليبيون في الشرق ص١٣٨ .

١٠٨ ـ من كتاب الاعتبار منشورات وزارة الثقافة ـ دمشق ص٢٢٥ .

١٠٩ ـ شعر الجهاد في الحروب الصليبية ص٤١ .

نقلاً عن كتاب الروضتين ج١ ص٣٠ .

١١٠ ـ تاريخ مصر الإسلامية ص٢٨ .

١١١ ـ تاريخ مصر الإسلامية ص٢٦ .

١١٢ ـ تاريخ مصر الإسلامية ص٢٦ .

١١٣ ـ الفلك الدّوار ص٢١٥ عن تاريخ أبي الفداء .

١١٤ ـ الفلك الدّوار ص٢٢٠ .

١١٤مكرر ـ تاريخ العلويين نقد وتقريظ ص٤٠ .

١١٥ ـ خير الصنيعة ج١ ص٢٩٤ .

١١٦ ـ خير الصنيعة ج١ ص٣١٨ .

١١٧ ـ خير الصنيعة ج١ ص٣٢٣ وما بعدها .

الفصل الحادي عشر

العلويون في القرن السابع الهجري

أهم أحداث هذا القرن:

١ ـ انقسام في العلويين في بداية القرن.

٢ ـ الأمير حسن المكزون السّنجاريّ يحارب الشعوبية المتسلطة.

٣ ـ انقراض الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك البحرية عام ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م.

٤ ـ نهاية الخلافة العباسية ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م.

٥ ـ هجوم التتار على بلاد الشام ومصر ومعركة عين جالوت عام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م.

لا بدّ من العودة قليلاً إلى الوراء، وإلى عام ٥٨٩هـ عام وفاة صلاح الدين الأيوبيّ إذ بعد وفاته اقتسم أولاده وأخوته وأولاد أخوته ملك إمبراطوريته الواسعة فتفشّى الخلاف فيما بينهم وحاربوا بعضهم بعضاً، وتحزّب المحكومون لحاكمهم فضعفت الأمة من جديد، واشتدّ ساعد الصليبيين فاستردوا بعض المدن والقرى التي حرّرت من قبل صلاح الدين، بل وهاجموا مصر وبلاد الشام، وعاد التحزّب الطائفي ـ وما أبغضه ـ من جديد، وتعرّض العلويون في هذه الفترة لخطرين أحدهما من الصليبيين الذين أرادوا التوغّل في بلادهم من جهة الساحل، والخطر الثاني من الإسماعيليين المتحالفين مع الأكراد وبخاصّة في جهات اللاذقية وأنطاكية وريف حماة. يقول الشيخ محمود الصالح في كتابه (النبأ اليقين عن العلويين) عن تلك الفترة من الحكم الأيوبي:

«كان موقف العلويين آنذاك بالغ الخطورة والرّهبة، فهم بين نارين ملتهبتين! عسف الولاة، وعاديات القرامطة الإسماعيليين، وأنكأ من هذا كله عجزهم عن درء أي الخطرين قبل وضع الحرب الصليبية الإسلامية أوزارها لأن الواجبين الديني والوطني كانا يقضيان عليهم بالتعاون ولو مع مبغضيهم لاستنقاذ البلاد من أيدي الغزاة الطّامعين وإقصاء الدخيل الأجنبيّ عنها، فنسوا مصالحهم الخاصة وتناسوا سوء جيرانهم وسوء معاملتهم في سبيل

المصلحة العامة وأبلوا في تلك الحروب الضّروس بلاءً حسناً، تلك الحروب التي كادت تأتي عليهم لوجودهم جغرافياً في أتونها الملتهب فقاتلوا قتال المستميت ذوداً عن مقدسات دينهم ومقدرات بلادهم ودفاعاً عن نفوسهم» .(١١٨)

قبل أن نتابع سرد وقائع القتال مع الإسماعيليين لا بدّ من وقفة متأنية لنشرح حدث عارض في مسيرة العلويين بدأ في بداية هذا القرن، فقد ظهر في عام ٦٠٣هـ كتاب يقال له: الناميه لمن يدعى سراج الدين وقد أراد هذا أن يكوّن أتباعاً عن طريق الشعوذة والتدجل، وادّعاء أفكار ومقالات تسيء إلى العلويين وكأنه يعيد أفكار إسحق الأحمر .

وقد حضر إلى مدينة حماة وصار له بعض الأتباع، وفي حمص استمال المدعو سنان قزحل (قزحل قرية صغيرة غربي مدينة حمص، وكانت تضم نسبة كبيرة من العلويين، واليوم جلّ سكانها من التركمان، مشهورة بزراعة الحمّص) .

وسنان قزحل لم يكن علوياً وإنما استماله سراج الدين وجعله علوياً على طريقته، ورسمه نائباً له .

وكانت لسنان مكانة في مدينة حمص، وله دكاكين ومحلات تحوي بضائع شتّى، ويتعامل مع كبار التجار، ويقدمون عليه من عانة والبصرة والموصل، وينزلون في ضيافته .

وبهذه الوسيلة استطاع ضمّ بعضهم إليه فكان من أتباعه: حسين الجبيلي، وشدّاد، وتبعهم في حمص قوم، وكذلك في عانة، وبغداد، وجوبهوا في حلب وحماة بالرفض والطرد، وفي حمص ناظر (حاتم الجديلي) سنان قزحل عام ٦١٥هـ، وأفحمه ودحض حججه فانفضّ عن سنان قسم كبير من تلامذته وأتباعه، وفي حماة طرد سراج الدين من قبل أقربائه، وتصدّى له عليّ بن بعراط الحموي فولّى إلى حلب فأخرج منها بعد ضربه وتهديده بالذبح، فذهب إلى عانة فرتع فيها قليلاً ثم ضويق وحوصر، ونُبذ، وهُدّد فاتجه إلى بغداد وطرح أفكاره فرفضه علويّوها، وتصدّى له العلامة جمال الدين الدهّان والعلامة موفق الدين الأبنوسي فتحوّل إلى واسط ثم إلى قرية بقربها، فيها قوم من الإسحاقية، فرحّبوا به أول الأمر وأطعموه وكسوه ثم اخرجوه مضروباً حافياً عارياً، فمات كمداً وغيظاً في البراري فأكلت جثته الوحوش وحوش الفلاة .

تصدّى لمقالة الثامنة ولأتباعها حاتم الجديلي، وصفي الدين الفارقيّ، والأمير حسن المكزون السنجاري وعثمان بن الشمّاع، والسمرقندي، وسمنديار النّصولي الموصلي، ومنصور المنلحي، وشمس الدين عبد الجبّار. ويموت سراج الدين وسنان تلاشت أفكارهما [illegible] أتباعهما.

من عرض قصّة سراج الدين وسنان أرى أن العلويين كانوا يقطنون المدن الكبيرة وكانوا يعيشون بحرية مطلقة ولهم محلاّت تجارية، وكان فيهم علماء يجتمعون للمناظرة والمجادلة، وأرى أنه كان لهم وجود كبير في حماة وحمص بالأخصّ الأخصّ مثلما هو الحال اليوم. وقد اطّلعت على أنهم كانوا في حماة يسكنون في حيّ يدعى باب العميان، وهذا الحي يتردّد اسمه كثيراً في أخبار العلويين في حماة.

وكان ريفا حماة وحمص مشحونين بالعلويين كشأنهما اليوم. ولقد روى لي السيد خالد الزهراوي حفيد الشهيد المعظّم عبد الحميد الزهراوي أخباراً عن مئة أسرة حمصية معروفة بعلويتها إلى زمن قريب ومن هذه الأسر آل الدرويي وآل رسلان وآل ملّوك، وآل القاسمي، وآل حبوس.

أمّا آل السباعي فقد كانوا من العلويين الأوائل في حلب ثم تحولوا إلى مذهب السنة، وأحد أجدادهم مدفون في قرية (عرقايا) القريبة من مدينة حمص وضريحه (مزار) يزار وهو صاحب كرامات عند العلويين وسنشرح أمره بالتفصيل بعد إيراد أخبار المكزون السّنجاري.

وانتشار التشيّع في بلاد الشام قديم ويتحدّث مؤلّف كتاب (تاريخ حمص ص١٧٨ القسم الثاني) عن ذلك فيقول: «حمص عَنَت لسلطة الفاطميين قبل ٤٠٦هـ إذ انتشر المذهب الشيعي فيها بتأثير الحمدانيين ولم يصعب على سكانها دخول الفاطميين بلدهم وهم علويو المذهب، وسرت فيهم الروح الشيعية من أواسط القرن الرابع الهجري حتى إنهم أخذوا يؤذنون آذانهم منذ سنة ٣٤٧هـ/ ٩٥٧م إذ أضافوا إليه بعد (حيّ على الفلاح حيّ على خير العمل، محمد وعلي خير البشر)، كما أنهم أضافوا إليه (بعد محمد رسول الله أشهد أن عليّاً بالحق وليّ الله) نقلاً عن المقريزي ج ٤، ص٤٦».

وفي التقاليد التي سمعناها كابراً عن كابر أن الفاطميين كانوا يصلّون في جامع (علي) وهو الجامع ذو المأذنة الشّاهقة التي عصفت الأيام بأعلاها فقطمته وعرفت بعدئذ بالمأذنة

المقطومة. ويقال إن الذي قطم هذه المأذنة إنما هو السلطان سليم الفاتح الذي كان يكره العلويين وأراد أن يمحو كل أثر للفاطميين في البلاد ولذلك هدم عدّة أبنية من آثارهم أو من أملاك مريديهم في حمص وحماة.

وينقل عن ياقوت الحموي ٥٧٤ ـ ٦٢٦هـ المبغض للإمام عليّ ﷺ قوله في معجم البلدان: «ومن عجيب ما تأملته من أمر حمص فساد هوائها وتربتها اللذين يفسدان العقل حتى يضرب بحماقتهم المثل (ياقوت من مدينة حماة المجاورة لحمص، وكان سكانها يتعصّبون ضدّ أهل حمص) ويتابع: إن أشدّ الناس على عليّ (رضي الله عنه) بصفّين مع معاوية كان أهل حمص وأكثرهم تحريضاً عليه، وجدّاً في حربه، فلما انقضت تلك الحروب ومضى ذلك الزمان صاروا من غلاة الشيعة حتى إن في أهلها كثيراً من رأى مذهب (النصيرية) وأصلهم الإمامية». (معجم البلدان ج٣، ص٣٤١).

بقي أن تعرف أن ياقوتاً هذا توجّه إلى دمشق سنة ٦١٣هـ/ ١٢١٦م، وناظر بعض المتعصبين لعليّ ﷺ فثار عليه الناس فنفر فطلبه الوالي فلم يظفر به.

ولنا في قصّة رجال الدعوة الذين قدموا إلى حماة بناءً على طلب حاكمها للابتهال إلى الله كي يمنّ عليهم بهطول المطر بعد احتباس دام أكثر من سبعة أعوام دليل على تأثير العلويين. فقد سمع ذلك الحاكم أخباراً عن فضل رجال الدين العلويين وعن كثرة ابتهالاتهم فأرسل إلى بعض شيوخهم ليقدموا عليه فاختار من بينهم الشيوخ حاتم الطوباني، وصبح الضويعة، ومرشد حريصون، وإبراهيم طرطوس، ونور الدين، وشيوخاً آخرين فتوافدوا إلى حماة وأقاموا صلاة الاستسقاء وابتهلوا فاستجاب الله إلى ابتهالاتهم وأمطرت السماء غيداقاً مدراراً بعد احتباس دام أعواماً عديدة فأكرمهم الحاكم وأجلّهم وعظّم من شأنهم فطارت لهم شهرة واسعة في البلاد فأطلق عليهم العلويون لقب (رجال الدعوة)، وقد طارت شهرة الشيخ حاتم الطوباني بخاصّة لأنه أسر من قبل الإفرنج الصليبيين فبيع عبداً في قبرص، واشتراه رجلٌ ورد به مصر، ولمّا رأى حسن عبادته واجتهاده في أمور الدين أطلق سراحه وأعتقه فعاد إلى بلاده ومرّ بحمص فحماة، واستقرّ في قرية (محورتة ـ بانياس الساحل) في حيّ من أحيائها وهو (طوبى) فنسب إليه. توفي ٦٥٠هـ.

أما حاتم الجديلي فقد توفي عام ٦٧٧هـ ودفن في قرية (برمانة المشايخ) قرب وادي العيون، وله ضريح يزار ويقربه شجرة معمرة لمئات السنين (وكان عالماً منزّهاً).

لم يتضرّر العلويون في مطلع القرن بدعوة سراج الدين وخزعبلاته ولكن ضررهم حصل من جرّاء اعتداء الإسماعيليين، فقد تحالف جمعٌ من الإسماعيليين والأكراد والتركمان، وهم مجاورون للعلويين وبخاصة في ريف حماة ضد العلويين، وأجلوهم عن بعض مناطقهم وكان الإسماعيليون مقرّبين من حكام الأيوبيين لأن السلطان صلاح الدين الأيوبي أدخلهم ضمن المعاهدة التي وقعها مع الصليبيين عام ٥٨٨هـ، وكانت المعاهدة تنصّ على عدم الاعتداء عليهم وعلى أملاكهم من قبل الصليبيين.

وقد استنجد العلويّون بالأمير المرسل الكلبي الكناني التنوخي (السنجاري) من سنجار الشام ومعه الأمير الشاعر الفيلسوف المكزون السنجاري المنتهي نسباً إلى القائد المظفّر المهلّب بن أبي صفرة الأزدي، وكان الأمير يتخذ سنجار موطناً له، فقدم بجيش قوامه ٢٥٠٠٠ رجل محارب ولمّا وصل إلى قرية أبي قبيس في سهل الغاب (هي اليوم متنزه معروف) وكان ذلك عام ٦١٧هـ، اعترض طريقه الذين ذكرناهم مع حلفائهم بجيش كان أكثر عدداً وعدّة، فلم يستطع أن يحقّق نصراً كاسحاً فعاد إلى سنجار ثم عاود زحفه عليهم عام ٦٢٠هـ بجيش بلغ تعداده خمسين ألفاً، وانضم إليه العلويون من عدة مناطق وخاض معركة حاسمة معهم ودحرهم فيها وأزال نفوذهم من المنطقة، وأبعد المعتدين إلى مناطق قصيّة عن منطقة أبي قبيس، ثم قفل عائداً إلى سنجار بعد أن نظم أمور العلويين. (١١٩)

شكّك بعض المفكرين العلويين المعاصرين ومنهم الشاعر حامد حسن في مسألة قدوم المكزون من سنجار العراق، وأورد أسباباً وجيهة منها؛ كيف يستطيع المكزون تشكيل جيش في العراق ثم يقدم به إلى حماة أو سهل الغاب وبين المكانين مسافة بعيدة؟ بل كيف يسمح له بمحاربة أناس يتبعون لحاكم يختلف عن حاكم بلاد سنجار؟ وبهذا يكون الأمير المرسل وحده قائد الحملة. وبعد التدقيق في أسماء الأماكن الجغرافية وجد أن منطقة ثانية باسم سنجار موجودة في سهول وسهوب المعرّة وليس من المستبعد أن يكون المكزون قد حضر إلى المنطقة (أبي قبيس) من سنجار المعرّة ثم نظم الأمير المرسل علويي منطقة أبي قبيس وما حولها بجيش استطاع به دحر خصومهم وإجلاءهم عن المنطقة وهو أقرب للصواب.

وقد ذكر لي انه يوجد في بلدة سلحب القريبة من أبي قبيس ضريح يزار لابن شقيق الأمير حسن المكزون.

ولد الأمير حسن بن يوسف الملقب بالمكزون عام ٥٩٠هـ في سنجار وكان والده أميراً فيها، وقد نشأ نشأة علوية مع ميل إلى التصوّف، وتثقّف ثقافة عربية إسلامية، وتبحّر في الفلسفة، ونبغ في نظم الشعر في بداية القرن السابع، وقام بتأليف رسالة فلسفية عام ٦٢٠هـ، وألّف رسالة ثانية فيها ردّ على الملحدين وعلى المشعوذ سراج الدين.

يحتل الشاعر الفيلسوف الأمير حسن المكزون مكانة كبيرة عند العلويين، وبعض الأسر العلوية لا تزال تنسب له متصلةً بنسبه حتى اليوم ومنها أسرة الشيخ سليمان الأحمد والد الشاعر بدوي الجبل الذي شرح ديوان المكزون شرحاً وافياً وقرّبه إلى الأفهام.

وقد صدر كتاب للدكتور أسعد علي عنوانه (معرفة الله والمكزون السنجاري) تحدث فيه عن فلسفته وصوفيته وعرفانه. أما الشيخ حسين ميهوب حرفوش فقد وصفه بهذا القول: «ولنتكلم عن الرجل وغزارة علمه وفضله. له الديوان المشهور، جمع فيه رقّة الغزل، ومتانة الأسلوب والذي تغنّت بشعره الركبان وتحلّى به جيد الزمان، وجرى على كل لسان وبنان، وأجلَّ حكماء المغرب مقام فضله وعزّ على القرائح أن تترخّص بمثله.

كان عليه السلام ورعاً، زاهداً، صوفياً من الفانين في الله ويقال إنه وصل إلى مقام عند الصوفية يسمّى (مقام الحيرة) للحديث: (ربِّ زدني فيك حيرة) حتى قال بعضهم: إن المكزون جوهرة جاءت إلى الوجود، وذهبت فلم يعرفها إلا الأقلّون.

ولقد أجاد العلامة الشيخ سليمان الأحمد شرح الديوان حتى أصبح ورداً يعذب. ولو رمنا أن نستقصي فضل هذا العرّيف لم يسعنا ذلك لأنه صوفيّ ولسنا هناك، وله من القصائد ما طال إلى متني بيت وأكثر وغيرها ممّا قلّ أو كثر من قطع وأبيات، ومنها القصيدة (الوهبيّة) التي تكلم فيها عن متن المنطق كله وغيره من العلوم كالنحو والصرف والهيئة . . . ومحتويات قصائده علوم شتّى؛ نحو، فصرف، فبديع، فبيان، فهيئة، فمنطق، فعلم الجبر والمقابلة، والجذر والفلسفة، أي الحكمة الطبيعية». [١٢٠]

من شعره:

طليق دمـوع لا يفـكّ لـه أسـرُ	فلي عنه من كره به في الوغى الفرُّ
وكالميتِ حيٌّ دام في الـذلِّ راغباً	عن العزّ بالعيش الذي حلوُه مرُّ

وأيّ حياة ينعـــم البـــال طولـــها ... ودون المنى للمرء في ودّها قصرُ
وشيب الفتى فيه انتهــــاء شبابـــه ... وستر عوار الشائب الهرم القبر
فـــرح منفـــقاً عصـــر الشبيبة فـــي العلى ... وقل لكبير المجد عمر الفتى مهرُ
فأولُ عمر المرء مضـــمار سبقـــه ... وما فيه للواني ظهيرٌ ولا ظهرُ
وأولى الورى بالـــمدح من عمّ فضله ... الأنام ومنهم عمَّ أنعامه الشكرُ
وإن أشرّ الناس ذماً لنـــفـــه ... إذا افتخروا من بالرّفات له الفخر.

ومن شعره ايضاً:

كن كالزناد يقـــدّ ناراً قـــدحه ... للناس والملوس منه باردُ
أو كالجبال تـرى العقـــول مـــرورها ... ولدى العيان لهنّ هنّ جوامدُ
وابغ المسير إلـــى العلـــى كالتفس في ... أفكارها والجسم منها قاعدُ

استلهم البيت الثاني من الآية الكريمة **﴿وترى الجبال وتحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب﴾**.

إني أراه مؤمناً بدوران الأرض من خلال البيت الثاني ومعناه، وأراه مفكراً عالماً من معنى البيتين الأول والثالث، فليت قومي يعلمون!!! . .

ومن حكمه:

الحـــزم زيـــنٌ للفتـــى ... وشـــينـــهُ الـتـهـــوّر
والجهـــل للصـــاحـــي مـــن ... الـخـمـرة خـمـرٌ مـسـكـرُ
ومـــوسرٍ يـبـــخل أهـــنا ... مـنـه سـمـحٌ مـعـسـرُ
وشـــاهدٌ بنقـــصـــه ... مَـن بـمـواه يـفـخَـرُ

ومن شعره الصوفي:

أهـــلَ النّقـــا لا بقيـــتْ بعدكـــم ... مـهـجـةُ صـبّ رغبَتْ بـالـبَقا
كـــلاّ ولا سُرّتْ بنيـــل المـــنى ... إن سرّها يوماً تمنّي اللقا
[الحب لله بالله]

الشيخ سليمان الأحمد شارح الديوان يعلق على البيتين بقوله : «ولم أرَ في مدّة العمر على ما بلغه علمي أبلغ من معنى هذين البيتين في الإخلاص» .

عاد المكزون إلى سنجار العراق أو بقي في سنجار أبي قبيس ونظّم شؤون العلويين في ريف حماة وحلب واللاذقية ، غير أن العلويين الذين يسكنون في حمص ودمشق وجبال لبنان ووادي التّيم كانوا يعيشون تحت الحكم الأيوبي عيشة غير مرضية إن لم تكن معيشة قهرٍ وظلمٍ وعسف .

فهم مبعدون عن الحكم كأنه ليس من حقّهم أن يأخذوا حقوقهم المشروعة مثلهم مثل السكان العرب أصحاب البلاد الأصلاء ، لا ، بل إن الحكام يرتابون فيهم ويتخوّفون منهم ، ولذلك ضيّقوا عليهم الخناق بشأن ما ندعوه اليوم أحزاب المعارضة التي تناوئ سلطة الحكّام فإن أتباعها يبعدون عن الوظائف الهامّة في الدولة ، لا ، بل هم يتوجّسون خيفة من القبض عليهم كل لحظة يعنّ للحكام فيها اعتقالهم .

وهكذا كان حال العلويين فمن استطاع الصبر على القهر والبغي بقي في هذه الأماكن التي ذكرناها ومن لم يستطع هرب بنفسه وبعائلته إلى هذه الجبال الوعرة الصعبة المرتقى والمسالك ، لينشد فيها الطمأنينة والعيش الحر بين إخوانه ولذلك ازداد العلويون كثرة في جبال اللاذقية وفي أنطاكية وجرود كسروان والمتن ووادي التيم وقلّ عددهم في المدن الداخلية القريبة من مراكز السلطة وانتشروا في الأرياف القريبة من المدن وتجنّبوا الذهاب إلى هذه المدن ، وأظهروا التقيّة في تعاملهم مع سكان المدن أو مع من جاورهم من مذاهب أخرى ، وكتموا إيمانهم في صدورهم ، وقلّلوا من اختلاطهم بالفئات السكانية الأخرى وفرضوا على أنفسهم عزلة إجبارية ، وتركوا إقامة الصّلوات في المساجد لأنهم أصبحوا عرضة للانتقام .

والحكّام كانت لهم ملذّات ، وكانت لهم ملاهيهم فأنفقوا المال بغير حساب مثلما انتهبوه من الشعب قطعةً قطعة ! . .

هذه العزلة الإجبارية ولدت عند العامة من الفئات الأخرى قناعات تسيء للعلويين فتعرّضوا لهم بالأذى والاتهامات الباطلة ، فاستكانوا ورضخوا لما فرض عليهم ، والتفّوا حول رجال الدين الذين برز شأنهم نتيجة لاختفاء الزعامات السياسيّة والعسكرية والقيادية التي خافت على نفسها من العذاب والقتل .

ومن تلك الفترة ظهر رجال الدين طبقة مميزة تعاونت فيما بعد مع طبقة من حكّام العلويّين صار لهم سلطة فيما بعد.

قيام دولة المماليك:

الدولة الأيوبية لم تستمر طويلاً فقد سقطت مملكة بعد أخرى وكان ذلك عام ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م حيث قتل آخر الملوك الأيوبيين في مصر وهو توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب فأقام قواد الجيش المماليك زوجة الملك الصالح نجم الدين المسماة شجرة الدر ملكة على مصر، وهذه كانت تمتاز بالحزم والدّهاء، وقوّة الإرادة، وحسن القيادة فقد قادت معركة (المنصورة) ضد الصليبيين الذين كانوا يحاصرون دمياط، وقد استطاع المصريون أسر لويس التاسع ملك فرنسا وقائد الحملة الصليبية السابعة، وكان زوجها مريضاً وعندما مات أخفت أمر موته عن المحاربين وأدارت المعركة حتى وصل ابنه توران شاه من بلاد الشام.

وعندما حصل الانتصار على الصليبيين أراد توران شاه أن يقضي على قوّاد الجيش وحكام المدن والمقاطعات وكانوا مماليك اشتراهم الأيوبيون من بيت مال المسلمين، واستخدموهم أتباعاً وقوّاداً في جيوشهم.

ولمّا شعر هؤلاء بالخطر المحدق بهم ثاروا على توران شاه وقتلوه وعيّنوا زوجة أبيه شجرة الدر ملكة على مصر عام ٦٤٨هـ، وبذلك تكون أول امرأة تتولى الملك رسمياً في التاريخ الإسلامي، وتعتبر أيضاً أولى سلاطين المماليك البحرية.

ويقال إن سبب تسميتهم بالمماليك البحريّة يعود إلى أن الملك الصالح نجم الدين أيوب أسس فرقة من هؤلاء المماليك وسمّاها البحريّة نسبة إلى نهر النيل (المصريون يطلقون على النيل اسم بحر) وذلك لأنه أسكنهم في القلعة التي بناها خصيصاً لهم في جزيرة الروضة التي تطل على النيل. وهناك تفسير آخر وهو أنهم سمّوا بحريّة لأنهم جاؤوا إلى مصر عبر البحار.

لم يجد تولّي شجرة الدر الملك صدىً مستحباً في بغداد، فقد استنكره الخليفة العباسي ولم يرسل لها تقليداً بالموافقة مثلما كان متبعاً أيام الأيوبيين، وأرسل خطاباً إلى أهل مصر قال فيه: إن كان الرجال قد غاروا عندكم فأعلمونا حتى نسيّر إليكم رجلاً.

ولم يرضَ سكان مصر وبقيّة سكان العالم العربي الإسلامي آنذاك أن يكون حاكمهم امرأة، ولذلك بادر أمراء المماليك إلى تولية كبيرهم عزّ الدين إيبك السلطنة على مصر، فتلقّب بالملك المعز وتزوّج شجرة الدر التي أقدمت على خلع نفسها من السلطنة بعد أن حكمت مصر ثمانين يوماً. وقامت معارضة جديدة في وجه المماليك إذ أثيرت ضدّهم مسألة أنهم عبيد اشتراهم السلاطين من بيت مال المسلمين ولا يحقّ لهم تولي الحكم، وتغلّبوا على هذه المسألة بأن أشركوا في الحكم طفلاً أيوبياً أميراً عمره ست سنوات، فلم يرضَ الملوك الأيوبيون في بلاد الشام بهذا التصرف فهجموا على بلاد مصر بجيوشهم بقيادة كبير البيت الأيوبي الملك الناصر صاحب حلب، ولكن هذه الجيوش هزمت أمام جيش المماليك، وعندها أبعد المماليك هذا الطفل الصغير عن الحكم، وحكموا مصر مستقلين.

وخدمتهم الأقدار حينما داهم المغول بلاد الشام، وهزموا الملوك الأيوبيين فيها.

وعندما تقدّم المغول باتجاه مصر لاحتلالها خرج جيش المماليك لملاقاتهم بقيادة السلطان (قطز) فالتقى الجيشان في موضع يدعى (عين جالوت) عام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م وكاد المغول ينتصرون لكن قطز تقدّم الصفوف وهو يصيح: وإسلاماه!!.. يا الله انصر عبدك قطز على التتار. فاندفع جيشه وراءه وهزم جيوش التتار التي لم تهزم من قبل، هذه الجيوش التي أنهت الخلافة العباسية عام ٦٥٦هـ بعد حكم دام ٥٢٤ سنة.

بعد هزيمة المغول في عين جالوت انسحبوا من بلاد الشام عائدين إلى مراكزهم في إيران، وهنا يسّر الأمور لقطز فضمّ بلاد الشام حتى حلب إلى مصر فتوحد القطران من جديد وقد أعاد قطز بعض ملوك الأيوبيين إلى حكم بعض المدن مثل حمص وحماة ولكنهم كانوا تابعين لحكم مصر.

لم يهنأ قطز بانتصاره إذ قتل قبل أن يدخل القاهرة وهو عائد من بلاد الشام فقد وثب عليه (ركن الدين بيبرس) البندقداري وقتله وتولّى الملك ولقب نفسه بالملك القاهر ثم بالملك الظاهر بيبرس، وهو صاحب السيرة المعروفة (سيرة الملك الظاهر بيبرس) الملحمة الشعبية التي تعتز بنضال بيبرس ضد الإفرنج الصليبيين والجواسيس في الداخل والقيام بتوحيد البلاد العربية وإقامة العدل والقضاء على الظلم.

العلويون والمماليك:

فادى العلويون بأنفسهم في سبيل القضاء على ما تبقّى من الوجود الصليبي في بلاد الشام فساهموا في إزالة مملكة أنطاكية وطرابلس الصليبيتين يقودهم قواد عديدون، اشتهر منهم المقدّم سعد دبل الذي كان أحد مقدمي (الفداويّة) المعروفين الذين يفادون بأنفسهم في سبيل المصلحة الإسلامية والدين والوطنية. يقول مؤلّف (خير الصنيعة): «وكان هناك مقدّمون يتولون مقاطعات وقلاعاً وحصوناً يدبرون شؤونهم بتصرفهم وقوة إرادتهم، ويدفعون خراجاً للملك المصري وقتئذ ويحضرون عند الحاجة بين يدي السلطان المصري عند غزوة أو فتح حصن يباشرون الحربَ بأنفسهم واتفاقهم وهم شبع إحاطة على المصلحة الإسلامية من سنيّين وإسماعيليين وعلويين على رأيٍ واحد وخضوعهم للسلطان المصري الذي كان يجمع الكلمة الإسلامية هنالك (يفهم من هٰذا الكلام أن العلويين وغيرهم كانوا يتمتعون بالحكم الذاتي تحت إشراف حكام وقوّاد منهم) ومن أفذاذ الرجال العلويين المقدّم سعد دبل وأمثاله كالشيخ بدر الغفير والمقدم منصور العقابي ومعروف بن جمر وغيرهم من علية القوم». [١٢١]

هذه هي المرة الأولى التي نسمع فيها بذكر المقدّمين العلويين فهل لذلك علاقة باستلامهم قيادة كتائب في الجيش المملوكي ومحاربة الصليبيين؟ أم أن الكلمة كانت موجودة قبلاً ولم تظهر في أدبياتهم لأنهم لم يكونوا قادة في جيوش سابقة؟ أم أن هذه التسمية (الرتبة أو المنصب) قد أوجدها المماليك في بداية حكمهم؟

ومن الطّريف وجود تنازع بين العلويين والإسماعيليين حول الشيخ بدر الغفير، والمقدم سعد دبل، فقد ادّعاهما الإسماعيليون لأنفسهم حسبما جاء في الفلك الدوّار. [١٢٢] عندما استلم الظاهر بيبرس الحكم أراد أن يقضي على الإسماعيليين فقام بتجريد حملات عسكرية لفتح قلاعهم وحصونهم غير أنه لم يتمكن من فتحها، وعندما ازداد ضغط الصليبيين واعتداؤهم على المدن الداخلية، ثم عاد تهديد المغول من الشرق، رفع بيبرس الحصار عن الإسماعيليين واتّفق معهم على محاربة العدوّ المشترك، ووقع الاتفاق عميدهم موسى بن الحسن القصّار عام ٦٦٠هـ، وقد وضع الإسماعيليون تحت قيادته جيشاً يقوده فدائيوهم.

كان بيبرس من القواد المحنّكين والساسة الدهاة البارزين، وعندما شعر بالخطر المحدق بالأمة المتمثّل بالمغول والصليبيين معاً رأى أن يوحّد الأمة ويكبت التعصّب القائم بين الشيعة والسنّة ويقضي على الظلم الاجتماعي ويجعل أبناء الأمة يداً واحدة على الأعداء الطامعين بالأرض العربية. وهذا ما حصل إذ بهذه الوحدة الشعبية الوطنية استطاع أن يردّ عاديات المغول ومحاربة الصليبيين وإجلاءهم عن الأراضي العربية فحرّر صفد عام ٦٦٣هـ، ويافا وشقيف أرنون عام ٦٦٦هـ، وكان نصره الكبير حين قضى على مملكة أنطاكية فعمّ الفرح جميع الأراضي العربية الإسلامية لاستعادة أنطاكية وإجلاء الصليبيين عنها ثم انتصر على المغول انتصاراً كاسحاً وحاسماً عام ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م، ودخل قيصرية عاصمة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى بعد هذا الانتصار الرائع عاد إلى دمشق فتوفي فيها عام ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م ودفن قرب الجامع الأموي.

تولّى الحكم بعده ابنه بركة خان فعزل بعد سنتين لأنه كان ميّالاً للهو والشراب، وعُيّن أخوه (سلامش) بدلاً منه وكان صغير السن فعيّن له وصيّ هو قلاوون الألفي (حين شرائه بلغ ثمنه ألف دينار) فقام بعزل هذا الصبي وصار السلطان الجديد للمماليك وتلقّب بالملك المنصور ١٢٧٩م وانقسم المماليك فتمرّد عليه نائب الشام سنجر الأشقر، واتّصل بالمغول فجهّز قلاوون حملة إلى دمشق، فراسله سنجر وتصالحا بسبب قدوم المغول إلى بلاد الشام.

انقسم الإسماعيليون أيضاً في تأييدهم لقلاوون، فأيّده قسم منهم، وقسم ثان لم يعترف به، فقام قلاوون بتجهيز حملة على شيزر قلعة الإسماعيليين للقضاء عليهم.

وبما أن العلويين يجاورون الإسماعيليين فلربّما تضرّروا من هذا الغزو المستمر منذ ٦٨٠ هـ إلى ٦٨٦هـ، ولربّما تغيّرت النظرة إليهم من قبل قلاوون وأولاده الذين حكموا مدة تزيد عن القرن: ١٢٧٩ ـ ١٣٨٢م.

وقد اضطربت الأمور بعد موت قلاوون ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م، فكثرت الفتن والمصادرات وحوادث القتل والقبض على المخالفين حتى عمّ الخوف وانتشر الرعب في البلاد، وكثر عزل أولاد قلاوون عن الحكم وعودتهم إليه ومثالنا على ذلك ولده محمّد الذي عزل مرّتين ثم عيّن ثالثة عام ٧٠٩هـ، واستمر سلطاناً حتى وفاته عام ٧٤١هـ.

ومحمد هذا هو المعني بتاريخنا إذ حدث إبان حكمه الاعتداء الكبير على فرق الشيعة جميعها وعلى العلويين بتركيز خاص. وسنعود لتفصيل هذا الأمر.

نعود إلى شؤون العلويين الخاصّة فنعلم أن (جبلة) قد تعرضت للخراب سنة ٦١٤هـ على يد المسلمين خوفاً من الإفرنج الصليبيين . . . ونجد مؤرخاً علوياً يؤرخ وفاة الملك الظاهر محمود بن غازي بن الملك الناصر بن أيوب في ١٧ جمادى الآخرة سنة ٦١٣هـ. هذا الملك دافع عن بلاد العلويين ضد الفرنجة الصليبيين الذين هجموا على بلاد العلويين سنة ٦٠٠هـ في بداية القرن السابع فاحتلوا صافيتا والمرقب والساحل، واحتلوا مواقع هامة، وقتلوا كثيراً من العلويين مما دفع الشيخ حسن كفرون لنظم مرثية أرسلها إلى علويي مصر يخبرهم فيها عن المذابح التي تعرّض لها العلويون على يد الفرنجة، وكذلك أخبر السلطان الأيوبي الحاكم.

والشيخ حسن كفرون (٦٤٦ ـ ٦٨٤هـ) كان حاكماً لقلعة السيّدة قرب قرية الكفرون القريبة من مشتى الحلو، وقلعة الحصن.

وفي النصف الثاني من القرن السابع حدث انشقاق بين العلويين وفي هذه المرّة كان مسرحه الجبل، وكان رئيس المنشقين المدعو ربيعة بن نصر العصيدة من قرية (أسفين) وشايعه ناشئ قرمس، وداود القيقانيّة وجعفر السويدانية وغيرهم. وقد تصدّى للمنشقّين الشيخ يوسف بن العجوز الردّاد الحلبي السباعي النشّابي (٦٢٢ ـ ٦٨٤هـ) ويبدو من كنيته أنه حلبيّ الأصل، ولد ونشأ فقيراً ثم ترك حلب ورحل إلى قرية الزمام ومنها إلى قرية (الخوصة) وعاشر أهل المناصف وأهل الجبال والسواحل، وعرف أهلها ومناهجهم، فوجد أكثر أهل الجبل قد شذّوا عن قول الحق وقول الصدق، ومالوا إلى الأسباب الفاسدة والركض وراء متاع الدنيا وحبّ الرئاسة، وقد اجتمع الردّاد وربيعة في قرية (أسفين) وتجادلا، وقد تفوّق عليه الرداد لأنه كان مثقفاً ثقافة واسعة، وكان فيلسوفاً خبيراً صاحب فلسفة وعلوم شتّى، تكلّم عن الهيئة والنقطة والدائرة والسطح وعلم الحساب. (١٢٣)

ويلوح لي أن المناظرة الأولى بينهما حدثت عام ٦٦٤هـ، وقد انحاز إلى صف الردّاد الرئيس سالم شقيق ربيعة، والإمام جامع المريح، والمعلم أبو محمد جبرين، والمعلم عسكر النقيب، والمؤدّب علي بن منصور المعروف بالصويري وحدثت بينهما مناظرة ثانية في قرية أسفين عام ٦٦٥هـ، فاز فيها الشيخ يوسف الردّاد فسعى بالمجتمعين إلى حاكم القرية المدعو زين الدين قراجا المهزوم ربيعة العصيدة فتفرّقوا وقد انتصر للردّاد ايضاً عالمٌ من علماء العلويين هو المعلم محمود الكلازي ويوصف المعلم محمود بأنه من عظماء

العلويين وممّن يشاكل الأمير حسن المكزون بالعلم، وقد سافر إلى العراق وشاهد علماء بغداد وعانة والكوفة، وعاد وأرسل لربيعة ومن يتابعه يطلب إليهم الاجتماع به للمناظرة وقال لهم: بيني وبينكم علماء بغداد وعانة والكوفة فقابلوه بالسّفه مثلما قابلوا الردّاد بالعصيان.

لكن هذا العصيان لم يؤثّر على مجموع العلويين، فخروج قلّة قليلة عن الطريق لا تعيق الركب، واستحق الشيخ يوسف لقب الردّاد عن جدارة لأنه ردّ من خرج عن جادة الطريق إلى الجادة ثانية.

كما بيّنت سابقاً فإن المماليك بعد وفاة الظاهر بيبرس واستلام قلاوون الحكم ومن تلاه من أولاده قد تغيرت قلوبهم نحو العلويين فأظهروا لهم العداوة وفرضوا عليهم الضرائب الباهظة، وضيّقوا عليهم الخناق، وبدأ السعاة والنمّامون والمخالفون بتشويه صورة العلويين أمام ولاة المماليك في مناطق العلويين وبخاصّة ولاة طرابلس واللاذقية وحماة والقصة التالية توضح ذلك:

عام ١٢٨٩ م حرّر الملك قلاوون طرابلس من الاحتلال الصليبي وعيّن عليها نائباً دعي بالموصلي، وقد اتخذ موقفاً من العلويين بتأثير بعض المحرّضين والحاسدين والشانئين، وقد زيّنوا لهذا النائب أن العلويين لا يقرؤون القرآن الكريم ولا يصومون ولا يصلون باتجاه الكعبة الشريفة، ولا يعرفون الوضوء، ولا يقومون بواجباتهم الدينية، ولا يصلّون على الموتى لأنهم يجهلون صلاة الميّت، فأرسل يدعو رجال الدين العلوي لملاقاته لامتحانهم في المسائل الدينيّة فاختار العلويون العلماء العلامة الشيخ مسلم البيضا (مسلّم بن عبد الله بن رسلان الحلبي) و(البيضا قرية قريبة من صافيتا) اسمها اليوم بيضة الشيخ مسلّم. كان الشيخ مسلّم يتصف بعلوّ الهمة والشجاعة والإقدام والعلم الغزير ومحاجّة الخصوم، ومجادلة المعاندين. «ولمّا وصل الشيخ إلى طرابلس ومثل بين يدي هذا الحاكم الجبّار المدّعي بنفسه العلوّ والافتخار، أوقع الله الرعب في قلب الحاكم فخافه وعظّمه، وبعد مناظرة طويلة في العلم جرت بينهما، قال له الموصلي: أنتم لا تصلون على الميّت، فردّ عليه الشيخ مسلم: إننا نصلّي عليه ونحسن الصلاة ونتقنها، فقال القاضي الذي كان حاضراً المناظرة: أنا الميت، وأنت المصلي لنبلو صحة ما أنت قائله. ثم اضطجع وغُطي بملاءة، فتوضأ الشيخ ثم أقام عليه صلاة الميت بتمامها.

فقال الموصلي للقاضي المتماوت: قد بلغت الصلاة حدّها، فقم، وانظر، هل فيها ما يعيبها؟ فلم يجبه القاضي، فكشفوا عنه فشاهدوه ميتاً، لا روح فيه. فقال الموصلي للشيخ مسلم: ما هذا؟! فقال الشيخ: هذه صلاة الميت، وأنا لا أصلي على رجل حيّ. فأوجس الموصلي في نفسه خيفة منه وقال: دينكم بمعنى مذهبكم الحقّ، وأنتم الأعلون مقاماً. ثم ردّه معظّماً مكرّماً، وأتحفه تحفاً، فتعفّف عنها، وخفّض عن العلويين أشياء من الخراج». (١٢٤)

بعض العلويين يرى في الحادثة نوعاً من المغالاة لجذب الناشئة.

وفي الربع الأخير من القرن السابع الهجري جرت لقاءات عدّة بين علماء العلويين وعلماء الإسماعيليين في صافيتا وعانة لتوحيد الفئتين واعتناق مذهب واحد ولكنهم لم يصلوا إلى رأي واحد، ولم يتفقوا على مذهب ما فانفضت اجتماعاتهم، وظلّوا على حال والاختلاف العقائدي حتى هذه الأيام. (١٢٥)

حفل هذا القرن بعلماء وشعراء عديدين اخترت التعريف ببعضهم للأهمية والشهرة:

١ - **أبو الدرّ الحموي بن أبي الحسن العطّار:** حموي الأصل، انتقل منها إلى بعرين أو (بارين)، وتوفي فيها، ضريحه يزار كان عالماً وشاعراً. ومن شعره الحكمي:

هجرني الناس واستأنســـت وحـدي   ببيـتـيَ فـي مـطـالـعـة الـكـتـاب

٢ - **الشيخ جامع المريّح:** كان إماماً عالماً، توفي ٦٦٤هـ من ذريّته آل الوقاف وقرابتهم.

٣ - **المعلّم جبرين أبو محمد:** من أنصار الردّاد الحلبي توفي ٦٦٩هـ ودفن في قرية (مريمين).

٤ - **علي بن ممدود السوداني السنجاري:** شاعر ولغوي، ديوانه كبير، وقصائده طويلة.

٥ - **الشيخ موسى الربطي الشاعر:** ضريحه في أبي قبيس وعنده يقام (رابع نيسان).

٦ - **الشيخ إبراهيم شاما الفقيه:** العالم العلامة، الثقة في الفقه، كان خشوعاً خضوعاً، جواداً كريماً، ضريحه بقرية شاما ويزار حتى من الأخوة المسيحيين.

٧ - **الشيخ أحمد الجزري:** أحمد بن داود الجزري الرقي الأيوبي، أصله من مدينة الرقة السورية ثم رحل إلى حلب وأصبح إماماً لعلويي حلب، عالم شاعر، ديوانه كبير، ضريحه في قرية (حداثة) في محافظة حمص، وأهل (عكاكير) يقولون إن ضريحه قرب قريتهم.

٨ ـ جمال الدين بن يوسف بن سعيد بن معدن الكركي العاني الفقيه، عالم، علاّمة، صاحب مؤلفات شعرية ونثرية، مسكنه عانة.

٩ ـ الشيخ حمدان جوفين الأنصاري الخزرجي الشاعر الطليق، البشوش، الجواد، الصدوق، الدحّار لأهل الفساد، رحّالة مدح علماء وعظماء وشعراء عصره، من نسبه الجواهرة في حلب، توفي ٦٨٥هـ.

١٠ ـ الشيخ سعيد بشّنّانا: يعود بنسبه إلى الناسخ البغدادي الخزرجي. توفي ٦٩٠هـ من نسبه وذريته بيت الشيخ حسين أحمد في (حمّين) وقرابته.

١١ ـ الشيخ سليمان الفنيتقي: الشاعر، له ملحمة شعرية عن تيمورلنك قبل وصوله إلى بلاد الشام.

١٢ ـ الشيخ علي الصويري: الشاعر الشهير، المؤدّب: ٦٣٨ ـ ٧١٤هـ من أنصار الردّاد، شاعر لكن بالعامية. (يصف نفسه بأنه منحوس في زراعة الشكاير) زرع (شكارة) في قرية (بيتسه) القريبة من حمص، فرعتها خيول التركمان، وما بقي منها شبّ فيه حريق، وزرع أخرى في (خربة شعبان) فأخصبت لكن ظهر فيها جيش من الفئران، وعندما حصد ما بقي منها هاجمته أفعى. روحه مرحة، ضريحه في قرية الصويري في محافظة حمص، يزار.

١٣ ـ الشيخ محمود القصير: العالم الشاعر، الدّحار لأهل الغيّ والعمى. من ذريته البشارعة.

١٤ ـ الشيخ يوسف الثعالبي: الشاعر الشهير ٦١٦ ـ ٦٨٧هـ، له ديوان كبير يعود بنسبه إلى الخزرج.

١٥ ـ الشيخ يوسف ريعو: من قرية (ريعو) ويعود بنسبه إلى آل جعفر بن أبي طالب. القرن السابع.

١٦ ـ الشيخ علي الصويري يمدح علويي ومشايخ نصيبين، وحلب، وكفرجالا، والمعرة، ويزارج.

(العودة إلى ديوانه) .[126]

١٧ ـ علي بن بقراط الحموي القرن السادس والسابع : ينسب إلى مدينة حماة التي عاش فيها طويلاً، ردّ على مذهب الثامنة، ولم يدع دعوتهم تتسرّب إلى حماة كما تسرّبت إلى حمص، ووقف على ردّ حاتم الجديلي والمكزون على الفرقة نفسها، ويظهر أنه تأثر بهما وشاركهما في الدفاع والردّ. له مقطوعات شعرية في ذلك. (المغمورون القدامى ص١٧٣).

المراجع

١١٨ ـ النبأ اليقين عن العلويين ص١٥٣ بوجود خلاف بين ط١ وط٢ .

١١٩ ـ الأعلام للزركلي ج٢ ص٢٤٣ .

١٢٠ ـ خير الصنيعة ج١ ص٣٨٧ وما بعدها .

١٢١ ـ خير الصنيعة ج٢ ص٥٤١ ـ ٥٤٢ .

١٢٢ ـ الفلك الدوّار ص٢٣٣ ـ ٢٣٤ .

١٢٣ ـ خير الصنيعة ج٢ ص٦٢٨ وما بعدها .

١٢٤ ـ خير الصنيعة ج٢ ص٥٩٦ وما بعدها .

١٢٥ ـ الفلك الدوّار ص٢٤١ .

١٢٦ ـ التراجم من كتاب خير الصنيعة ج١ ـ ج٢ .

الفصل الثاني عشر

الإفتاء بالإفناء

العلويّون في القرنين الثامن والتاسع

قبل أن ينتهي القرن السابع الهجري بعشرة أعوام انتهت الحروب الصليبية، وطرد الغزاة الإفرنج من بلاد الشام ومصر إلى غير رجعة فقد سقطت آخر مدينة كان يحتلها الصليبيون بيد المماليك وهي عكّا في ١٦ جمادى الثاني ٦٩٠هـ/ ١٨ أيار ١٢٩١م، ومن بقي من الصليبيين استقلّوا سفنهم وعادوا إلى أوربا مدحورين مهزومين؛ وكان وجودهم في بلادنا حلماً مزعجاً، انتهى بيقظة حالم من نومه وقد طمر رمل النسيان آثار الفرسان المدرّعين قبل أن تبهت في الغرب الذكريات عن أفعالهم القاسية والبطولية بزمن طويل، كما يقول المؤرخان التشيكيان فيرا وميروسلاف غروخوف. لكن صليبيي القرن العشرين يريدون نهب خيرات البلاد العربية كلّها، وعلى رأسها النفط وهم لا يزالون يحلمون بفرض الذل والانحطاط علينا، مثلما فعل أسلافهم الذين تسببوا بانحطاط اقتصادنا وثقافتنا ورحم الله جمال الدين الأفغاني الذي قال: «الروح الصليبية لم تبرح كامنة في صدور الغرب كمون النار في الرماد، وروح التعصّب لم تنفكّ حيّة معتلجة في قلوبهم حتى اليوم كما كانت في قلب بطرس الناسك من قبل، وهو أبداً ناظرٌ إلى الإسلام نظرة العداء والحقد والتعصّب الديني الممقوت». (١٢٧)

قال هذا القول في القرن التاسع عشر قبل ظهور النفط في الوطن العربي ترى لو كان حيّاً اليوم فما كان قوله؟!!!

أنهى الأشرف خليل بن قلاوون الحروب للصليبية واستلم الحكم بعده أخوه محمد فعزل مرتين ثم عيّن ثالثة عام ٧٠٩هـ، واستمرّ سلطاناً حتى وفاته عام ٧٤١هـ. وأثناء فترة حكمه الثانية الممتدّة بين ٦٩٨ ـ ٧٠٨هـ وجرى الاعتداء الكبير على العلويين، وعلى فرق الشيعة جميعها. ويبدو أن القضاء على الصليبيين كان له دور كبير في التفات المماليك إلى توحيد سكان البلاد التي كانوا يحكمونها تحت راية مذهب واحد هو المذهب السنّي، وكان يمنعهم من تحقيق هدفهم وجود الصليبيين في المنطقة فلما تخلّصت البلاد منهم سعوا لإعلاء

المذهب السني وإجبار الفئات الشيعية على ترك معتقداتها واعتناق المذهب الرسمي للدولة، ومن الغريب أنهم لم يلزموا المسيحيين على ترك معتقداتهم والدخول في الإسلام.

ويقال إن الظاهر بيبرس أصدر أثناء فترة حكمه تعليمات تلزم العلويين ببناء المساجد في قراهم والصلاة فيها. وقد شيّدوا المساجد ولكنهم كانوا يخافون من الصلاة فيها لأنهم اعتادوا الصلاة في بيوتهم أثناء عهود الاضطهاد الطويلة مخافة الإغارة عليهم وهم في المساجد للفتك بهم. ومن الصعب على من اعتاد عادة ما أن تلزمه بتركها في يوم وليلة.

ومحمد قلاوون وجد من زيّن له أن يعيد تنفيذ تعليمات بيبرس وإلزام العلويين بالصلاة في المساجد، فلم تكن الاستجابة كما يحبّ ويرغب الحاكمون في بلاد الشام، فحرّضوا هذا السلطان على العلويين فأمر بتجريد حملات عسكرية تشنّ غارات قاتلة على العلويين، واختار مسرح العلميات مكان انتشار العلويين في جبال لبنان لقربها من دمشق وصفد وطرابلس.

وكان العلويون والشيعة عموماً يقطنون المنيطرة والعاقورة ونواحي البترون وعكّار والضنيّة وكسروان ووادي التيم ومرجعيون.

وكانت الحملة الأولى عام ١٣٠٢م - ٧٠٢هـ.

وجرت الحملة الثانية عام ١٣٠٦م - ٧٠٦هـ.

أما الحملة الثالثة فتمّت عام ١٣٠٧م - ٧٠٧هـ.

وكانت نتيجة هذه الحملات القتل والإفناء والتدمير وإجلاء من بقي من العلويين والإسماعيليين والشيعة عامّة عن هذه البقاع مجتمعة، ممّا يسّر للدروز السيطرة على وادي التيم بكامله، ومرجعيون والبقاع، أما الموارنة فقد حلّوا محل العلويين والشيعة والإسماعيليين في المناطق القريبة من سكناهم في الشمال، ثم امتدوا زاحفين نحو الجنوب - ولم يكن لهم وجود فيه - فحلّوا في المتن وكسروان والمنيطرة والضنيّة التي جلا عنها العلويون وغيرهم من الشيعة، وقد ذكر المؤرخ فيليب حتّي مؤرخ الطائفة المارونية: «تناولت سياسة المماليك الجديدة إعادة توحيد الفرق الإسلامية المنشقة وضمّها إلى حظيرة السنة، وذلك لأن بعض هذه الفرق الإسلامية أعانت العدو وهادنته (كذا) نسي أن الشعوبية المارونية هي التي كانت الدّاعم الأول لوجود الصليبيين في الشرق، وهي التي قاتلت إلى جانبهم

وكان منها الأدلاء والمرشدون، وحينما انتهى الوجود الصليبي هرب الآلاف من الموارنة غير العرب إلى قبرص وأسسوا فيها جالية مارونية لا تزال حتى اليوم، بينما لم يهرب العلويون أو الإسماعيليون أو الشيعة مع بقايا الصليبيين، ولو كان ما قاله حقيقة عن تعاون هذه الفئات الشيعية مع العدو الصليبي لرحلت مع فلوله وفعلت مثلما فعل الموارنة في قبرص، ولكنّه التعصب وعدم الدقّة، وعدم المسؤولية. وقد قتل المماليك من الإسماعيلية والنصيرية والشيعة عدداً كبيراً، ويبدو أنهم كانوا أشداء أقوياء، وأن عددهم كان كبيراً في جميع أنحاء سورية». ويقول أيضاً: «كانت الحملات العسكرية التي وجّهها الملك الناصر سنة ١٣٠٢م و١٣٠٦ و١٣٠٧م ضدّ كسروان من أعنف الحملات التي تعرّض لها لبنان ومن أشدّها فتكاً وخراباً، وكانت كسروان آنذاك تمتدّ جنوباً إلى نهر بيروت وإلى جبل الكنيسة وإلى جبل صنّين وكانت تشمل أيضاً منطقة المتن الشمالي والجنوبي، وكان سكّانها قليلاً من الموارنة واليعاقبة، والدروز، والشيعة، والنصيرية، وقد اشترك في هذه الحملات العسكرية جنود من صفد وطرابلس ودمشق وكان القائد العام جمال الدين الأقوش حاكم دمشق، وقد أفتى (ابن تيمية) وكان من أعظم فقهاء عصره في سورية «بأن الدروز والنصيرية ليسوا مسلمين، وأنهم دون النصارى مرتبة، ويجب إبادتهم». واشترك ابن تيمية في هذه الحملة، وأقوش الأخرم هو الذي قاد الحملة التي أبادت ودمّرت وفتكت بالنفس والزرع والضرع حقداً وجهلاً وتعريضاً من الفقيه الأكبر». (١٢٨)

(ابن تيمية هو تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية. ولد في حرّان عام ٦٦١هـ/ ١٢٦٣م. وانتقلت عائلته إلى دمشق هرباً من المغول وعمره ست سنوات، وتعلّم في دمشق فَبَعُدَ صيته في المعرفة وجلس للتدريس والفتوى. اختلف مع علماء عصره وبخاصّة علماء الشافعية فمنعوه من التدريس، وحبسه السلطان محمد بن قلاوون في قلعة دمشق فمات بها عام ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م، وأشهر كتبه الفتاوى).

من المؤكد أن ابن تيمية لم يكن يعرف العلويين معرفة تامة وإلا لما أقدم على تكفيرهم وإفنائهم بفتواه المعروفة، ولا بدّ أنه حسبهم من القرامطة الذين اقتلعوا الحجر الأسود من الكعبة المكرّمة، أو حسب ظني كان يعتبر فرق الشيعة جميعها من المارقين ما دامت هذه الفرق لا تعتنق المذهب السنيّ.

وأورد أبو الفداء عماد الدين إسماعيل في تاريخه (المختصر في تاريخ البشر) حادثة إبادة العلويين على النحو التالي: «في عام ٧٠٥هـ سار جمال الدين أقوش الأخرم بعسكر دمشقي وغيره من عساكر الشام إلى جبال الظنيين، وكانوا عصاة مارقين من الدين فأحاطت العساكر الإسلامية بتلك الجبال المنيعة، وترجّلوا عن خيولهم وصعدوا في تلك الجبال من كلّ الجهات وقتلوا وأسروا جميع من بها من النصيريين والظنيين وغيرهم من المارقين، وطهرت تلك الجبال منهم وهي جبال شاهقة بين دمشق وطرابلس». (١٢٩)

ويذكر الدكتور سمير عبد العزيز هذه الحادثة بعينها فيقول: «الظنيّة كان يسكنها جماعة من النصيرية وقد تعرّض هؤلاء السكان في سنة ٧٠٥هـ للقتل والأسر عندما أغار عليهم الأمير جمال الدين أقوش الأخرم بعسكر دمشق والأمير أسنومر كرجي بمعسكر طرابلس، والأمير سنقرجاه المنصوري بمعسكر صفد فخرّبوا ديارهم وقتلوا منهم جملة كثيرة». (١٣٠)

هل وجدت اسماً عربياً بين أسماء هؤلاء الأمراء؟!!!

وعن الأمير أسنومر كرجي الذي كان يحكم طرابلس آنذاك يتحدث صاحب كتاب (تاريخ بيروت) فيقول عنه:

«إنه كان من العلويين وكان يؤيدهم باطناً وكان متهماً بذلك ولكي ينفي التهمة عن نفسه أكثر من القتل في العلويين عام ٧٠٥هـ، ولكن بعد ذلك قرّب جماعة ممن بقي منهم وأقطعهم الأراضي ووظفهم في الدواوين».

«وسيف الدين أسنومر نائب طرابلس كان نسب إلى مباطنة الكسروانيين فأفحش فيهم القتل لينفي عنه التهمة اللاحقة به، وأن الكسروانيين بادوا وتشتتوا، وأقطع بعضهم بالرواتب». (١٣١)

لكنه يقول: إنها جرت عام ١٣٠٥م.

ويقول العالم محمود الصالح في كتابه (النبأ اليقين عن العلويين): «في سنة ١٣٠٥م أمر السلطان محمد قلاوون سلطان مصر من سلاطين المماليك البحريّة رجاله بتسيير حملة عسكرية عظيمة إلى جبال كسروان في لبنان لإبادة الطوائف الشيعية هناك إذ كانوا أصحاب البلاد آنئذ كما فصّله العلامة (مطران الدبس) في كتابه (داني القطوف) حيث يقول: «ومن جملة من فتك بهم العرب النصيرية الذين كانوا في شمال لبنان ولا سيّما في المنيطرة والعافورة

ونواحي البترون وعكّار والضنيّة ثم امتدوا إلى كسروان قبل سنة ١٣٠٥م، وكانوا أشدّاء يساعدون إخوانهم في وادي التيم ومرج عيون. والذين تخلّصوا من الموت من هؤلاء رحلوا إلى الشمال إلى جهات اللاذقية وأنطاكية، واعتصموا في جبالها، وبقي قليل منهم في لبنان وعكّار وطرابلس». [١٢٣]

إذاً مذابح عام ٧٠٥هـ/ ١٣٠٥م هي التي أنهت الوجود العلوي في وادي التيم ومرج عيون والمنيطرة والعاقورة ونواحي البترون والضنيّة وكسروان، وهي التي هيّأت للموارنة فيما بعد أن يستولوا على هذه المناطق ويعيشوا فيها حتى اليوم.

بعد هذه المذابح أبرز المماليك للوجود عائلة تركمانية سلّموها إمارة طرابلس لتراقب جبل لبنان وساكنيه وكل فئة عربية تفكر بالاستقلال في هذه المناطق. هذه العائلة هي آل سيفا. واستمرّ المماليك بملاحقة العلويين وإجبارهم على ترك منازلهم ومذهبهم، وألزموهم بإقامة الصلاة في المساجد بل طالبوا كل قرية أن تبني مسجداً وتفرز أرضاً تكون وقفاً للمسجد يرتزق منها، ففي عام ٧١٧هـ/ ١٣١٧، أصدر السلطان محمد قلاوون الذي أجلى العلويين عن لبنان وفتك بهم فيه، مرسوماً يحدد فيه حدود إمارة طرابلس وما أضيف إليها من الأعمال والقلاع والحصون لضبط شؤون الطائفة العلوية التي نعتها المرسوم بنعوت ظالمة وغير صحيحة، ثم حرّم على العلويين خلط ذبائحهم بذبائح أهل السنّة، ومقابرهم بمقابر السنّة أيضاً وزاد على ذلك بمنع العلويين المذكورين من الخطاب». [١٣٣]

وفي هذا العام ٧١٧هـ حصلت مذبحة ضد العلويين في جبلة من جرّاء حملة قامت بها السلطة المملوكية، فأودت بالآلاف منهم، فهل كان للمرسوم المذكور صلة بما حدث؟ هل جرت المذبحة قبل أو بعد صدور المرسوم؟ من المرجح أن المذبحة حصلت بعد صدوره إذ ربّما استنكر العلويون هذا المرسوم واستهجنوا مضمونه وبدرت منهم أقاويل وأعمال حدت بالدولة لمعاقبتهم هذا العقاب الأليم.

حدثت المذبحة في شهر شوّال وقتل فيها قائد من قوّاد العلويين اسمه عليّ ونعت بالمقدم وجاء في تاريخ لأحد العلويين ذكر المذبحة تحت عنوان: (قتل نصيرية جبلة في شوّال سنة ٧١٧هـ).

وفي هذا القرن أيضاً تعرّض العلويون للقتل والذبح والتشريد في صافيتا، والكاف، والخوابي، والمرقب، وقدموس إثر حملة عسكرية قام بها من يدعى (مكّة التركي) عام

٧٨١هـ، وفي عام ٧٩١هـ جرت مذبحة غربي حلب قتل فيها الكثير من شيوخ العلويين في (رأس ماسين). وفي ١٩ رمضان ٧٨٤هـ انهى الأتابكي برقوق حكم آل قلاوون وأقام دولة المماليك الجراكسة، وصار أول سلاطينها، وبعد سبع سنوات من حكمه أوقع بالعلويين في رأس ماسين كما قدّمنا.

وفي عام ٨٠١هـ تولّى الملك بعده ولده الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج، وأثناء حكمه وصل السلطان المغولي تيمورلنك إلى بلاد الشام واستولى على حلب وحماة وحمص ودمشق وقد ارتكب في دمشق فظائع تقشعّر لها الأبدان، وقد نعت هذا الطاغية بأنه شيعي، وهذا كذبٌ محض لأن الطغاة جبارون يتلذذون بسفح الدماء وارتكاب الجرائم والمعاصي والشيعة يتبرؤون من كل معتد أثيم جبار لا يسجد للواحد القهّار تيمورلنك كان مستبداً طاغية يفرق بين أبناء الشعب الواحد ويضرب بعضه ببعض ليسهل له احتلال البلاد بلا مقاومة؛ وقد ضرب أولاد السلطان العثماني بايزيد ببعضهم بعضاً فقتل محمد بايزيد أخويه عيسى وموسى، وتفرّد بالحكم بمساعي تيمورلنك وتدبيره.

وبعد رحيل الطاغية من بلاد الشام أقدم سلطان المماليك (جقمق) عام ٨٥٣هـ على الإيقاع بالعلويين. إذ في عهده انتشر الظلم والقهر والقتل وتعرّضت الرعيّة بكل فئاتها لظلمه وعسفه، وقاطع التجّار الأجانب الموانئ الشامية.

ويصف مؤرخ علويّ هذا السلطان ومعاونيه بأنهم كانوا شديدي الجور فيقول: «إن الظلم كثير على الطائفة العلويّة في السّواحل البحرية بمعاملة اللاذقية وجبلة وهرب كثير من الناس إلى مملكة حلب». [١٣٤]

وكأن الطبيعة تضافرت في ظلمها مع ظلم الحكّام فارتجفت الأرض، وصارت زلازل في ذلك العام ووقع في قلوب الناس الخوف والرّعب، ودمّرت البيوت والأقبية، واقتلعت الأشجار، ثم أعقب ذلك مطر غزير وحدثت سيول، فتناقصت الغلاّت والمحاصيل، وعاش الناس في ضنك وقهر وبؤس حال.

واستمرّ الظلم والاضطهاد حتى عام ٨٥٥هـ فرحل الشيخ حسن الأجرود العاني (عالم علوي) إلى القاهرة، واستطاع مقابلة السلطان جقمق فأعجب به السلطان وأبطل المظالم والاضطهاد عن العلويين وأرسل معه كتاباً خاصاً إلى حاكم اللاذقية يطلب إليه فيه رفع كل ما تقدّم بحقّ العلويين من تعليمات أدّت إلى عذابهم وقتلهم وتشريدهم.

غير أن حاكم اللاذقية هذا أمسك بالعالم وسجنه وغرّمه مبلغاً كبيراً من المال فتقدّم أحد رؤساء العلويين المقدم علم الدين سلمان ودفع عنه المال المطلوب فأطلق سراحه .

وحدث قبل نهاية القرن بقليل وفي عام ٧٨٨هـ وباء عظيم فتك بالناس فتكاً وبيلاً فحصد منهم عشرات الآلاف ، وأعقب ذلك غلاءٌ فاحش في أسعار المواد الغذائية وتحفظ لنا وثيقة مقدار الثمن الباهظ لهذه المواد :

القمح : بلغ شنبل الجبلاوي ٣٠٠ درهماً وشنبل البحري ١٥٠ درهماً .

الشعير : ٧٠ درهماً ، والذرة ٢٠٠ درهم .

مكّوك القمح بلغ ٤٨٠٠ درهم .

رطل القطن ١٦٠ درهماً ، ورطل الزيت ١٠٠ درهم . (١٣٤مكرر)

ويرى الشيخ العلاّمة عبد الرحمن الخيّر أن بدء جمود العلويين كان في النصف الأول من القرن الثامن للهجرة حيث تكاد أعمال المؤلفين العلويين تقتصر في كتبهم في ذلك الحين وما يليه على إعادة وتكرار ما كتبه سابقوهم من العلماء دون أن يضبطوا شيئاً يذكر لا من قبيل التوضيح ولا من قبيل حسن التبويب وسهولة المأخذ وهذا يدلّ على قلّة الاطّلاع على شتّى فروع العلوم وأنواعها . (١٣٤ مكرر)

شخصيات وعلماء من القرن الثامن الهجري

١ ـ **السلطان عماد الدين الحموي :** أبو الفداء ملك حماة ، صاحب كتاب (المختصر في تاريخ البشر) وهو من ملوك بني أيّوب ، وقد عزل المماليك كل ملوك بني أيوب عن الحكم وتركوه ، وقد كان في بداية أمره يبغض العلويين ولكنه تحوّل بعد ذلك إلى مذهبهم بتأثير وزيره .

وبين أيدي العلويين كتاب (تقويم الدهور) مسجّل في مقدمته : كتبه فلان لخزنة السلطان عماد الدين الحموي ، والكاتب أحد شيوخ العلويين ومن قوله : كتاب جدول الحساب ينبئ عن معرفة السنين والشهور والأيام والأحقاب والدهور ، وهو مما كتب برسم سيدنا ومولانا وقدوتنا وحيد عصره وفريد دهره ، سيف الله المسلول ، وسماطه المبذول ، الصّادق بما يقول ، الليث الهمام ، والأسد الضرغام ، الموصوف بالحروب ، ومفرّج الكروب ، أبو الفقراء

والمساكين، سلطان البرين وخاقان البحرين، عماد الدين والدنيا، أبو الفتح إسماعيل سلطان مدينة حماة نصر الله به الأمة المحمّدية ٦٩٥هـ.

ولد عام ٦٧٠هـ، وتوفي ٧٣٢هـ (١٣٥).

وأرّخ علوي آخر لبناء جامع السلطان عماد الدين فقال: جامع السلطان عماد الدين أمر بعمارته بأيّامه، (ودقّت) فيه النوبة السلطانية سنة ٧٢٧هـ، وهو عماد الدين بن إسماعيل بن الملك الأفضل بن شاهن شاه بن أيوب.

٢ - **الشيخ ابن شبل عيسى الواعظ الشّاعر الرّفدي**: عالم علامة، له كتاب الوعظ للمتعظ ويشتمل على عشرين موعظة شعراً بمعان تقرب من عقول العامة.

وختمه بذكر الأئمة الأطهار، وكان عدواً للمرأة بسبب ابتلائه بامرأة كانت تنغّص عليه عيشه، ولذلك كان يسافر كثيراً، واشتهر بكره النساء فنزل مرّة عند أحد الوجهاء ونام عنده، وفي الليل اندسّت بفراشه امرأة خبيثة وهمست: إن لم تكفّ عن ذكر النساء بسوء بعهد تقطعه لي لأصرخنّ ولألحقنّ بك العار، فعاهدها، وانقطع عن هجاء النساء وذكرهن بسوء. من أقواله فيهن: لا ضرّ أضرّ من الجهل، ولا شرّ أشرّ من النساء. والفارس من لم تصده النساء. وله قصيدة تاريخية يشرح فيها مجيء تيمورلنك إلى بلاد الشام ويذكر فظائعه وفتكه بالسكان، وتدمير المدن ولا تنزعج من شعره العاميّ الذي يدلّل على اندحار العلم، وتفشّي الجهل، واندراس النظم بالفصحى:

فقلت يا صاحِ اسمع ما أفوه به	وما تمّ لنا في عصرنا وجرى
من فتنة قد جرت للخلق ضائرة	تكاد منها قلوب النايس تنفطرا
فحار كتبي وطاش العقل بعدهم	من كثرة الهول إلا مجمل القدرا
جاءت عساكر شبه الليل مظلمة	في ليلة ما بها شمس ولا قمرا
من سمرقند أتانا الجيش منسحباً	شبه الغيوم إذا ما زفّها المطرا
من تيمورلنك الذي جلب الجيوش لنا	لملك مصر فما خلّى لهم أثرا
فكم قتيلٍ أتاه السيف جندله	والدم يجري كشبه المزن والمطرا
وخربت حلب الشهبا وزينتها	وهدموا ما بني بالكلس والحجرا

وأســـروا أهلــها لـــم يتـــركوا أحـــداً		وأصبحوا عندهم بالقيد والأسرا
وعلّقوا النقـــب بالقلعـــة واجتهـــدوا		ثـمـانـمـائـة ألـف هـكـذا ذكـرا
سبـــوا الحريـــم والأطفال أجمعـــها		نادوا الأمان لكم بالمحن والشفرا
أمّا حمـــاة وبلد الشـــام أجمعـــها		أضحى خراباً ومن الأهل مندثرا
ثم المناصف مع بعريـــــن يا أســـفي		أمست ديارهم من بعدهم دمرا
كذاك حمص وعكّـــــــــار لها تبعٌ		ببلدهم قد أذيقوا الويل والقهرا
أما دمشق ألا يـــا حيـــف زينتـــها		ما كان فيها من الألوان قد صفرا
لا تأمـــن الدهـــر لـــم تبلغ له أوراً		من اللاذقية سقاه كأسه مررا

والمناصف وبعرين وعكّار واللاذقية مواطن سكنى العلويين. تعرّضت للقتل والذبح والتدمير، ثم يقولون لنا: تيمورلنك شيعيّ. خافوا الله يا ناس.[١٣٦]

٣ ـ **الشيخ أحمد المخلص العبديّ الشاعر:** عالم علامة، ثقة عصره، يعود نسبه إلى الخزرج، ممدّح من علماء عصره في عانة وبعرين وقرى الجبل.

٤ ـ **جلال الدين الصوفي الفيلسوف البغدادي ٦٩٢ ـ ٧٥٧هـ**، مسقط رأسه بغداد، ونشأ بها، وبرع في الفلسفة، وكان مترجماً عن اليونانية وغيرها.

٥ ـ **الشيخ منصور الغرابيلي: ٧٣٦ ـ ٧٨٩هـ**، يرجّح أن أصله كردي حسب قول الشيخ عبد اللطيف سعود، وهو رحّالة، وله ديوان منظوم على بحر الرجز. ضريحه في قرية حداثة في حمص يزار.

من مستدرك خير الصنيعة: الشيخ منصور الغرابيلي ٧٣٦ ـ ٧٨٩هـ، عربي كنانيّ تنوخيّ، كان يلقب بالمعلم وهو أستاذ الشيخ أحمد المخلص كان غارقاً في بحار العلم رضي بحكمه جميع الناس لا يفحمه أحد من المخلوقين.

أشار احمد المخلّص لكلمة كردي وعربي كرمزين لهالت والجنّان كأستاذين عظيمين للطريقة الخصيبية الصوفية. ويورد الغرابيلي شعراً يردّ به على من أضل فيه:

ولا يغيـر فـــي بعـــد المـــزار ولا		مـقـال واشٍ ولاحٍ كـان مـهـزول

٦ ـ **سيف الدين عبد المؤمن العاني**: عالم علامة، شجاع، محنك، جواد، فيلسوف، عالم بالحكمة الطبيعية. كان له شأن عظيم وسطوة ببلاده وعزّ ومنعة، عاش في القرنين الثامن والتاسع.

٧ ـ **شمس الدين الحموي**: الفيلسوف الكبير، المحقق صاحب البديع والبيان والمنطق، كان فيلسوف عصره، وقريع دهره، عالماً زرياً، ثقة في التأليف، خبيراً له مصنّفات شتّى في النظم والنثر.

٨ ـ **الشيخ علي الخيّاط البسطويري**: عليّ بن موسى، كنيته بانياسي وهو من قرية بسطوير القريبة من بانياس الساحل، أمين، عارف عفيف، لطيف، تقيّ، ذكيّ، له بفعال الجود شهرة.

وسبب تلقيبه بالخيّاط أنه كان أجيراً يفلح للشيخ عليّ بن هدوان؛ ومرّةً أولم الشيخ وليمة لأناس كثر فجاءه الشيخ عليّ وقال له: يا سيدي انكسر الشلف وهو بمقام السكة التي يحرثون بها. فقال الشيخ علي هدوان مازحاً: يا ولدي خيّطه وافلح به. فأيقن الشيخ عليّ أن قوله جد، فذهب وأخذ من ورق (الشنبوط؛ وهو شجر ورقه كالخيطان ولكنّه غليظ، اخضر اللون وزهره أصفر) فخيّط الشلف بذلك الورق وأخذ يحرث مدة طويلة، فجاء إليه الشيخ هدوان ليعرف شأنه وقال له: يا ولدي، لقد أخبرتني أن السكة انكسر شلفها، فأين صنعتها؟ فأجابه: يا سيدي! أما قلت لي خيّطها؟ لقد خيّطتها حسب أمرك فهي على حالها الآن.

فلما رآها الشيخ عليّ بن هدوان مخيّطة بورق الشجر، قال له: والله، لا عدت تحرث لي أبداً، وإذا لم تسامحني وتجعلني بحلّ ممّا حرثت لي لأحرثنّ لك بمقدار ما حرثت لي يوماً بيوم، وعُدّ هذا الفعل من كراماته.

ومن ذريّة ولده قاسم؛ أهل بسطوير، ومن ذريّة ولده حسن؛ الشيخ علي البيضا ابن الشيخ مرهج. ومن ذريّة ولده أحمد: أهل بتعلوس.

عاش في القرنين الثامن والتاسع.[١٣٧]

ومن العلويين من يعتبر هذه القصة من الموروثات التي لعب الخيال فيها دوراً كبيراً.

شخصيات وعلماء من القرن التاسع

١ ـ **الشيخ بدر الحويلي**: من قرية الحويلي في قضاء جبلة في الجرد، كان شيخ العلماء في عصره مدحهم ومدحوه، شاعر عالم، يحتفظ آل الشيخ أحمد القلع بكتاب منسوخ بخطّه يعود إلى ٨٥١هـ.

٢ ـ **الشيخ شهاب الرّفلي**: من قرية اسقبلا توفي ٨٩٨هـ، من شعره يذكر القرآن الكريم وعدد سوره وآياته وأحرفه ونقطه:

ـ فسور القرآن ماية سورة وأربع عشر سورة لمن علم.

ـ آياته ستة آلاف ومايتان وستة وثلاثون هم.

ـ كلامه سبعون ألفاً مع واحد وعشرين ألفاً يا من يحتكم.

ـ ومايتين ألف نقطة من غير خفضٍ ثم رفع وجزم.

وله يذمّ أهل زمانه:

فهذا زمـــان ليـــس بالعيش خيرةً ... أرى الموت خيراً من حياة تكلّفا

فلا خير في هذا الـــزمان وأهـــله ... ذئابٌ مما تلقى بهم قَطُّ مُنصفا

مشـــوا فـــي بلاد الله بالجور وافتروا ... وأكلوا تراث الناس بالزور والهنا(١٣٨)

ومن مشاهير أولياء وعلماء هذا القرن:

الشيخ سالم والشيخ صارم الروّس، والشيخ جبرائيل والشيخ محمد والشيخ علي الروّس، والشيخ سليمان الخربة، وزاهر حمدان بقرحي، وقاسم بن علي الخياط، وعبد الحميد القرنبادية، وإبراهيم الدوير الصرامطة، وأحمد غزالة الحمصيّ من حمص.

المراجع

١٢٧ ـ حاضر العالم الإسلامي ج١ ص٣٠٦ .

١٢٨ ـ تاريخ لبنان ص٣٩٨ .

١٢٩ ـ المسلمون العلويون في لبنان ص٣٠ .

١٣٠ ـ المسلمون العلويون في لبنان ص٣٤ .

١٣١ ـ المسلمون العلويون في لبنان ص٣٨ .

١٣٢ ـ النبأ اليقين عن العلويين ص١٥٨ مع وجود بعض الاختلاف بين ط١ وط٢ .

١٣٣ ـ المسلمون العلويون في لبنان ص١٤٩ .

١٣٤ ـ خير الصنيعة ج٢ ص٩٠٥ .

١٣٤مكرر ـ خير الصنيعة ج٢ ص٩٠٨ .

١٣٤مكرر ـ كتاب يقظة المسلمين العلويين في مطلع القرن العشرين للشيخ عبد الرحمن الخير ص١٧ .

١٣٥ ـ خير الصنيعة ج١ ص٤٧٦ .

١٣٦ ـ خير الصنيعة ج٢ ص٦٦٠ .

١٣٧ ـ خير الصنيعة ج٢ ص٧٨٨ وما بعدها .

١٣٨ ـ خير الصنيعة ج٢ ص٨٨٠ ـ ٨٧٩ .

الفصل الثالث عشر

العلويّون والعثمانيون

يوم ٢٠ جمادى الأولى عام ٨٥٧هـ الموافق ٢٩ أيار ١٤٥٣م، استولى السلطان العثماني السابع محمد الفاتح على مدينة القسطنطينية عاصمة دولة الروم البيزنطية، وقضى على هذه الدولة المسيحية واتخذ من القسطنطينية عاصمة لمملكة آل عثمان التي أسسها لهم جدّهم أرطغرل في نهاية القرن الرابع الهجري، وقد لقّب محمد هذا بالفاتح لأنه فتح القسطنطينية التي استعصى فتحها على العرب المسلمين منذ عام ٣٤هـ، وقد حاصروها إحدى عشرة مرة وعادوا خائبين بسبب تحصينها القويّ وأسوارها المنيعة، ولكن قيّض الله لمحمد الثاني فتحها، ثم تابع الفتوحات في أوربا حتى وصل بلاد المجر، ولكن جيشه هزم فيها، وبعد موته عام٨٨٦هـ/ ١٤٨١م، انقسمت المملكة بين ولديه: بايزيد الثاني وأخيه الأمير (جم) فقاتل بايزيد (جم) وهزمه، ففرّ (جم) إلى مصر ثم إلى رودس فاحتجزه رهبان القديس يوحنّا الأورشليمي عندهم، وفي نهاية حكم بايزيد ثار أولاده عليه وطالبوا بالحكم لأنفسهم وهم ثلاثة:

(كركود وأحمد وسليم) وقد أجبر الانكشارية بايزيد على التنازل عن السلطنة لصالح ولده (سليم) فقبل، وأصبح سليم سلطاناً في ٨ صفر ٩١٨هـ ٢٥ نيسان ١٥١٢م، وكان أول عمل قام به هو قتل أخويه وأولاد إخوته ليخلص له الملك، فقتل خمسة من أولاد إخوته، ووزيره مصطفى باشا، ولمّا اطمأن إلى استقرار الأمور الداخلية أراد أن يحوّل الفتوحات من اوربا إلى جيرانه الفرس والمماليك لينشر المذهب السنيّ كما كان يدّعي (الواقع أنه كان يريد ضم أراضي جيرانه إليه بعد عجز العثمانيين عن الفتح في أوربا)، ويقضي على المذهب الشيعي الذي كان ينشره الشاه إسماعيل الصفوي حاكم إيران، وكان الشاه إسماعيل قد ساعد أحمد شقيق سليم وقبل من التجأ من أولاده عنده، وكذلك أرسل وفداً إلى مصر وطلب من حاكمها قانصوه الغوري عقد حلف بينهما لإيقاف توسّع الدولة العثمانية في بلادهما فقبل الغوري طلبه وصار حليفاً له، فأدّى هذا إلى غضب سليم وقرّر محاربة الاثنين، ولكي يجد سبباً للحرب أمر بحصر عدد الشيعة المنتشرين في الولايات المتاخمة لبلاد العجم بطريقة سرية، ثم أمر بقتلهم جميعاً، فقتلوا، ويقال إنّ عددهم كان يبلغ أربعين ألفاً.[١٣٩]

وبعد ذلك سار بجيوشه لمحاربة الشاه إسماعيل الذي كان يترقّب هذا الفعل فالتقى جيشاهما في مكان يدعى (جالديران) قرب تبريز عاصمة إيران آنذاك، وانتصر الجيش العثماني لأنه استخدم المدافع الحديثة، وهزم الشاه ففرّ نحو الحدود الروسية فطارده سليم، ولكن قواد الإنكشارية طلبوا منه الكفّ عن المطاردة بسبب البرد الشديد. وعندما عاد إلى القسطنطينية أمر بقتل عدد كبير من ضباط الإنكشارية وقتل قاضيهم. ثم أمر جيوشه بالتوجّه نحو بلاد الشام، فاستولت على مدن ماردين وأورفة وديار بكر والموصل والرقّة واتجهت نحو حلب.

وراسله سلطان المماليك الغوري عارضاً عليه التوسّط بينه وبين الشاه إسماعيل لإبرام الصلح بينهما، ولكن (سليماً) أهان السفير المملوكي وطرده فتأكد قانصوه أن (سليماً) يريد ضمّ بلاد الشام ومصر إلى ملكه فنهد بجيشه لملاقاة الجيوش العثمانية فالتقاها قرب حلب في مكان يدعى (مرج دابق) وقد دارت الدائرة على قانصو الغوري وجيشه وكان النصر للعثمانيين يوم الأحد ٢٥ رجب ٩٢٢هـ/ ٢٤ آب ١٥١٦م.

وحدث نصر العثمانيين بسبب استخدامهم المدافع والبنادق التي رفض قانصوه وجيشه استخدامها باعتبار أنها من أدوات الغدر وليست مقياساً للشجاعة. فالشجاعة بمفهومهم هي الانتصار على العدوّ بالسيف والنزال وجهاً لوجه. وهناك عامل آخر في الانتصار هو خيانة بعض القواد المماليك وانحيازهم إلى سليم من مثل: جانبرد الغزالي وخاير بك، ولمّا شاهد قانصوه انحيازهما بفئة من الجيش إلى العثمانيين تفجّر غيظاً وقهراً وسقط عن ظهر جواده، وبعد انتهاء المعركة فتشوا عنه فلم يجدوا له أثراً.

تابع سليم زحفه واستولى على حماة وحمص ودمشق، ثم يمّم شطر مصر، والتقى الجيش المملوكي بقيادة طومان باي آخر سلطان للمماليك قرب القاهرة في ٢٩ ذي الحجة ٩٢٢هـ/ ٢٢ك٢/ ١٥١٧م، وهزم المماليك وقضي على دولتهم وأصبحت مصر وبلاد الشام تابعة للسلطنة العثمانية.

وبعد أن قضى سليم على المماليك التفت إلى سكان بلاد الشام ليعاقب الشيعة الذين ساهموا بالحرب إلى جانب قانصوه فأوعز إلى أحد الشيوخ السنّة بأن يصدر فتوى بقتل العلويين، فأفتى ذلك الشيخ بهدر دمائهم (إنه الشيخ نوح الحنفي، كابن تيمية جديد)!..

ويا هول ما جرى للعلويين آنذاك!!! اقرأ وتصور:

والنقل من كتاب النبأ اليقين. قال المؤلّف:

«فكانت موقعة مرج دابق التي انتهت بدحر المماليك وانتصار العثمانيين وإمعان سليم في نفوس العلويين ودورهم قتلاً وتخريباً.

لقد انصبّ عليهم انصباب السيل المتدافع، وانقضّ عليهم انقضاض الصواعق المحرقة، فأخذهم أخذاً وبيلاً وفتك بهم فتكاً ذريعاً، ولم تهدأ نفسه الثائرة، وتستقر أعصابه المتوترة حتى ظنّ وظنّت بطانته الفاسدة أن تلك الفرقة انقرضت أو كادت فأغمد سيفه الأثيم، وهو ينظر إلى تلك الدماء تقطر منه فتأخذه العزة بالإثم، وقد أباد بتلك الفتوى الجائرة من مؤمني حلب أربعين ألفاً أو يزيدون، وانتهب أموالهم، وأخرج الباقون من ديارهم». [١٤٠]

وهذا يفسر إقفار حلب والرقة من العلويين...

وينقل الأستاذ أديب علي محمد سلمان وصفاً مكمّلاً فيقول:

«جاءت الطّامة الكبرى للعلويين بمجيء الأتراك الذين قتلوهم زرافات ووحدانا في أيام سليم حتى إنه أقسم أن يدير طاحوناً بدمائهم فقتل منهم صبراً في يوم واحد ستين ألفاً من ذوي اللحى غير النساء والأولاد، وتتابع خلفاؤه على ذلك». [١٤١]

والمعروف عن سليم هذا أنه كان سفّاحاً للدماء (كان من المفروض أن يطلق عليه المؤرخون لقب أبو العباس السّفاح الثاني لكثرة ما سفك من دماء العلويين والشيعة) فهو لم يتورّع عن قتل أخويه وأولاد إخوته خنقاً وقتل من أهل بيت السلطنة سبعة عشر شخصاً وسبعة من وزرائه لأسباب واهية، وكان كل وزير مهدد بالقتل لأقل هفوة حتى صار يدعى على من يرام موته بأن يصبح وزيراً له. [١٤٢]

ولقتله أفراد أسرته دعي بـ(ياوز) أي: القاطع، قاطع الرحم والقرابة!!!

ومن جرّاء هذه المجازر الرهيبة المرتكبة ضد العلويين هرب من بقي منهم إلى الجبال وتركوا المدن والبقاع الداخلية وأخليت منهم الرقة وحلب التي لم يبق فيها إلا القليل القليل.

ومن رغب في حلب البقاء اعتنق المذهب السنيّ وغيّر كنيته ولقبه. وعاش العلويون ظروفاً قاسية سيئة، وصار الواحد منهم يقتل على الشبهة، ففرّوا بأنفسهم إلى جبال الساحل

ولكنهم تعرّضوا للفتك بهم قبل الوصول، وسلبوا أموالهم، وهتكت أعراضهم، واغتصبت نساؤهم وبناتهم، وما أكثر من مات منهم بعد هذه المسيرة الطويلة الشّاقة المحفوفة بالموت والفناء، ومن وصل سالماً إلى الجبال، حلّ بها وهو شبه عار أو حاف، يجرّ عنزاً أو شاةً، أو يحمل صرّةً فيها بقية ثياب، أو بلغة عيش.

وتلقّى الأخوة أخوتهم، وفتحوا قلوبهم وبيوتهم وقاسموهم أراضيهم وأحراجهم، وحين لم تكف سكنوا في بطون الجبال متّخذين المغاور والكهوف بيوتاً تأويهم وتحميهم من القرّ والحرّ وفتك الوحوش والعثمانيين.

ولم يكتف سليم بما فعله، بل رغب بعزل العلويين المستقرّين في الجبال عن بقية سكان بلاد الشام، فقام بترحيل مليون تركي من داخل الدولة العثمانية وأسكنهم في السهول المحيطة بجبال العلويين من جبال طوروس إلى جبال عكّار، وجعلهم حاجزاً بين جبال العلويين والأتراك وسكان سورية، وتكاثر هذا العدد بعد ذلك وأصبح يتجاوز الملايين الثلاثة بعد قدوم الأرمن وغيرهم، وليعزل العلويين عن طرابلس وحمص وحماة وحلب قام بإسكان التركمان والأكراد في مناطق الأرياف القريبة من هذه المدن فصاروا حاجزاً بشرياً.

ونلحظ ذلك في ريف حمص وحماة الواقع بين الجبال وبين هاتين المدينتين، فالتركمان يسكنون قرى مستقلة بهم أو يختلطون اليوم مع العلويين، ونذكر من هذه القرى على سبيل المثال لا الحصر قرى: الزارة والحصن في منطقة تلكلخ، وخربة السودا وقزحل وسنيسل في محافظة حمص وعاشق عمر وعقرب وبعرين في محافظة حماة.

وننقل عن تاريخ حمص ص٢٨٨:

«ومن الأنباء الموروثة التي يتناقلها الحمصيون أن باب التركمان الذي دخل منه السلطان سليم إلى حمص أغلقته الحكومة بالحجارة منذئذ احتراماً للسلطان المذكور، وبقي هذا الباب مغلقاً حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، ويُعرف الآن بالباب المسدود، ولما رأى السلطان سليم أن العنصر العربي والمذهب الشيعي قويّان في حمص، استقدم عدة عشائر تركية الجنس سنيّة المذهب وأسكنها في الجهة الغربية من المدينة قرب قلعتها لكي يأمن بها عوادي الفتن القومية والتحزبات المذهبية على أن هذه العشائر تعرّبت بعد زمن غير طويل».

وبعد زمن من هذه الإجراءات ونتيجة لضعف الدولة العثمانية وتراخي الحكام بقبضهم الرشاوى، انحدر العلويون من الجبال إلى المناطق والمدن التي كانوا يسكنون بها قبل الفتك بهم.

وهناك عامل مهم أدّى إلى هذا التراخي وهو عامل اقتصادي إذ أقفرت الأرض من العاملين فيها، وكان لا بد من أيد عاملة تعيش بحسب إرادة الإقطاعي المالك لعدد من القرى والمزارع، ولذلك تراخى هذا الإقطاعي وسمح للعلويين بالعمل في أراضيه نظير بيت يأويهم، ولم يكن له الحقّ بالمعارضة والاعتراض على أيّ أمر يأمر به الإقطاعي، فهو معرّض للسخرة والعمل الشاق في بيت الإقطاعي، ولهذا الإقطاعي الحق في تهجيره من بيته وأرضه في أي وقت يعنّ له ذلك. ولذلك نلحظ كثرة القرى التي كانت مسكونة بعلويين لا يملكون من أراضيها شبراً واحداً.

وقد تكاثر نزوح العلويين إلى ريف حمص وحماة الشرقيّ أيام حكم إبراهيم باشا المصري نتيجة للتسامح الديني الذي أظهره.

وبعد القضاء على حكم المصريين وترحيلهم عن بلاد الشام عام ١٨٤٠م، وعودة البلاد إلى حكم العثمانيين، قاموا بوضع سدّ بشري جديد بين الريف الشرقي لحمص وحماة يتمثّل بالبدو والجركس (هذا ما أخبرني به السيد خالد الزهراوي وهو بذلك عليم).

بعد موت السلطان سليم صار ولده سليمان الملقّب بالقانوني سلطاناً، وقد قام بوضع تنظيمات إدارية لحكم إمبراطوريته الواسعة، واختار لحكم الطوائف زعماء منها.

ونرى في هذا العصر عودة ذكر المقدّمين العلويين مع تعاظم دور رجال الدين، ومع ذلك يبقى ظلم الولاة المستقرّين في المدن الكبيرة لمراقبة العلويين وحكّامهم والتدخل في أمورهم بين حين وآخر. وقد وجدت الخبر التالي في تاريخ الشيخ عليّ بن صارم من قرية (الدريب) ما مفاده: أنه في عام ٩٧٠هـ/ ١٥٦٢م تتابع الجدب والقحط والغلاء مقدار اثنتين وعشرين سنة وحدث سبيٌ، وقتل وأحكام جائرة، وقد خصّ حماة وجهاتها الشرقية والجنوبية والغربية بالذكر (وما أصاب حماة في بلادها من المحل وشيزر وسلمية (والعلاة وجهاتها) وحبست الأمطار ويبس العشب مقدار كانون وكانون وشباط وآذار ونيسان، وشلح البذار ولم ينبت، وأخبر عن شكوى النساء وبكائهن وبيع أطفالهنّ». [١٤٣]

الظلم التركي كان رهيباً، وكان باستطاعة أيّ فرد تركيّ أن يعرف دقّة تسديد بندقيته الجديدة بالتسديد على أجساد العلويين وإطلاق النار على أيّ فرد يختاره.

وكان لحصر العلويين في الجبال آثار اقتصادية فقد انصرفوا إلى زراعة الأشجار المثمرة والحراجيّة فتشكّلت غابات كثيفة كانوا يهربون إليها وقت الخوف وشن الغارات عليهم من

السلطة الحاكمة، واهتموا بتربية الماشية كالأغنام والماعز والأبقار، وسنّ لهم رجال الدين تشريعات تناسب عزلتهم فحرّموا ذبح إناث الأغنام والماعز والأبقار بسبب الحاجة إليها في التوالد والتكاثر، ولذلك امتنعوا عن أكل لحومها طوال مدة الحكم التركي لحاجتهم الاقتصادية إليها، وقد عاد معظمهم اليوم إلى أكل لحومها بسبب زوال المانع الاقتصادي.

وبسبب انعزالهم أيضاً حُرموا من العلم والاطّلاع على المعارف والعلوم فتفشّى فيهم الجهل والخرافات والأساطير؛ وهذا الأمر شاركهم فيه الشعب العربيّ كله في كل البلاد العربية التي احتلّها العثمانيون، ولم يكونوا وحدهم فيه؛ ففي الوقت الذي كانت فيه أوربا تنهض من غفوتها وتأخذ بأسباب العلوم والمعارف فتتحسّن الأراضي الزراعية وتنشأ المعامل وتُكتشف القارات والمحيطات والبحار وتتاجر مع سكان المعمورة، كان السلاطين العثمانيون منغمسين في اللهو والملذات محتجبين عن رعاياهم، تاركين تصريف الأمور للوزراء والولاة وقواد الجيش الذين كان دأبهم فرض الضرائب الباهظة على السكان ونهب أقواتهم وأرزاقهم والاعتداء على نسائهم وأولادهم حتى خيف على النساء الشريفات العفيفات الجميلات والأولاد الصغار من الاعتداء فمنعوا من الخروج إلى الأسواق.

وعندما يحلّ المساء كانت الأسواق تغلق ويأوي كل فرد إلى بيته فتقفر الشوارع من المارة إلا من أهل الفساد الذين يسرحون ويمرحون ويرتكبون الموبقات. فكثرت المومسات (الشلكات)، وكثر اللوطيون أيضاً، وانتشرت عادات سيئة وقبيحة في المجتمعات، وساد التعصّب، ومنعت الفئات المخالفة من إقامة شعائر عبادتها علناً وتعرّض المسيحيون للإذلال، وحصر الشيعة بكافة فئاتهم في مكان معيّن يدعى حارة (الرّوافض)، وأهمل الحكام الأراضي الزراعية فلم يصلحوها ولم يهتموا بقنوات الري فتدهورت المحاصيل وقلّت المنتوجات فارتفعت الأسعار وعمّ الغلاء، واحتكر التجار وأصحاب الدكاكين المواد الغذائية فتضوّر الفقراء جوعاً، فلا تستغرب أن باعوا أطفالهم ليعيشوا..

وكان الشعب بين آن وآن يعتدي على علماء الدين والأعيان ويتهمهم بأنهم أصبحوا أدوات في أيدي الحكام يساعدونهم على الجور والطغيان، ونقتطف من كتاب (حوادث دمشق اليومية) المعلومات الآتية:

١ - **وصف الحكام**: وفي عاشر ذي القعدة ١١٥٥هـ، دخل مصطفى باشا متولي طرابلس نهار الاثنين إلى دمشق؛ عيّنته الدولة (سرداراً) على الجردة، والمذكور كان سفّاكاً للدماء،

ظلوماً غشوماً ، أهرق دماء كثيرة حينما كان بطرابلس ، وكان غالب قتله (بالكلاّب) و(الشّنكل) ، يترك الرجل حتى يموت جوعاً وعطشاً فهرب غالب أهل طرابلس من ظلمه وتفرّقوا في البلاد ، وأرسل أعوانه في طلب الهاربين ، فالذي قبضوا عليه كان من الهالكين . ص٣٢ .

ونقل عن تاريخ حمص: فاق ظلم الحكام على شدة الزعماء وكان الحاكم في حمص يثور لأدنى الأسباب فإذا بدرت من أحد المواطنين بادرة مهما كانت تافهة بادر وأمر برفعه على الخازوق ، وإذا غضب على امرأة وضعها في كيس من خيش وغمرها بالكلس ثم يربط فم الكيس ويلقيها في نهر العاصي لتحترق وهي حيّة في الماء ، وكان إذا سمع برجل عنده مال سرعان ما يستقدمه إليه ويجبره على تقديم كميّة من المال قد تكون كلّ ما عنده أو أكثر ممّا لديه . ص٣٠٩ .

٢ ـ شدّة الغلاء: سنة ١١٥٦هـ ، وهل هذا العام الجديد ورطل الخبز في الشام بأربع مصاري وبخمسة ، ورطل الأرز بثمانية مصاري ولا توجد مع أنه كان من نحو شهر كل رطل وثمانية أواق بقرش ، ولكن الخزّان ما أبقى للفقراء قمصان ، وأوقية العسل بخمسة مصاري ، ورطل لحم الضأن بثلاثة مصريّة ، ورطل لحم الجاموس ولحم البقر بعشرين مصرية ، ورطل الثوم باثنتي عشرة مصريّة ، وأوقية الزيت بمصريتين وقطعة . وهذا الغلاء ما سمعنا بمثله أبداً ، وطال المطال والناس منتظرة للفرج من الملك المتعال . ص٣٥

(الكلام مكتوب بالعامية لأن مؤلفه كان حلاقاً) .

وفي يوم السبت الثامن والعشرين من جمادى الأولى من هذه السنة قامت العامّة وهجمت على المحكمة وطردوا القاضي ، ونهبوا الأفران وسبب ذلك كثرة الغلاء والازدحام على الأفران . ص٤١ .

٣ ـ غنى الحكّام: عمل فتحي أفندي الدّفتري فرحاً عظيماً بهذا الشهر أعني به (ربيع الأول) زوّج ابنته لابن أخيه وكان فرحاً عظيماً ما عمل بدمشق نظيره ولا بلغ أحد أنه عمل مثله ، وكان سبعة أيام خصّه بجماعة : فاليوم الأول خصّه بحضرة والي الشام سليمان باشا العظم ، واليوم الثاني إلى الموالي والأمراء ، واليوم الثالث إلى المشايخ والعلماء ، واليوم الرابع للتّجار والمتسبّبين ، واليوم الخامس إلى النصارى واليهود ، واليوم السادس للفلاحين ، واليوم السابع إلى المغاني والمومسات ، وهم بنات الخطا والهوى ، وقد تكرّم عليهم كرماً زائداً ويعطيهم الذهب والفضة بلا حساب . ص٣٩

٤ ـ فساد الأخلاق: جاء أهل الميدان بطبول وأعلام وصريخ وقصدوا جامع المصلّى بالدعاء برفع الجراد وهلاكه ويقولون: يا من له المراد في كل ما أراد بالمصطفى الحبيب فرّج عن البلاد فلم يفد ذلك. وكيف يفيد ذلك وأكثر النساء قد باحت، وبنات الهوى وهم الخاطئات دائرات ليلاً ونهاراً في الأزقة والأسواق ومعهم الدالاتيّة والفسّاق ولا أحد يتكلم بقيل وقال، ولا أمر بمعروف ولا نهي عن منكر، والصالح في همّ وكرب، والفاجر الطّالح متقلّب في لذيذ النعيم. اللهم فرّج. آمين. ص٩٢ ـ ٩٣.

٥ ـ خراب القرى: سنة ١١٦١هـ ثم دخلت سنة ١١٦١هـ وقد خربت القرى من جور الدالاتية، ومن أعمالهم التي هي غير مرضيّة. ص١٠٦.

٦ ـ التهجّم على الأعيان: جاءت الأفندية والأعيان للسرايا لأجل السلام على الباشا فوقفت الناس والعامة في طريقهم فلمّا مروا عليهم ليدخلوا السرايا قامت العامّة بالصراخ والضجيج، وصاحوا عليهم وقالوا: ارجعوا لا بارك الله فيكم، أنتم منافقون، وتعينون الحكّام على ظلم الفقراء والمساكين. وأكثروا من سبّهم وشتمهم ورجموهم بالأحجار وصارت حالة مزعجة. ص١٩٧.

٧ ـ الاعتداء على النساء والأولاد: وننقل من كتاب (الشرق الإسلامي في العصر الحديث) ما يأتي: «ولم يكن لحدث أو لامرأة شابة جميلة المرور أمام القهاوي التي يجتمع فيها العسكر خيفة أن يضحوا فريسة لأولئك الجهال». ص٢٦٦ نقلاً عن حسر اللثام عن نكبات الشام ص٣٣.

٨ ـ الجمود والجهل وخمود العلم: حتى القول إن قيام الدولة العثمانية كان يقظة للعالم الإسلامي لا يخلو من خطأ: إذ استمر الركود بل استحال خموداً وازدادت الهمم هبوطاً والعقول جهلاً، وتضاءلت في نواحي الدولة بوارق النهوض الأدبي أو الفني التي كانت تنبئ بالخير في بعض نواحي مصر والشام فسكن كل شيء وركد في ظل هذه الوحدة الظاهرة التي عرفت بالدولة العثمانية. ص٣٢

٩ ـ سيادة العثمانيين شرٌّ على العالم الإسلامي: كانت سيادة العثمانيين شراً على العالم الإسلامي فبدأ يضمحل من الناحية المعنوية حتى أصبح وقطعان الماشية قريباً من قريب يؤدي للراعي ما عساه يريد منه وإذا كانت هذه هي كلّ مهمّته في الحياة فلم تعد به حاجة

للتفكير أو العلم فبدأ يطغى عليه الجهل والجمود حتى أصبحا ظلمات بعضها فوق بعض، وما هي إلا سنون حتى بدأ النوم يداعب أجفان الراعي، ومال به غناه إلى الترف والراحة فَوَكَلَ للإنكشارية أمر الرعية وأقبل على النوم فاستولى عليه سبات عميق. ص٣٣

١٠ ـ **وضع النصارى في بلاد الشام:** كان النصراني لا يملك أن يساوي نفسه بالمسلمين فيما يلبسون أو يركبون أو يفعلون، ولم يكن ليجسر على المسير عن طريق المسلم حتى لقد كان يقابله في الطريق فلا يلبث أن يتياسر في طريقه أدباً واحتراماً. ص٢٦٤

١١ ـ **الطوائف في بلاد الشام:** كان تاريخ الشام قد فرض عليها أن تكون متحفاً لكل غريب طريف من الأديان والمذاهب، فهذه البلاد التي لا يزيد عدد سكانها على بضعة ملايين تضم كُل ألوان الأديان بمذاهبها المختلفة وتنفرد بطائفة لا تحصى من المذاهب الخاصة بها: كطوائف الموارنة والدروز والسمرة، والنصيرية. ص٢٦٥

هذه هي الأوضاع التي كانت سائدة في الدولة العثمانية: مجتمعات متعادية ينخر فيها الفساد والجهل، تتمنى لبعضها الفناء والإبادة، وكلما جاء جيل رضع من الجيل الذي قبله الكره والعداء والتباعد.

ونورد شاهداً للشيخ عبد الرحمن الخيّر يتحدث فيه عن فقر العلويين وجهلهم أثناء حكم العثمانيين «وفقر الأكثرية من المسلمين العلويين مثل فقر الأكثرية من أمثالهم المسلمين السنيين في الأرياف إنما هو حاصل من أسباب كثيرة أهمها تتابع الاعتداءات عليهم خلال مراحل التاريخ وخاصة في الحكم العثماني من قتل ونهب وسلب وتشريد فأصبح الراسخ لديهم بتأثير ذلك أن لا فائدة من امتلاك الأراضي وكسب الأموال وتشييد الأبنية وجمع الكتب ما دام كلّ ذلك عرضة للتدمير والسلب وطعمة للنيران والأوباش، وساعد على هذه الفكرة تفشّي الجهل بينهم بسبب عدم استقرارهم اجتماعياً وبسبب العزلة التي فرضها عليهم حصارهم في جبالهم التي لم يسلم لهم فيها من موارد الرزق إلا رعي المواشي.

وقريب من هذا حال أكثر سكّان الأرياف في البلاد التي حكمها العثمانيون ومن والاهم وورثهم من الإقطاعيين الظالمين الذين كان همّهم الاستئثار بجهد الطبقة العاملة واغتصاب ثمرة أعمالها وتركها تعيش في الفقر والحرمان والهوان كيلا تقوى فتطالب بحقّها في الحياة العزيزة». [١٤٣ مكرر]

وكان للعزلة تأثير واسع على عقول العلويين وتفكيرهم، وطرق حياتهم، فقد استدعى أمر حصرهم في المنطقة الساحلية والجبال إلى ضرورة وضع حكّام منهم يسوسونهم ويؤمنون للدولة الضرائب والسخرة والهدوء والاستقرار في أماكن حكمهم، وبخاصّة بعد سنّ قوانين جديدة أصدرها السلطان سليمان القانوني الذي نظم شؤون الدولة والأقليات المسيحية بقوانين ارتاحت لها الدولة الأوربية وباركتها بشكل أكبر فرنسا التي صارت بموجب قانون حماية الأقليات في الدول العثمانية صاحبة الحق في حماية المسيحيين وبخاصة الموارنة والكاثوليك.

وفي هذا المجال نلحظ عودة ذكر المقدّمين في حكم العلويين والدفاع عنهم، مع انقسام العلويين إلى عشائر مختلفة (القرن العاشر) ولكل عشيرة رئيس أو أكثر يسانده رجال الدين من العشيرة نفسها. ونظراً للمرحلة الصعبة آنذاك يدافع الشيخ محمود الصالح مؤلف كتاب (النبأ اليقين عن العلويين) عن الفكرة ولكنه يشجب ويستنكر الطريقة التي كانت تحكم بها هذه العشائر فيقول: «إن العلويين وهم عرب أقحاح وبحكم انهم من قبائل متفرّقة ومن بيئات مختلفة فقد ألجأهم واقع حالهم إلى التقيد بعادات العشائر العربية والسّير على النهج القبائلي المتّبع فألقوا مقاليد أمورهم إلى رؤساء يصرفون شؤونهم، وينظمون إدارة أحوالهم. أمّروهم عليهم وأولوهم حلّ مشاكلهم وإصلاح ذات بينهم وذلك ما لا بدّ منه في تلك الحقبة العصيبة من تاريخهم والمرحلة الشاقة من أدوار حياتهم.

لقد تولّى أمرهم كل من لا يهمه أمرهم، قادة حملوهم على أجنحة أهوائهم عبر مراحل حياتهم وألقوهم في أنأى المهالك والمتاهات، وأعمق أودية المخاطر في وقت كانوا أحوج ما يكونون إلى الإخاء والتضامن ونبذ الفوارق أخذ أولئك الرؤساء يناوئ بعضهم بعضاً ويعمل كل منهم بما يراه من مصلحته، ويحكّم هواه في عقله، ويسير ويسيّر قومه وراء نزعاته ورغائبه ويبثّ فيهم روح التخاصم والكراهية لإخوانهم أبناء العشائر الأخرى ضارباً بصالح الشعب ومصالحه عرض الجدار غير آبه لما تؤول إليه حالة الجماعة، ولا متفكّر بمصير شعب قائم بتصريف أموره ومسؤول أقام العدالة الإلهية والأنظمة الاجتماعية عن إدارة شؤونه ورعاية حقوقه وتوجيهه إلى ما فيه خيره وصلاحه، إلى أن كان من جرّاء ذلك التوجيه الفاسد أن أخذ العلويون يغزون بعضهم بعضاً، ويسلب بعضهم اموال بعض وكثر بينهم النهب وعمّت الفتنة». [١٤٤]

كتب الشيخ محمود الصالح هذه الكلمات المضيئة المعبّرة المستنكرة للعشائرية والتفرقة في منتصف هذا القرن، ونحن على مشارف نهايته نذم وندين ونلعن كل من يدعو إلى التفرّقة والاختلاف، ونبارك كل فرد في هذا الوطن يحارب العشائرية والطائفية والتعصّب والعصبية، فنحن عرب نسعى لإقامة الدولة العربية الواحدة، ولن تقوم هذه الدولة إلا بالتكاتف والتعاضد ونبذ الفرقة والتعصب، وإشاعة الحبّ والتسامح والإخاء.

من جرّاء انتشار العشائرية وتطايرها صارت هجرات داخلية ضمن مناطق العلويين وبخاصّة في الجبال المطلة على اللاذقية، فسكنت كل عشيرة بغالبيتها في قرى وأحياء متجاورة. وقد استقينا هذا التفسير من مقال للدكتور يوسف نعيسة منشور في مجلة (دراسات تاريخية)، يتحدث فيه عن المقدّمين ودورهم في الحياة الاجتماعية العلوية فيقول: «وكان لكل مقاطعة في اللاذقية شيخها أو (المقدم) وهو زعيم العشيرة التي تستقرّ في المقاطعة ويرتبط الفلاحون بالرابطة العشائرية، ويفصل كلّ عشيرة عن الأخرى في الجبال وادٍ أو مرتفع أو نهر وفيها حاضرة كبيرة يستقرّ فيها المقدم.

وكانت متسلميّة اللاذقية مشكّلة من (١٤) مقاطعة هي: القدموس، بني علي، المهالبة، القرداحة، الجهنيّة، دريوس، البهلولية، المرقب، الخوابي، زمرين، صهيون، جبل الكراد، البابر، البوجاقا».(١٤٥)

ويتابع الوصف فيقول: «وفي مقاطعات اللاذقية الجبلية جرّ الإقطاعيون (زعماء العشائر) فلاحيهم للصدام مع فلاحي المقاطعات المجاورة لأتفه الأسباب أو للخلافات التي كانت تنشب بين هؤلاء الإقطاعيين، ففي منتصف القرن التاسع عشر الميلادي هاجم فلاحو مقاطعة الكلبية (القرداحة) مقاطعة بني علي (عين شقاق) كما هاجم فلاحو الكلبية فلاحي المهالبة والمعاصرة إلى الشرق من الكلبية في أعالي جبال اللاذقية فأزهقت الأرواح، وقطعت الأشجار، وحرقت الغلال على البيادر وفي الحقول، وردمت الآبار ونهبت البيوت، وذبحت المواشي أو نهبت فخلت قرى عديدة من سكّانها بعد أن أصابها الخراب والدّمار، ومع ذلك لم يقوَ الفلاحون على الانسلاخ عن العشيرة لأن الشاة التي تترك القطيع تلتهمها الذئاب، في وقت ضعفت فيه السلطة المركزية في استانبول وعجزت عن توفير الأمن والاستقرار مما انعكس سلباً على فلاحي تلك المقاطعات. وكان ديدن الحكّام العثمانيين «إلقاء البغض وعدم الوفق والمحبة بين الإقطاعيين لإضعافهم جميعاً». ولولا وجود البغض بينهم لما

كان أحد قدر على شرب ماء من عندهم. . أما وضع فلاحي المقاطعات الساحلية وخاصة القرى المجاورة للاذقية فكان أسوأ من إخوانهم فلاحي المقاطعات الجبلية لوجودهم بالقرب من المدينة مقر الإقطاعيين والحكّام المتنفذين فكانوا كالعبيد مشتراة الدراهم.[١٤٦]

هذه الأمور والأوضاع العشائرية أدّت إلى حدوث أمر اكثر سوءاً من كل الأمور الأخرى، فقد حدث انقسام جديد بين العلويين كان أكثر عمقاً واتّساعاً من كل انقسام سبق. ففي منتصف القرن الحادي عشر الهجري أو قبله بقليل حدث خلاف بين رؤساء ورجال الدين في بعض المناطق مع نظيريهم في مناطق ثانية وتحزّب المناصرون لكل فريق، واندلعت حرب كلامية وكتابية زادت من التباعد، ومنعت من الاتفاق حول وجهة نظر واحدة.

ثم عادت الألفة والمحبة وكأن شيئاً لم يحدث ولم يسيطر شبح الخلاف والبغضاء مدة طويلة من الزمن.

ومن خلال قراءة تراجم العلماء والشيوخ وجدنا أن العلويين خففت عنهم القيود بعد استقرار الحكم العثماني في بلاد الشام وموت السلاطين القريب زمنهم من زمن احتلال بلادنا، فاستطاعوا التنقل بين الجبل وحلب وحماة وأنطاكية وعانة وماردين وسنجار والموصل، وجرى اتصال بين الأسر التي فرّت إلى الجبال، وبين أصولها أو فروعها التي بقيت في المناطق التي تعرّضت للقتل والذبح والتشريد؛ فأعادت وصل ما انقطع ولكن على استحياء وخوف لأن بعض من بقي ترك المذهب العلوي وأصبح سنياً، وقاطعا صلته بذوي قرباه. حدث ذلك في منتصف القرن الثاني عشر الهجري، وفي القرن الثالث عشر نلحظ حركة تسرّب إلى السفوح والحقول القريبة المجاورة للجبال.

وقد جاوروا من جديد الإسماعيليين والأكراد، وعادوا إلى سكنى مدينتي حمص وحماة وأريافهما؛ وكان تسرّبهم وارتحالهم من منطقتي صافيتا والدريكيش إلى المناطق الشرقية لمدينتي حمص وحماة، بل انتقل بعضهم للإقامة في دمشق في حيّ خاص.

وأرى أن سبب عودتهم عائد إلى تخفيف حدّة التعصب بسبب ميل المسلمين جميعاً إلى التكاتف والتعاضد خوفاً من الغزو الأوربي الذي كانوا يرونه ماثلاً أمام أعينهم من تدخل بشؤون الدولة العثمانية بسبب ضعفها، وقيام الانكشاريين بعزل السلاطين الذين حاولوا النهوض بالدولة من خلال القضاء على الفساد المستشري فيها ولنا في السلطان مصطفى

الثاني خير شاهد، فقد ثار عليه الإنكشارية وعزلوه لأنه لم يعزل وزيره رامي محمد باشا الذي شرع في إبطال المفاسد ومعاقبة المرتشين ومنع الظلم فأهاج ضدّه أرباب الغايات وكثير عدادهم، وأثاروا عليه الإنكشارية لميلهم بالطبع إلى الهياج والسلب والنهب وهتك الأعراض فطلبوا عزله من السلطان فامتنع وأرسل لقمعهم فرقة من الجنود فانضمت للثائرين، وعزلوا السلطان مصطفى في ٢ ربيع الآخر سنة ١١١٥هـ/ ١٥ آب ١٧٠٣م.[١٤٧]

منذ ذلك الوقت انحدرت هيبة السلاطين وضعفت الدولة عامّة فاحتلّ الفرس بغداد، وبدأت الدول الأوربية تستولي على البلاد المتاخمة للدولة العثمانية، وبدأت الشعوب الأوربية المستعمَرة من العثمانيين، تتحرر من السيطرة عليها بمساندة الدول الأوربية القوية، وطمعت روسيا وبريطانيا وفرنسا بممتلكات العثمانيين، وأصبحت فرنسا تتدخل بشؤون الدولة العثمانية وذريعتها دائماً حماية مسيحيي الشرق، ونافستها روسيا في هذا المضمار، وأجبر السلاطين على وضع تشريعات خاصة لحماية المسيحيين فصدرت تشريعات تكفل حق المواطنين بإقامة الشعائر الدينية حسب مذاهبهم وطقوسهم وفق المواد ١١ و١٦ و١٧ من القانون الأساسي للدولة، وهذه التشريعات خفّفت من قوة الضغط على العلويين ومكنتهم من التنقل والإقامة بدون مانع قانوني، بل قام بعض علمائهم على الاتصال بالشيعة في لبنان. ففي بداية القرن الثالث عشر الهجري تمّت أول مراسلة بين شيخ علوي وإخوانه الشيعة في جبل عامل، وهذا الشيخ هو سلمان بن أحمد بن قرية (بيضين) من أعمال حماة؛ وكانت المراسلة شعرية وفيها حثٌّ على التلاقي وتوحيد الصفوف، واستجاب علماء جبل عامل وحضر بعضهم مع فئة مختارة لملاقاة الشيخ والتباحث معه في قرية (بيضين) وفي منتصف الطريق إلى القرية المذكورة سمعوا أن الشيخ سلمان قد فارق الحياة، ولقي وجه ربه بكريماً.[١٤٨]

وفي نهاية القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر الهجريين نقرأ بعض أخبار العلويين في كتب المؤرخين من غير العلويين، إذ تذكر أخبارهم لأول مرة من خلال أحداث جرت كان العلويون أطرافاً فيها. فالأمير حيدر الشهابي الذي كان مسلماً ثم ارتدّ وأصبح مسيحياً مارونياً يذكر في تاريخه المسنّى (الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان) العلويين لأول مرة في كتابه من خلال الحديث عن أمير جبل لبنان. يوسف الشهابي الذي فرّ من قاعدة ملكه في جبل لبنان عام ١١٩٨هـ/ ١٧٨٣م، والتجأ إلى صافيتا هرباً من أقربائه الذين كانوا يرغبون

بطرده من دياره. وحلّ الأمير يوسف ضيفاً على صاحب صافيتا (صقر بن محفوظ بن شمسين) وأباح له الدخول إلى دياره وأنزله قرية (سرستان) المقابلة مدينة طرطوس. ويقول المؤلف: إن صافيتا هي إحدى مساكن النصيرية، وعلى عادة المؤرخين القدامى يظهر قلّة معرفته بالعلويين ومعتقداتهم.(١٤٩)

ويذكر قسطنطين بازيلي مؤلف كتاب (سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني) أن الأمير بشير الشهابي يلجأ إلى حكام صافيتا ١٧٩٣م/١٢٠٨هـ، لأن أحمد باشا الجزار يأمره بمغادرة الجبل اللبناني.(١٥٠)

ويتوالى ذكر العلويين في (الغرر الحسان) من خلال الحديث عن نابليون بونابرت الذي استولى على مصر عام ١٢١٣هـ حزيران ١٧٩٨م، فلكي تقاوم الدولة العثمانية نابليون فإنها طلبت إلى ولاتها في بلاد الشام جمع التبرعات والإعانات والذخائر من أجل محاربة نابليون وإخراجه من مصر. ويقوم الأمير حسن الشهابي بهذه المهمة ويذهب إلى (عكار أولاً ويحلّ ضيفاً على علي بك الأسعد ثم يذهبان مع أتباعهما إلى بلاد صافيتا في ١٢ كانون الثاني ١٧٩٩م/ ١٢١٤هـ، وأرسل الأمير حسن إلى الشيخ صقر شمسين أوامر عبد الله باشا أنه أينما حلّ أصحاب المقاطعات تقبله وتقدّم له الذّخاير. وفي تلك الليلة بات في أول بلاد صافيتا وعند الصباح دخل إلى نهر الأبرش، فالتقاه الشيخ صقر وأولاده وقدّم له الذخائر وتفرّقوا في بلاد النصيرية».(١٥١)

ويتحدث عنهم أيضاً ذاكراً أن المدعو مصطفى بربر حاكم طرابلس يقوم عام ١٢٢١هـ/ ١٨٠٦م بغزو بلاد العلويين ويطلب المساعدة من الأمير بشير الشهابي لإعانته في غزوهم، وقد ادّعى بأن صقر المحفوض من بيت شمسين حاكم بلاد صافيتا قد خرج عن (الإطاعة) وعصى في أموال (الميرية) فأعانه الأمير بشير بعسكر من الشوف واجتمع إليه رجال من بلاد جبيل والضنيّة وأهل عكّار وأصحاب وادي راويل، ويبلغ عسكرهم نحو ثلاثة آلاف، واستعان صقر المحفوض بصديقه قائد عسكر (الدالاتية) في حماة الملا إسماعيل، فتأخّر عن نجدته، لكنه أرسل كتاباً إلى مصطفى بربر للكفّ عن مهاجمة صافيتا والاتفاق مع ابن شمسين، وكذلك أرسل له كتاباً والي حماة (يحيى العظم) يتضمن الطلب نفسه. ولكن مصطفى بربر لم يلتفت إلى ما في الكتابين، وأرسل الحملة إلى صافيتا بقيادة جرجس بازكيخية (أمين سر أو مساعد) الأمير بشير الشهابي. ويصف المؤلف فظاعة ما ارتكبته الحملة من حرق الغلال،

وإذلال النفوس، ودفع الأموال للمغيرين المعتدين فيقول: «وفي وصولهم إلى أطراف البلاد ابتدأوا بالحريق وكان ذلك في زمن الحصاد وأحرقوا غلال تلك البلاد، وأذهبوا من أموال النصيرية أموالاً لا تحصى، ونزلوا على نهر الأبرش ولمّا تحقّق الشيخ صقر عدم إسعاف الملا إسماعيل له وأن جميع حكّام تلك المقاطعات ضدّه وجّه أحد أولاد عمّه (وقع) على جرجس باز. وفي وصوله استقبله جرجس باز أحسن استقبال لأنه كان خائفاً من خيانة العساكر الذين معه، وكان باطناً يريد الانصراف فنبّه حالاً بإبطال الحريق عن تلك البلاد وأصلح أمرهم مع مصطفى آغا بربر تحت مئتين وخمسين كيساً (الكيس ٥٠٠ قرش تركي) ورجعت تلك العساكر كل أحد إلى محلّه». [١٥٢]

وفي عام ١٢٢٢هـ/ ١٨٠٧م، أصبح الكنج يوسف باشا والياً على دمشق في زمن هبطت فيه الدولة العثمانية إلى الحضيض بسبب إهمال السلطان سليم الثالث حكم رعيّته وتغافله عن قضاء مصالحها وعدم تأمين طريق الحجّ لأن الوهابيين سيطروا على الحجاز وهاجموا حوران وتعرّضوا للحجّاج وقتلوهم ونهبوهم.

«وفي أيام هذا السلطان اخترعت بدع ومظالم في سائر الأقطار وحصلت الرعيّة على مزيد من الأخطار والأضرار وضعفت في أيامه أمة الإسلام وارتفع لأعدائها جليل الأعلام، وخرجت الولاة من تحت لواء الامتثال فظهرت خوارج في مملكته عنوان الزوال، وقد تملّكت الفرنساوية بالديار المصرية... وتلاشت في مملكته أحوال الرعية، وعدم النظام بالكليّة كما يقول مؤلف الغرر الحسان»، وعندما أراد هذا السلطان أن يبني الجيش من جديد ثار عليه الإنكشارية وخلعوه وولّوا مكانه السلطان مصطفى الرابع.

وعندما استلم الكنج يوسف ولاية دمشق حارب المفاسد وأبطل السهر بالمقاهي وحرّم التدخين خارج البيوت، وأبطل الغناء والألعاب من جميع المقاهي والحارات، وأمر بعدم حلق اللحى وأخرج المردان والشبان الحليقين عن دمشق، ووضع شروطاً على النصارى واليهود، منها أن يكون لبسهم الأسود والأزرق، والخمريّ والأحمر رجالاً ونساءً، ونبّه ألا يلبسوا (صرماية) في أرجلهم، ثم ألزم أناساً من المسيحيين بالدخول في الدين الإسلامي.
وفي شهر ربيع الثاني ١٢٢٣هـ/ ١٨٠٨م حزيران حضر عنده الأمير مصطفى الإسماعيلي وشكا إليه إقدام العلويين على احتلال قرى ومناطق الإسماعيليين فجهّز الكنج يوسف جيشاً كبيراً للانتقام من (الملة النصيرية) وتأديبها حسب قول مؤلف (الغرر الحسان)، وسار على

الطريق الرسمي بين دمشق وحماة، وعند وصول الوزير إلى مدينة حماة خاف العلويون من سطوته وخشوا صولته فتحصّنوا في القلاع وأخلوا القرى والضياع فتقدّمت إليهم العساكر ونهبت أموالهم وأحرقت زروعهم وأغلالهم وخرّبوا جميع تلك البلاد، وسبوا الحريم والأولاد، وتملكوا برج صافيتا من غير قتال، وأمر الوزير بهدمه في عاجل الحال، ثم تجمّعت النصيرية مع كبيرهم الشيخ صقر المحفوض وضربوا عسكر الوزير فلم يظفروا به ورجعوا هاربين فحاصرت الدولة قلعة مصياد (مصياف) وقلعة القدموس وما هناك من حصون الإسماعيليين والعماير الرفيعة ودام الأمر نحو شهرين فضاق على الشيخ صقر المحفوض ذلك الأمر العسير فأرسل أخاه وولديه ليترامو على بساط الوزير ليرفع الأذية عنهم ويرضى بأخذ المال منهم وعند وصولهم إليه ووقوفهم بين يديه أمر في الحال بوضعهم في القيود والأغلال وأقام عليهم العقاب، وعذّبهم أشدّ عذاب فتعهّدوا له بستمائة كيس ويرفع عنهم ذلك (الأنكيس)، فانعطف عليهم بالعدل والحلم!!! ورفع عنهم الجور والظلم وأمر أن ترجع أهالي تلك البلاد إلى مواطنهم وتطمئن خواطرهم، ونادوا عليهم بالأمان ورفع الضيم والعدوان». [١٥٣]

الطّريف أنه ذهب لتأديب العلويين بناءً على طلب من الإسماعيليين، فقام بتأديب العلويين والإسماعيليين معاً. أرأيت أفضل من هذا العدل والحلم؟!! لقد رفع الضيم والظلم عنهم بعد أن دفعوا له ٦٠٠ كيس!!!

ويورد المؤلف الروسي بازيلي هذه الحادثة، ولكن بسخرية من كنج يوسف الذي عيّن لقمع الوهّابيين أقدم على قهر قبيلتي النصيرية والإسماعيليين اللتين تمكن من أن يفرض عليهما (الأتاوة) بعد أن ألغى استقلالهما بهمجية ودمّر حصونهما. [١٥٤]

وترد هذه الحادثة بعينها في كتاب آخر هو تاريخ (حسن آغا العبد). وحسن هذا كان ضابطاً برتبة آغا لدى والي دمشق وعيّن حاكماً على البقاع سنة ١٢٣٦هـ/ ١٨٢٠م، وقد ألف تاريخه بلغة عاميّة ركيكة فيها الكثير من الألفاظ التركية والروسية، وقد سجل الأحداث التي شارك فيها أو سمع بها، ومنها هذه الحادثة: «ثم همّ الوزير يوسف باشا في ركبة (حملة عسكرية على رواحل) على النصيرية جهة طرابلس وجبل عكّار فركب وتوجّه نحوهم لأربعة خمسة آلاف عسكري ومعه مدافع وشاهيّات (نوع من المدافع سبطاناتها طويلة) وراح معه جملة من أولاد الشام (عدد من أبناء البلد) ومن جملتهم الشيخ فتح الله ففروا من قدّامه

فلحقهم وأخذ أكم بلد منهم (عدة بلدان) وقتل خلق كثير من النصيرية وبعث إلى إسلامبول منهم حصّة (بعث عدداً منهم إلى العاصمة)». [١٥٥]

وترد هذه الواقعة في المصادر العلوية بتسجيل الشيخ محمد الخطيب المنتهي نسباً إلى الشيخ علي القصير فيقول: «في سنة ١٢٢٣ وفي تلك السنة أخذ النصيرية بيت شمسين قلعة القدموس وعقبها أتى يوسف باشا الكنج ونهب زحرق وقتل من بلاد صافيتا الكثير. والهول ثم الهول ثم الهول، !!!». [١٥٦]

وننقل عن المؤرخ الحمصي محمد مَخْلي بن عليّ تحت عنوان (التركمان والنصيرية): «في سنة ١٢١٠هـ/ ١٧٩٥م تصدّى أحد أغوات التركمان في قرية حزور لاثنين من النصيرية وهما سائران في الطريق وقرنهما معاً في نير بدل ثورين وأمر تابعه فحرث عليهما الأرض كل النهار من الصباح إلى المساء، ولمّا علم ذووهما بما جرى شقّ ذلك على العلويين وأكبروا الحادث فتألبت جموعهم في الجبال ثم تدفقوا كالسيل على بلاد التركمان فتغلبوا على (١٦) قرية وقتلوا أهاليها بدون شفقة، ومن سلم من أولئك حياً فقد فرّ إلى جهات حمص وحماة. (تاريخ حمص ج٢ ص٣٦٣)».

علماء وشخصيات من القرنين التاسع والعاشر

١ ـ الشيخ حسن الأجرود العانيّ الشاعر من عشيرة الحمّودية: كان عالماً علامة، شاعراً ذكياً، نظم قصيدة سجّل فيها ما جرى عام ٨٥٥هـ من كثرة الجور وانقطاع تجار الإفرنج عن الممالك الإسلامية من كثرة الجور من السلطان والمباشرين، والظلم على العلويين في الساحل، وأرسله الفلاحون إلى القاهرة في زمن بربر سباي فقابله وأبطل الجور عن العلويين، ولكن نائب اللاذقية زجّه في السجن، وتخلّى عنه الفلاحون، وغرّمه النائب مبلغاً كبيراً فأداه عنه المقدم علم الدين سلمان.

شعره كثير فقد معظمه، وله قصيدة يؤرخ فيها للعلويين منذ قديم الزمان، منها:

وربع بعرين في الزّراق قـد عمـرت	يـا حـبّـذا بـقـعـة فـي سـيّـد ذكـرتْ
له علوم كموج البحر إذ زخـــرت	كذا أبـو الـدرّ والقـوم الـذي فـخـرت

وفـي حـمـاة عـمـاد الـديـن سـلـطـان

ونظم رحلته إلى القاهرة وحبس نائب اللاذقية له :

واسـم سلطـان الأنام بعصـرنا	برسباي أبو نصر الهمام الغضنفر
إلى عند (طرباي) الهمـام أقبلـت	مراسمُه بالقول في كل محضر
فجاوبهم طرباي سمعاً وطاعـةً	لما رسم السلطان ليس يغيّر
ونادى بإبطال المظالم جميعـها	عن الساحل المنشور بالعدل ينشر
ونايبنا في اللاذقيـة ظالـمٌ	عتيٌّ زنيٌّ ظالم متجبّر
فأودعني السجن يومين وأربعـاً	ويومين تتبعها حقيق تجبّر
تريد تلاقي عـنوة فـي عتوّه	ويوعدني بالقتل في ذلك مخبر

٢ ـ **الشيخ عماد الدين القاضي التنوخي :** كان قاضي وقته تأتي إليه الناس تستفتيه ديناً ودنيا . وكان برّاً أميناً ، سيّداً ، مسوّداً لبيباً أديباً ، عارفاً متورّعاً ، رزيناً كامل العقل ، عالماً كريماً : سماطه ممدود ، ونيله طائل فوفده القصّاد ، راضياً للخلق . توفي [١٥٩] ٨١٦هـ .

٣ ـ **الشيخ أحمد الاستباري من القرن العاشر الهجري ،** أحمد بن الحسن العزازي عالم ، عارف ، مؤلف ، شاعر .

٤ ـ **الشيخ درويش بن يوسف الأنطاكي :** عالم علامة ، شاعر أديب ، شقيق الشيخ محمد الكلازي ، له الكتاب الموسوم بسعود الفلك برسم الملك ، نثر ونظم وفرجة ، وعلم ، يشرح الصدر بالعظمة والحكم ، يفيد بالانقطاع عن زخارف الدنيا والتجرّد للمحاسن العليا ، وإيثار ما يبقى على ما يفنى ، ولذلك أجاد بما وصف ، وأفاد بما عرف كأنّه يريك الأشياء بوصفه عياناً . [١٦٠]

٥ ـ **الشيخ عبد الله البسطويري توفي ١٠٤٥هـ :** عبد الله بن بلال بن حسن بن عليّ الخيّاط عالم علامة ، ثقة وقته وعصره ، يرجع إليه ، له تآليف شتّى نظماً ونثراً بعد موته اطلع الشيخ يوسف إبراهيم من قرية (العيدية) على أحد كتبه فردّ عليه برسالته الخاصة عام ١٠٦٣هـ ، فانتصف الشيخ حسين أحمد منه مناصراً للشيخ عبد الله وألّف رسالة جدلية عام ١٢٧٩هـ .

٦ ـ **الشيخ علي بن صارم :** من قرية الدريب ، مؤرخ ، شاعر ، ذكر ما حدث عام ٩٧٠هـ فأفاد عن مجيء سنين مجدبة ، وغلاء ، وقحط ، مقدار ٢٢ سنة ، وسبي وقتل وحكام جبابرة

وما أصاب حماة في بلادها من المحل وشيزر وسلمية والعلا وجهاتها، وحبس الأمطار ويبس العشب مقدار كانون وكانون وشباط وآذار ونيسان وشلح البذار وعدم نباتها وطلوعها ومقدار البذار ١٧٠٠ مكوك، وبشكوى النساء وبكاها، وبباعة أطفالها وأكل المواشي وذلّة القروم والفحول، وحساب المكّوك بالرطل ستة آلاف، وعادت بلاد الشام بالردى، وتكلم عن حبسه في جبلة .[١٦١]

٧ ـ الشيخ محمد إسماعيل الركني: كان من أتباع الشيخ يوسف إبراهيم وتجادل مع علماء الجرانئة فدعوا عليه فابتلى بداء فاستغاث بالشيوخ الداعين عليه فحضروا إليه فشفي وعاد إلى مناصرتهم .

القرن الحادي عشر

٨ ـ الشيخ رضوان النيربي الحلبيّ: من باب النيرب في حلب له قصيدة يتغزّل فيها بالخمرة وبنات الخدور على شاكلة الصوفيين تكثر فيها الاصطلاحات المسيحية .

٩ ـ الشيخ سلمان بن رضوان بن سليمان بن رضوان بن شاهين من قرية سريجس القبلية ١٠١١ ـ ١٠٨٣هـ وهو ينتسب إلى التنوخيين من عائلة عريقة في العلم، ولم تخل ذريّته من الكاتب والعالم، نسّاخ للكتب بخطّه الجميل، وكان عالم وقته وشاعره أيضاً .

١٠ ـ الشيخ عبد الله الدالية كان مهاباً، وسيّداً، كثير الصلاة والصيام والمطالعة كريماً، صاحب كرامات، كان يزوره النمر كثيراً ويتمرّغ بين يديه، توفي ١٠٧٠هـ .

١١ ـ الشيخ علي الصغير: عالم علامة، أشعاره ومؤلفاته شتّى، ممّن ردّ على الشيخ يوسف إبراهيم. دعا إلى الألفة ونبذ الانقسام والحقد، مات بقرية ديرونا ١٠٩٦هـ .

١٢ ـ الشيخ كامل يوسف أبو تاج الكناني، عالم عارف شاعر، مدحه علماء عصره ومدحهم، له قصيدة يمدح فيها المقدمين من الكلبية من آل مخلوف المقدّم أحمد مخلوف، وولده المقدّم مهنا، وابن أخيه المقدّم عبد الساتر وأخوه عبد الله وعمهم المقدم خازم، وأبو فضل الأمير سعد، وجدهم سلمان وناصر الدين مطلعها :

أحيا نسيم الوجد أبـــداً بمهجتـي وذكّرني أيام وصلي بخلّتي

١٣ ـ مشايخ وعلماء أنطاكية: الشيخ عمران والشيخ إبراهيم والشيخ أحمد البانياسي .

١٤ ـ مشايخ وعلماء حلب: المعلم حيدر والشيخ علي رعبونة، والشيخ رضوان، والشيخ مصطفى آل بدران والشيخ جعفر والشيخ يوسف علوان.

١٥ ـ من مقدمي المخالصة: عاقل بن رزق وأخوه المقدم يوسف (قرية الزللو وطيرو) وكانا من العلماء والشعراء. وقد رثى المقدم عاقل ابن أخيه إبراهيم ابن المقدم يوسف وشبّان عائلتهم وقريتهم الذين توفوا في عام واحد وهم (٣٥) شاباً منها:

وشدّوا شباب الحيّ من كـل جانب وعـاد البكـا والنـوح والتـلـطـيـم
وراحوا الشباب جملة لما كـــان أولّ على الخير يمشوا من الزمان القديم
ثلاثين مع خمس شبـــاب كأنهـــم تربّوا ببـلـد الروم بالتـنـغـيـم[١٦٢]

١٦ ـ الشيخ إبراهيم الطوسي العاني: عالم علامة، شاعر، له قصيدة (العينية) تبلغ ألف بيت، ألّفها ١١٠١هـ، وكان رحّالة، زار علماء عصره ومقدّمي العلويين في زمانه، مدح مقدمي الكلبية وأمراءهم، له قصيدة تبلغ ٣٤٠ مخمّساً يشرح فيها أحوال العلويين حتى زمانه.

١٧ ـ الشيخ محمد الكلازي الأنطاكي ١٠١١هـ، ولادته في قرية (كلازو) من معاملة أنطاكية، عالم علامة، بارع، ثقة في الشعب، له التصانيف الكثيرة، لم يكن أحسن منها في بابها، وله جهاد كبير وفضل عظيم على الشعب، ولم يكن بعد أبي سعيد (الميمون الطبراني) أحد ألف تأليفه وجاهد جهاده حتى تلقّب الشعب باسمه وقيل: (الكلازية) كناية عن الفرق المنسوبة إليه، وهو إلى أنه كان موحّداً ومنزهاً فقد كان رحّالة، زار اللاذقية، وطرابلس وحلب، راسل علماء زمانه في حلب وبغداد وديار بكر وماردين وعانة وسنجار والموصل ودعا إلى نبذ الانقسام. ويذكر أنه كان في حلب عام ١٠٥٣هـ حينما اطّلع على رسالة الشيخ يوسف إبراهيم فردّ عليها وفنّدها، وانقسم العلويون بين مؤيد له ومخالف، فمن صار معه دعي (بالكلازي)، ومن تابع الشيخ يوسف إبراهيم والشيخ يوسف علي الماخوسي (من قرية ماخوس قريبة إلى قرية كلازو) دعي بالماخوسي، وله فضل الكشف عن الكتب المنحولة[١٦٣].

القرن الثاني عشر

١٨ ـ الشيخ حسن النميلي: ولد في قرية الدالية ثم توطّن في قرية (البيري) من أعمال حماة، وفيها توفي أولاده التسعة بسبب الثلج والجوع، ولد سنة ١١٢٩هـ وتوفي ١٢٢٦هـ عاش ٩٧ سنة.

كان عالماً علامة، شاعراً مفلقاً، له أشعار كثيرة لو جمعت لكانت ديواناً متنوّع الأغراض من حكم وعظات ومراث وتغزلات، وأكثر أقواله السهل الممتنع. رثى أولاده عام ١١٩٣هـ، واشتهر بالصبر وقوّة الإرادة والتجمّل وعمق التفكير والتخيّل. وله القدح المعلّى لعذوبة اللفظ ومتانة المعنى وسهولة الكلام. له رسالة يردّ فيها على الشيخ خضر بن داود البناوي[١٦٤].

١٩ ـ الشيخ رمضان/ الريحانة/ : عالم عارف، ورع، زاهد، سائحٌ مشهور، هاجر للعراق والعجم.

٢٠ ـ الشيخ سلمان/ بيصين/ ١١٥٣ ـ ١٢٢٨هـ: ولد في دير الجرد من اعمال بانياس وبعد أربعين يوماً من ولادته، فرّ به أبوه بأسباب من طرف الحكومة العثمانية وسار حتى وصل إلى قرية ؟(الحيدرية) قرب بعرين فلم يطعمه أهلها فنام في ظلّ حائط مع ولده فرأى في نومه طائفاً يأمره بالرحيل عنها لأن ولده سيكون له شأن عظيم في غيرها، وبعد خروجه منها دمّرتها صاعقة.

وحطّ الوالد رحاله في قرية بيصين، فرحّب به أهلها وأسكنوه بينهم فنشأ الشيخ سلمان في (بيصين من أعمال حماة) وتعلّم فنشأ عالماً عارفاً امتاز بالعبارة والمداومة على الصلاة ليلاً ونهاراً إلى جانب المطالعة الشديدة مع ورع وخشوع وزهد ورقة كلام ولين عريكة، وتخصّص بالأحاديث النبوية الشريفة، ونظم الأشعار الرائعة في المدح وغيره. وكان كريماً عالي الهمة جسوراً، فقد جمع إلى الاقتدار بالعلم الاقتدار في الثروة فولّد عنده العلوّ في الحجج وتقديم البراهين والأدلة.

كانت عنده ميول لتوحيد الشيعة فراسل علماء جبل عامل وراسلوه ودعاهم إلى وحدة تجمع بين الطرفين، فألّفوا وفداً منهم وساروا إلي بيصين وقبل أن يصلوها سمعوا بوفاته فعادوا إلى بلادهم.

توفي الشيخ سلمان في مدينة حماة في حارة المحالبة في مغارة إبراهيم الجعفر عام ١٢٢٨هـ، ودفن في قريته، وأصبح ضريحه مزاراً يزار.

٢١ ـ الشيخ علي الخيّر/ القرداحة/ : عالم عارف، كاتب، طاهر، كريم، إمام عصره وقدوة دهره، سمته الخاصة والعامة الخيّر، لتقاه وورعه، وما ظهر له من الجود والكرم

الذي غطّى به معاصريه، وطالما جرت وقائع بين العشائر فكان يكشف رأسه وينزل تحت ضرب الرصاص بين العشيرتين فيردهما عن بعضهما [١٦٥].

٢٢ ـ **الشيخ مصطفى بن شعيب الحموي:** الشاعر، الكاتب، النسّاخ.

٢٣ ـ **الشيخ منصور بن السيد حسن البغدادي:** هاجر من العراق وسكن حماة.

٢٤ ـ **الشيخ يوسف بشمان الكلبي الكناني التنوخي:** ولد في قرية بشمان ثم انتقل إلى قرية أحد أجداده (العامود) ثم إلى قرية البلاطة ثم إلى بشمان ودفن فيها. عاش في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين، كان موحداً، منزّهاً، عارفاً بالله، وشاعراً له قصائد كثيرة في التوجيه والوعظ، وكان ثقة الناس في عصره. رتّب شعره على الحروف الهجائية.

المراجع

١٣٩ ـ تاريخ الدولة العليّة العثمانية ص٧٤ .
١٤٠ ـ النبأ اليقين عن العلويين ص١١٧ .
١٤١ ـ خير الصنيعة ج٥ ص٢٠٦٥ .
١٤٢ ـ تاريخ الدولة العليّة العثمانية ص٧٨ .
١٤٣ ـ خير الصنيعة ج٣ ص١٠٣٧ مكرر .
١٤٣ مكرر ـ تاريخ العلويين نقد وتقريظ ص٤٣ ـ ٤٤ .
١٤٤ ـ النبأ اليقين عن العلويين ص١٧٥ .
١٤٥ ـ مجلة دراسات تاريخية ص١٧٤ العدد ٣٥/ ٣٦ .
١٤٦ ـ مجلة دراسات تاريخية ص١٦٣ العدد ٣٥/ ٣٦ .
١٤٧ ـ تاريخ الدولة العليّة العثمانية ص١٤٢ .
١٤٨ ـ خير الصنيعة ج٣ ص١٢٦٠ .
١٤٩ ـ الغرر الحسان ج١ ص١٣٨ .
١٥٠ ـ سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني ص٧٥ .
١٥١ ـ الغرر الحسان ج١ ص٢٠٢ .
١٥٢ ـ الغرر الحسان ج٢ ص٥٠١ .
١٥٣ ـ الغرر الحسان ج٢ ص٥٣٤ .
١٥٤ ـ سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني ص٩٣ .
١٥٥ ـ تاريخ حسن آغا العبد ص١٤٤ .
١٥٦ ـ خير الصنيعة ج٣ ص١٢٤٨ .
١٥٧ ـ الفلك الدوّار ص٢٤٦ .
١٥٨ ـ خير الصنيعة ج٣ ص٩٥٢ .
١٥٩ ـ خير الصنيعة ج٣ ص٩٩٠ .
١٦٠ ـ خير الصنيعة ج٣ ص١٠١٩ .
١٦١ ـ خير الصنيعة ج٣ ص١٠٣٧ مكرّر .
١٦٢ ـ خير الصنيعة ج٣ ص١١٤٣ .
١٦٣ ـ خير الصنيعة ج٣ ص١١٨٨ .
١٦٤ ـ خير الصنيعة ج٣ ص١٢٢٨ .
١٦٥ ـ خير الصنيعة ج٣ ص١٢٩٩ .

الفصل الرابع عشر

العلويون وإبراهيم باشا المصري

في بداية القرن التاسع عشر الميلادي كانت الدولة العثمانية في حالة ضعف بالغ: إذ بدأت أوصالها تتفكّك، وقامت ثورات عديدة ضدّها في مستعمراتها، واشتدّ الصّراع بين إنكلترا وفرنسا بشأن تقسيم هذه الدولة التي أطلق عليها لقب: الرجل المريض، وانشغل السلطان بالحرب الصربية، وهاجم الإنكليز البوسفور ومصر عام ١٨٠٧م بعد رحيل الحملة الفرنسية عنها والتي بدأت عام ١٧٩٨م، واستولى الوهابيون على الحجاز وهدّدوا بلاد الشام ووصلت غزواتهم حتى حوران وثار الإنكشارية في حلب، وحدثت اضطرابات في صيدا وصور، ففرّ الأمير بشير الشهابي حاكم جبل لبنان إلى مصر، وتمرّد عبد الله باشا والي صيدا على الدولة، ثم قتل الأمير بشير جنبلاط بناء على طلب من محمد علي والي مصر وبشير الشهابي الملتجئ إليه، وخلت بلاد الشام من الجيش التركي لأن معظمه أرسل إلى بغداد للقضاء على الوالي المتمرّد داود باشا. وتوّجت هذه الاضطرابات والثورات بقتل والي دمشق من قبل سكانها عام ١٨٣١ لأنه أراد فرض الضرائب فثارت دمشق وقتلت الوالي وأعوانه وتسلّم الحكم مواطنون عرب قاموا بتسيير الأمور منهم: علي عرفان وأبو خليل الدقّاق.

ووقعت هزّات أرضية أدت إلى وقوع أضرار في حلب وغيرها، وتمرّد العلويون عام ١٨٢٥ أيضاً وأعلنوا رفضهم لدفع الضرائب واستنكروا جور الحكام وقواتهم المرسلة لإخضاعهم وإجبارهم على الدفع ولكنهم هزموا هذه القوات أول الأمر، غير أن مقدمي العلويين انضموا إلى قوات الحكومة وهزمت المتمردين الثائرين فهربوا إلى الجبال، وقامت قوات الحكومة بمطاردتهم وقتلهم، وقطعت الأشجار وحرقت المزروعات ودمّرت أضرحة الأولياء والقبب والمزارات، ولم تتورع عن التعدّي على جامع السلطان أدهم في جبلة.

وقد سجّل هذه الأحداث شعراً الشيخ زاهر الخدّام، وذكرها مؤلّف (خير الصنيعة) فقال: «كان الشيخ المرحوم زاهر الخدّام برّاً جواداً سخيّاً له قصائد يعبّر فيها عمّا جرى له في أيامه ومنها قصيدة في مجيء (الكاخي) من حماة ١٢٤١هـ/ ١٨٢٥ ـ ١٨٢٦م إلى عند أولاد عيد واتّفاقهم على البلاد ومجيئهم إلى مقدمي البلاد وتحالفهم معهم ضد الحكومة وأخذ ما

في أيديهم وحبسهم في جبلة ونقلهم إلى اللاذقية وتشفيع (ابن عدرة) ورجال من علماء السنيين، وبعدها تولّوا شؤون جباية الأموال من الجبال وكانت وقتئذ متوقّفة عن الدفع فطلعوا (بقوّة) فوافاهم المقدّمون الذين اعانوهم وقدّموا لهم يداً سابقة مع الشيوخ ليتفاهموا معهم، (فوثّقوهم رهناً) وراح البريء ضحية المجرم وهلكت العباد من الفساد وجور الأوغاد، واجتمعت الرعيّة وحاربت الحكومة، فتجرّدت (قوّة) على الرعيّة وحرقت الساحل، وضرب الكثير من أهالي الجبل، وأتى القواد إلى بلاد (الجرانة) ونزلوا قرية الحمّام (حمّام القراحلة) وهدموا بعض قبب وقبور الأولياء، وكان رئيس العساكر أحد رؤساء بني هارون فعمل في إدارة ومنع العساكر من التخريب في القرى، وأرسل يطلب مقدّمي وشيوخ العشائر، ويقيّدونهم، وأخذوهم إلى اللاذقية إلى عند الوالي مصطفى.

وبعد يومين طلعت قوات أخرى لجلب بقية الرؤساء وهدم الزيارات فجاءتهم الأهالي وحاربوهم (فكسروا العسكر) وقتئذ وأخذوا ذخيرته فرجع إلى الوراء، وكان المقدّمون قد دخلوا مع الحكّام للإصلاح وفرضوا ضريبة على رؤساء المقاطعات، يتعهد بتأدينها كل رئيس محيط في محيطه، واستثنوا من ذلك جامع السلطان وأوقافه فلم يرض المقدّمون حتى جلبوا (القوّة) على الوقّافين. وحينما احتفروا حضرة قبته الشريفة آتاه الله بكرامة أرهقت ضبّاط العسكر فجلوا عن المحل وأعطوهم الدّراهم التي أخذوها منهم عنوة وساء التفاهم بين الرؤساء والمقدمين وأخذوا (يفسدون) على بعضهم بعضاً وبذلك تمكنت الحكومة منهم وجبت ما جبت، وأطلقت المعتقلين». [١٦٦]

ويبدو من المعلومات المدوّنة بخط محمد سليمان الدالية، أن متصرف اللاذقية أثناء هذه الحوادث كان المدعو مصطفى آغا، ويصفه بأنه كان جبّاراً، وقد أقدم عام ١٢٤٤هـ على الصعود إلى الجبال وحرق قرية (الدالية) وتصرّف تصرّفات أضرّت بالمسلمين العلويين كثيراً.

وقد أيّد هذه الحادثة المؤلف بازيلي وذكرها بسرعة أثناء الحديث عن وضع الدولة العثمانية بداية القرن ١٩، فقال: «وامتنعت قبائل النصيرية عن دفع الأتاوات». [١٦٧]

وأثناء انشغال السلطان بالأحداث الداخلية والخارجية واتت الفرصة محمد علي باشا حاكم مصر، فجهّز جيشاً قوامه (٣٠ ألفاً) بقيادة ابنه إبراهيم ليحرّر بلاد الشام من الأتراك.

وانطلق هذا الجيش عام ١٨٣١ م من القاهرة يسانده الأسطول البحري المصري فحاصر (عكّا) أولاً وفتحها وهي التي استعصت على نابليون، ثم حرّر دمشق والتقى الجيش التركي في حمص بتاريخ ٨/ ٧/ ١٨٣٢ فهزمه، وتابع زحفه فحرّر حماة وحلب، والتقى ثانية الجيش العثماني في مضيق بيلان بتاريخ ٢٩/ ٧/ ١٨٣٢ فدحره، وانتصر إبراهيم انتصاراً مدوياً ثم تابع زحفه نحو (الآستانة) واستولى على أضنة، والتقى الجيش التركي ثالثة في (قونية) فكان النصر حليف إبراهيم، فطلب السلطان محمود مساعدة الدول الأوربية فسارعت إنكلترا المخادعة الحاقدة تعرض الصلح بين الطرفين ووقفت فرنسا على الحياد أما روسيا فقدّمت مساعدات للسلطان وأنزلت عشرين ألفاً من جنودها على شاطئ البوسفور ممّا أغضب إنكلترا وفرنسا فسارعتا إلى مصالحة محمد علي مع السلطان محمود على شروط منها بقاء بلاد الشام تحت حكم إبراهيم باشا لمدة ٤ سنوات، وإجلاء جيش محمد علي عن الأناضول.

رحّبت بلاد الشام بإبراهيم وجيشه لأن والده محمد علي أعلن عن مشروع قيام دولة عربية موحّدة بعد طرد الأتراك من بلاد العرب، وكان السكان يكرهون الأتراك وظلمهم وعسفهم وفساد ولاتهم وجيشهم وجبروت إقطاعييهم وموظفيهم.

وقد وجد إبراهيم تأييداً قوياً من المسيحيين والفئات الدينية المستضعفة المضطهدة فقد عرف عن إبراهيم تسامحه الديني وتشجيعه للعرب والعروبة.

وأقدم على تأسيس أوّل مطبعة عربية في لبنان عام ١٨٣٤، وبثّ الروح القومية العربية بين السكان فاستبشر الناس به خيراً وساعدوه في حروبه ضد الأتراك، ولمّا تقرّر الصلح بينه وبين السلطان العثماني قام بتشكيل ديوان للمشورة في كل مدينة بلغ عدد سكانها أكثر من عشرين ألفاً وتراوح عدد أعضاء الديوان ما بين ١٢ و٢١ عضواً ينتخبون من الأعيان والتجار ويمثلون جميع المذاهب والديان حتى اليهود في أماكن سكناهم فكان الديوان مؤلفاً من المسلمين والمسيحيين واليهود في دمشق وبيروت وحلب وغيرها.

وقدّمت هذه المجالس «فكرة العدالة المؤسسة على ضبط القوانين والمؤسسات حيث قضت قضاءً تاماً على نفوذ الإقطاعيين الذين تحوّلوا إلى موظفين يجمعون الضرائب ليس لصالحهم الشخصي كما كان يحصل من قبل بل لصالح الدولة فكانت هذه العملية من أشد الضربات التي تلقاها الإقطاعيون في المنطقة السورية». [١٦٨]

لم يدم بشْر المواطنين في سورية ولبنان طويلاً لأن إبراهيم فرض الضرائب على الأشخاص (ضَريبة الفردة) ثم فرض التجنيد الإجباري على الشباب وكل من يصلح للجندية؛ ونقم عليه المسلمون لأنه سمح بفتح (الخمّارات) لتناول الخمور وبيعها، ونقم عليه الأغنياء والسادات لأنه ساواهم بالفقراء والرعية، ونقم عليه الفقراء والأغنياء لأنه وضع عليهم الضريبة وجنّدهم في جيشه بدون تحديد لزمن الخدمة العسكرية، وقامت ثورات ضده بدأت في نابلس ثم امتدت إلى جبال العلويين وتطاير شررها إلى جبل الدروز في لبنان وفي سورية ويتحدث محمد كرد علي عن أعمال حكومة إبراهيم «بأنها نافعة وجليلة، فكان من أول أعمال إبراهيم باشا الجليلة في الدّيار الشامية ترتيب المجالس الملكية والعسكرية وإقامة مجلس الشورى وغيرها من النظم الحديثة وترتيب الماليّة. وجعل نظاماً لجباية الخراج ومعاملة الرّعايا بالمساواة والعدل لا تفاوت في طبقاتهم ومذاهبهم ولذلك لم يلبث الأمراء والمشايخ وأرباب النفوذ أن استثقلوا ظلّ الدولة المصرية وتمنّوا رجوع العثمانيين ليعيشوا معهم كالحلمة الطفيلية تمتص دماء الضعفاء وينالهم من ذلك مصّة الوشل» . [١٦٩]

وقد تمرّد العلويون على إبراهيم باشا لأنه طرح عادات العشائر وأضعف سلطة المشايخ والمقدّمين والإقطاعيين والزعماء، ونشطت تركيا مع هؤلاء وحرّضت العلويين على التمرّد فتمرّدوا فسيّر إليهم إبراهيم جيشاً كثيفاً أكرههم على الخضوع والاستكانة.

وقد أرّخ لثورة العلويين مخائيل مشاقّة في كتابه (مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان) وتحدّث عن هذه الثورة قائلاً: «ما فتئت الدولة المصرية تحدث في سورية تغييراً وتعمل على طرح عادات العشائر القديمة وتزيد الضرائب على الشعب شأن كل دولة في تطور نشأتها حتى نفّرت القلوب وودّ معظم الشعب لجهله إعادة الدولة التركية مكانها فانتشرت هذه الروح وبلغ طنينها مسامع الدولة العثمانيّة فسرّها ورأت أن تغتنم الفرصة.

وكان أعظم الشعب نفوراً (النصيرية) وكان الباعث على تقوية هذه الروح في صدورهم ما يضربه عليهم المشايخ في كلّ مجتمع وناد، ويكفي للشعب المسكين الذي اعتاد الطّاعة لزعمائه سببٌ لإيغار صدره على الدولةً المصرية التي كانت باذلة جهدها في ترقيته وتعزيز مقامه مع تضعيف سلطة المشايخ عليه ولو استعملت في سياستها المداهنة، وأبقت المشايخ وكلّ زعيم في مركزه إلى أن امتلكت قلوب الشعب وأمنت جانبه ونالت ثقته كما تجري عليه سياسة إنكلترا وكلّ أمة مرتقية، فلمّا تستوثق من الشعب وتتأكد من حبه لها تقلب ظهر المجن على الزعيم المستبد وتنبذه.

وكانت الدولة التركية خبيرة بأحوال الشعب أكثر من الدولة المصريّة فبعثت تدسّ الدسائس إلى المشايخ وتغريهم بالمواعيد الفاحشة، وكان هؤلاء يحضّون الشعب على شقّ عصا الطاعة طمعاً بإرجاع نفوذهم.

وأوّل من شهرَ عصيانه وامتنع عن دفع الرسوم إلى الحكومة (النصيرية) فاضطُرّت الهيئة الحاكمة إلى الإكثار من الجند في البلاد، وحصد شوكة العصاة، وأرسل شريف باشا عصابة من لبنان لإخضاع الثائرين الذين اعتصموا بجبال اللاذقية وفازوا بالغلبة على رجال الحكومة، ولمّا علم شريف باشا بما حلّ برجاله، جمع فرقة كاملة من الجيش المنظّم، وأرسلها إلى الثوار وأكرههم على الطاعة والسكينة». (١٧٠)

ويذكر هذه الثورة المؤرخ الروسي بازيلي في حوادث ١٨٤٠ فيقول: «على امتداد الشتاء بطوله نشبت تمرّدات على التوالي بين النّصيرية قرب أنطاكية وفي منطقة عكّار في منحدرات لبنان الشمالية، ولدى قبائل المتاولة في بعلبك وأعالي القاسمية بين صيدا وصور». (١٧١)

ونملك وثيقة تاريخية كتبها علويّ معاصر للدولة المصريّة في بلاد الشام وهو المرحوم الشيخ حسن الخطيب من قرية الحصنين، تقول الوثيقة: إنه في سنة ١٢٤٨هـ في الدولة المصرية وكان حاكمها محمد علي وقد أخذ البلاد من الزنج والزّيج والحبش والسّودان واليمن وقد ذهب جماهير قويّة وأخذ قلعة الحكم بعد البلاد المذكورين وكلّ رؤساء العسكر قائدها إبراهيم باشا. وامتدت شرورهم بالنهايب والقتل وأخذ بلاد الشام وطرابلس وحمص واللاذقية وحماة وحلب، وبعدما أخذهم (طَوَع) المدن والجبال وأخذ أموالهم وسلاحهم وبعد ذلك قام عليهم (عدّية) (ضريبة) كل زلمة (رجل) خمسين غرشاً، وستّين، وأربعين، وبعد العديّة أخذ عديّة الرجال: (تجنيد إجباري) كل عشرة يأخذ منهم زلمة ويأخذهم قهراً وغصباً وقد حطّ مكاشف (فحص طبي) كل زلمة ما يعجبه يردّه إلى أهله ويأخذ بداله وبعد ذلك قام العديّة كل واحد كما مذكور وعاد يأخذ عديّة الذين أخذهم من أهلهم والذي يموت يأخذ عديّته، وكان حكمه قهر وجبر وفقر للعباد، وعطّل رسومات المؤمنين وعبّاد الصالحين، وقد نفر من صدور الناس الإيمان وقوي الكفر وقام جمهور الزّور والبُطل، واستهترت الناس بالمؤمنين وأولاد الوجاقات، وشكّت بربّ الأرضين والسموات وقالت ما بقا يتوجد ربّ ولا أنبيا وبطلت البراهين، وضعف اليقين، وبطل الدين، وغلق باب الرجا، وانحجب الدعا، وقام الغلا، وكثر البلا، وسكرت الناس من ذلك الزمان، وكثر السلب

والحرام وعاد القويّ يأكل الضعيف، ونحن نستغيث بربّ الأرضين والسموات وندعوه ونرجو الفرج والرحمة والعفو فلم نرَ باب فرج. ونحن نذكر أفعال الخارجة المذكورة، وأن أكبر اعتماده ضعف الناس وقد نصبت مصلحات يسخّر الناس بشحط المرخ (جرّ الأخشاب وجذوع الأشجار) وسخّر البقر بشحط المرخ. وقد ذكروا الذي يسحبوا بها أن غلظة يركب الزلمة على عرقها بعد قطعها وتحميلها وتحسينها فلم يلحق رجلاه للأرض ويجبر البقر والناس على شحطها إلى البحر، ومن البحر يحطّهم في المراكيب ويأخذهم إلى مصر. وعطّل النّاس أشغالهم صيف شتوي. وقد عمل الخارجة مصلحة عماير في المدن مثل حماة وحمص وحلب واللاذقية وطرابلس وسخّر الناس بنقل الحجارة ونقل الآلة وصولٌ وفرورٌ.

وقد شغل الناس غرباً وشرقاً وقبلة وشمالاً، وبرّ ومدن وبحر، وبعد ذلك حطّ بكل مدينة (ديوان مشورة) كل ديوان فيه نفر من العراق بالمحتلة والزور، وكل واحد يتكلم كلمة للذي تكون يشكو عليه الناس في ذنب أو أمر من الأمور، فيضربوا عليه ديوان مشورة (محكمة) فإن كان ذنبه خفيض يحطه بالحبس والسجن ويحرمه يشوف عياله، وإن كان ذنبه غليظ يبعثه إلى اللومان (السّجن)، وأما اللومان عمارة أقلاع، وسرايات، وأعالي وقصور يحطّ الرجال المغضوبين عليهم بعرق الحيط ويحطّ دقّة خشب بأرقابهم ويطّلعوا الناس عليهم يناولون المعلم على كشم الشليم الخيمة ويحطّ تنين فوق تنين حتى يصلوا إلى المعلم في المناولة ويضل (يظلّ) ذلك حسب الذي يثبت عليه في الديوان.

فيه ٣ سنين و٣ أشهر و٣ أيام و٣ ساعات، أو ساعة، وفيهم من يقيم له بديوان المشورة ٧ سنين و٧ أشهر و٧ أيام وسبع ساعات.

والذي يموت منهم يشلحوه في البراري والأقفار، وقد حارت الناس من فعله ومن جبره ومن هذه الصنائع التي عاملها للناس». [١٧٢]

ومن عجب أن من جاء إبراهيم لتحريرهم من القهر والظلم والعسف والاضطهاد والاستعباد والازدراء أوّل من ثار ضدّه بسبب جهلهم وتأثير الدول الأجنبية على زعمائهم.

ويصف مؤرخ أجنبي هو بيير كريتس موقف إبراهيم باشا عام ١٨٤١ بما يلي: «المسيحيون الأرثوذكس يحاربونه لأن حكمه ينذر بالقضاء على حقوقهم التقليدية المكتسبة فيحرمهم من الأرباح الطائلة التي يجنونها من الحروب.

والمسلمون يقاومونه لأنه يؤمن بالحرية الدينية والمساواة أمام القانون، والدروز قائمون عليه لأن المارونيين الكاثوليك انضموا تحت لوائه أول الأمر.

وإنكلترا تسلّط سيف الفتنة وتمدّ العُصاة بالمال وتشجّع الفوضى بضرب الحصار على شواطئ بلاد الشام وإطلاق القنابل على إحدى نقاط البلاد الحرجة، ولو أن إبراهيم لم يكترث بذلك كله وأراق دم جنوده من غير جدوى، لكان عمله هو الخرق بعينه». (١٧٣)

واستغلّت الدولة العثمانية قيام الثورات والفتنة الداخلية ضد حكم إبراهيم فجهّزت جيشاً ضخماً لمحاربته وإخراجه من بلاد الشام ولكن إبراهيم دحر هذا الجيش عام ١٨٣٩ وأصبحت أبواب الأستانة مفتوحة أمامه، ولجأ الأسطول العثماني مع قائده إلى مصر، وهال هذا الأمر الدول الأجنبية وخافت من قيام دولة عربية قويّة تجرّد الدولة العثمانية من الأراضي العربية وتتحكم بطريق الهند الشريان الحيوي لبريطانيا وتقضي على النفوذ الأجنبي بكافة أشكاله في المنطقة العربية.

وتدخلت الدول الأجنبية لوقف تقدّم جيش إبراهيم نحو العاصمة العثمانية وعرضت عليه مطالب رفضها والده محمد علي بتشجيع من فرنسا التي وعدته بمساعدتها لكن إنكلترا عملت على تسليح الموارنة في لبنان وساندتهم بالأموال والعتاد، وضرب أسطولها بيروت فسلّم إبراهيم ساحل بلاد الشام للإنكليز، وتحفزّت المدن الداخلية للقيام بالثورة ضدّه فآثر ألا يريق دماء العرب فانسحب بما بقي من جيشه إلى مصر عام ١٨٤٠.

وتبخّر الحلم بإقامة دولة عربية واحدة قوية وعادت بلاد الشام إلى الوقوع تحت سيطرة القتل والتشريد والنّفي والظلم، وتدخّل الدول الأجنبية وفرض ما تريد على الرجل المريض. وعاد العلويون من جديد للعيش في أجواء القهر والاستعباد والطاعة العمياء والسخرة والعذاب.

المراجع

١٦٦ ـ خير الصنيعة ج٣ ص١٢٤٨ .
١٦٧ ـ سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني ص١٦٩ .
١٦٨ ـ أزمة الفكر ومشكلات السلطة السياسية في المشرق العربي في عصر النهضة .
د. محمد مخزوم ص٥٦ ط١ بيروت ١٩٨٦ .
١٦٩ ـ المرجع السابق ص٥٧ .
١٧٠ ـ بلاد الشام في القرن التاسع عشر ص١٦٨ .
١٧١ ـ سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني ص٢٢٣ .
١٧٢ ـ خير الصنيعة ج٢ ص٩٢٦ .
١٧٣ ـ مذكّرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا على سورية ص٢٠ .

الفصل الخامس عشر

اليَقَظَة

لا شكّ أنه كان لحملة نابليون بونابرت على مصر عام ١٧٩٨ فضل في إيقاظ المصريين ونهوضهم ببلادهم ومحاولة اللحاق بأوربا ، ولا شكّ أيضاً انه كان لحملة إبراهيم باشا على بلاد الشام فضل كبير في استيقاظ أهلها من غفوتهم الطويلة ولكن الذي هيئ لمصر في ظل حكم محمد علي وأولاده وأحفاده لم يُهيَّأ لبلاد الشام التي عادت ترزح تحت نير الحكم العثماني بشكل أشدّ قسوة وظلماً . وقد قامت هذه الدولة بتنظيم جديد للمدن والمقاطعات ، وقسمت بلاد الشام إلى ولايات وقسمت الولايات إلى ألوية والألوية إلى أقضية ، والأقضية إلى نواحٍ . وفي مركز الولاية كان الوالي العام يقيم ، يتبعه رؤساء الألوية الذين كان الواحد منهم يدعى (المتصرّف) أمّا الناحية فيديرها مدير الناحية .

وبالنسبة لبلاد العلويين فقد كانت تابعة لولاية بيروت التي كانت تضم خمسة ألوية هي : بيروت ، وعكا ، ونابلس ، وطرابلس ، واللاذقية ، وكان لواء اللاذقية يضمّ ثلاثة أقضية وسبع عشرة ناحية وألفاً وأربعمئة وأربعين قرية ، وكان لواء طرابلس يضمّ ثلاثة أقضية وست نواح وستمائة واثنين وسبعين قرية .

وبعد خروج المصريين من بلاد الشام أصدر السلطان العثماني تنظيمات جديدة للدولة العثمانية بناءً على إلحاح الدول الأجنبية عليه .

وكان أهم هذه التنظيمات إصلاح أحوال الدولة وتأمين رعاياها على اختلاف أديانهم وقومياتهم على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم . وقد شعر العديد من رؤساء العلويين وعلمائهم المتنورين منهم بضرورة الأخذ بأسباب العلم للنهوض بالعلويين وأدركوا أنه من الضروري الانفتاح على من يحيط بهم من المخالفين لمذهبهم . وسرت روح جماعيّة بينهم تدعو إلى الخروج من هذه العزلة المفروضة عليهم ؛ ورأى بعضهم ضرورة القيام بشعائر الصلوات في المساجد لأن المخالفين لهم في المذهب يتّهمونهم باتّهامات عديدة منها تركهم الصلاة في المساجد .

وليثبتوا للمخالفين أنهم من أشد المتعصّبين للإسلام ، بل هم لباب الإسلام ، منذ ظهور الإسلام وحتى زمانهم قاموا بإنشاء المساجد ، وحجّوا إلى بيت الله الحرام .

وبعضهم شيّد الجامع في قريته أو منطقته من ماله الخاصّ بدون مشاركة من أحد أو من الدولة . وبعض المساجد شيّدت بأموال الدولة التركية نفسها .

ويذكر العلويون أنّ أوّل مسجد بنفقة خاصة هو مسجد الشيخ معَلاّ من قرية حمّين .

وكان الشيخ معَلاّ أوّل حاجّ بين العلويين في العصر الحديث . وبعد عودته من الحجّ شيّد مسجداً في قريته وألزم الرجال والنساء بالصلاة في أوقاتها ، وأصبحت أسرته تعرف ببيت الحاج . (١٧٤)

قصد الحاج معَلاّ سنة ١٢٥٤هـ البيت الحرام لأداء فريضة الحج المقدّسة وفي عودته مرّ بمصر واستحصل على إذن ببناء مسجد في قريته إذ كانت سورية يومئذ في حكم محمد علي باشا . (١٧٤ مكرر)

وقام الشيخ عبد الحميد أفندي يونس ببناء جامع ، له مئذنة وتقام فيه الصلوات الخمس ويخطب فيه أيام الجمع والأعياد وكذلك فعل الشيخ عمران حمد الزّاوي فشيّد زاوية تقام فيها الصلاة ويخطب فيها يوم الجمعة ، وكان له أربعة اولاد قرّروا أن يكون فطور المصلين عند أحدهم بالشهر مرّة واحدة ، ومأدبة المصلين على أحدهم ، وجرى أحفاده بعده على هذه الخطة (١٧٥) .

ولا شكّ انه كان لتشجيع هذا الشيخ وأولاده فضل كبير على إقبالْ المصلين على المسجد بسبب الطعام المقدّم لهم في زمن الفقر والغلاء وانعدام الدخل . توفي ١٢٩٠هـ .

ومن الذين شيّدوا مسجداً (آل يونس ياسين) (صافيتا) فقد أقاموا مسجداً في قريتهم ، وكانت الصلاة تقام فيه على المذهب الحنفي ، وكذلك آل شمسين في الدريكيش ، وكانوا حكاماً في المنطقة ، وشيّدوا جامعاً ضخماً في الدريكيش منذ أكثر من مئتي عام ، وتقام فيه الصلاة على المذهب الحنفي أيضاً . (١٧٦)

وقبل أن تبني الحكومة التركية المساجد في بلاد العلويين بنى الشيخ علي سلمان/ المريقب/ والد المجاهد المعروف الشيخ صالح العلي مسجداً تعلوه مئذنة في قريته ، والشيخ المذكور كان ممّن له الفضل في المساهمة مع رؤساء علماء المذهب العلويّ في الطلب إلى

الحكومة التركية آنذاك لبناء المساجد في أماكن سكنى العلويين. وتفصيل ذلك يرويه مؤلف خير الصنيعة، فيقول: «كان متصرف اللاذقية يدعى ضيا باشا الأدّناويّ وكان شيعياً باطناً، وقد دعا هذا المتصرّف زعماء ووجهاء وعلماء الدين العلويين وأولم لهم وليمة، ولكن الشيخ علي سلمان وقسماً من الشيوخ الحاضرين تسلّلوا من المجلس قبل وضع الطعام وحين لحظ المتصرّف غيابهم أرسل مرافقه (اليَاور) يبحث عنهم فوجدهم مختبئين في أحد الفنادق فدعاهم إلى مقابلة الوالي، ولمّا لم يكن بوسعهم التخلّف ذهبوا إليه فانفرد المتصرّف بالشيخ علي سلمان وعاتبه لتركه المأدبة فقال الشيخ: إن شيوخ الدين لا يأكلون من عند الحكام ولا المقدّمين ولا مختاري القرى الذين يشتبه بدخلهم. فشكره المتصرف على صراحته وقال له: ما تقول في أجرة العامل المستأجر؟ فقال الشيخ: حلال. فقال المتصرّف: راتبي كأجرة العامل وقد حدّثني بعض مقدّميكم عنكم فأعددت لضيافتكم هذه المأدبة من معاشي الخصوصي الذي قبضته عن الشهر المنصرم. فجامله الشيخ بأن أكل بعض الثمار والحلوى عن المائدة، واقتدى به الشيوخ؛ وخصّص له الوالي شيئاً من المال ليبني جامعاً ومدرسة عنده فقال له: إني بنيت جامعاً على نفقتي ولا أكلف الحكومة شيئاً. ثم اتفق المجتمعون من رؤساء ووجهاء وعلماء دين على كتابة طلب إلى الحكومة التركية لتقوم ببناء مساجد في بلاد العلويين على نفقتها فأرسل الوالي هذا الطلب إلى الأستانة مشفوعاً بشروح تؤيّد الطّلب فسرّ السلطان والوزراء بهذا الطلب وأقرّ السلطان تخصيص أموال لبناء (٨٦) مسجداً في بلاد العلويين تقام فيها الصلاة على المذهب الحنفي.

وأرسل المتصرّف حين ورود الموافقة للمسؤولين العلويين يبلغهم قرار الموافقة ففرحوا، وبدأ نشاط متواصل متسارع لبناء هذه المساجد التي كان لها فضل كبير في انتشار العلم بين العلويين لأن العلماء والمعلمين جعلوها في غير أوقات الصلاة مدارس لتعليم الأميين والناشئة، ومنذ ذلك الحين كُتبَ العلويون في السجلات الرسمية مسلمين وزالت عنهم صفة (الرفض) الرسمية ولا يزالُ حتى اليوم عند العلويين للمتصرّف ضيا باشا ذكر طيّب مقرون بالثناء العاطر، والترحم عليه حين يذكر اسمه.

ولكن مما يؤسف له أن هذه المساجد قلّ الإقبال على [illegible] متصرّف المذكور لأن من خلفه من المتصرّفين كانوا متعصّبين وناقمين [illegible] يهمهم بقليل أو كثير إقبال العلويين على هذه المساجد والتعلم فيها، بل ولربما كانوا يفضلون أن يظل العلويون سادرين فيما كانوا فيه قبل بناء هذه المساجد.

وقد ساعدهم في عدم الاهتمام بهذه المساجد فئة من جهلة العلويين الذين أرادوا أن يظلّ العلويون وأولادهم وأحفادهم فريسة للجهل والتخلف والعيش في عصور الظلام والانكماش والعزلة ليظلوا متنفذين مسيطرين في هذا العالم الذي يناسبهم ولكن الزمن والإرادة الخيّرة والتطور ومنطق الحياة بالسعي نحو الأمام إلى الأفضل والأحسن كانوا لهذه الفئة بالمرصاد وكان هناك المخلصون من المسلمين العلويين الذين أرادوا لهم الاستمرار في الحياة الحرّة الكريمة والاندماج في مجتمع الحضارة المطل على الشرق فقاموا / علماء ورؤساء/ بالحضّ على العلم ومساعدة المتعلمين وتحمّلوا في سبيل ذلك مشقّات كثيرة وتكاليف مادية كبيرة ، وسخريات مرّة لاذعة ولكنهم لم يبالوا بما يعترضهم وبما يلاقون من مصاعب ، وتابعوا الحثّ على العلم والأخذ بأسبابه .

وقبل أن نمضي في بحثنا نذكر لك أنّه في أيامنا هذه سنة ١٩٩٩ ، شيّدت مساجد كثيرة بتكاليف مادية كبيرة في أماكن انتشار العلويين ، شيّدوها من أموالهم الخاصة ، وتقام فيها الصلاة حسب المذهب الجعفري (نسبة إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام) بعد انتشار الحريّات العامة الدينية والسياسية والاجتماعية ، وبعد أن صارت هناك قدرات ماديّة تساعد في إعلاء بيوت الله . وفي حمص نرى مصلين ، وبخاصة أيام الجمع والأعياد ، من أحياء حمصية مختلفة في مسجدي الإمام جعفر الصادق عليه السلام في حيّ النزهة ، والسيدة فاطمة الزهراء رض الله عنها في حيّ الزهراء .

ونورد على سبيل المثال لا الحصر عدداً من هذه المساجد يرتفع فيها الآذان بحيّ على خير العمل خمس مرات في اليوم :

١ ـ **محافظة حمص ، المدينة فيها مسجدان :** جامع السيّدة فاطمة الزهراء في حيّ الزهراء ، وجامع الإمام جعفر الصادق عليه السلام في حي النزهة . وفي عام ١٩٩٨ أسّس جامع الإمام علي زين العابدين عليه السلام .

٢ ـ **ريف المحافظة :** جامع جبّ الجراح ، وجامع المسعودية ، وجامع العثمانية ، وجامع المخرّم ، وجامع الإمام موسى الكاظم عليه السلام في قرية شين ، وجامع في قرية دبّين قرب القصير ، وجامع في المشرفة ، وجامع تلشنان . وفي محافظة حمص أكثر من ٣٠ جامعاً .

٣ ـ **صافيتا :** صافيتا ـ بيت الشيخ يونس ياسين .

٤ ـ الدريكيش : الدريكيش ـ بويضة مسلّم ـ حمّين ـ ضهر حمّين .

٥ ـ بانياس : بانياس ـ الزللو ـ حريصون ـ المقرمدة .

٦ ـ مصياف : مصياف ـ برمانة المشايخ .

٧ ـ طرطوس : فيها مسجدان .

٨ ـ اللاذقية مسجد .

٩ ـ القرداحة : مسجد لآل الخيّر ؛ ومسجد الشيخ موسى ، ومسجد السيدة ناعسة والدة القائد الخالد حافظ الأسد .

المساجد التي شيّدت بنفقة العثمانيين أو التي شيّدها العلويون من نفقتهم الخاصة اتّخذت مدارس للعلم يعلّم فيها القرآن الكريم ومبادئ الحساب والخط ، وانتشرت الكتاتيب في القرى التي ليس فيها مساجد ، وكان يقال لشيخ الكتاب (الخطيب) وينادى بـ يا عمّي . . وهو ممّن يجيد قراءة القرآن الكريم وتلاوته ويعرف المبادئ الأولية للحساب من جمع وطرح وضرب وقسمة ، وكان الحساب يدعى (الهنديّ) أمّا في الكتابة فكان يعلّم الخط (الثلث) وبعض مبادئ النحو ، وكان يحفظ من القرآن الكريم كثيراً من السور غيّبها في صدره يرتلّها في الصباح بخاصة بعد الصلاة . . وفي المناسبات . . وعندما يكمل المتعلم قراءة القرآن الكريم مختتماً بسورة البقرة كان الشيخ يستدعي والد المتعلّم أو وليّه ويطلب من هذا المتعلّم أن يرتّل القرآن أمام والده . . فيفرح الوالد كثيراً كأنه حصل على أحد كنوز الدنيا ويهرع ليزف الخبر إلى عائلته وإلى القرية كلّها ثم ينحر ذبيحة على الأقل وتجتمع القرية في بيته وأمامه وتقام ساحة للفرح ، ويحضر شيخ الكتّاب المتعلّم او المتعلمين الذين حفظوا القرآن الكريم وقد ربط أيديهم وراء ظهورهم بمحرمة جميلة ، ويقوم الآباء بفك هذه المحارم وسط صوت الأهازيج والزغاريد وإطلاق العيارات النارية ، ثم يكافأ الشيخ الخطيب مكافأة مادية إضافة إلى أجره ، وتدوم الأفراح عدة أيام وبعض الميسورين كانوا يقيمون هذه الأفراح لمدة سبعة أيام .

وقد حفظ بعض دعاة العلم القرآن الكريم غيباً نذكر منهم : الحاج معلا (حمّين) والشيخ عبد الكريم محمد (المصطبة صافيتا) والشيخ محمد ياسين أحمد (قرقفتي طرطوس) والحاج الشيخ علي حسين ميهوب حرفوش (المقرمدة ـ بانياس) .

وممّن كان له الفضل الأكبر في نشر العلم وبناء المساجد الشيخ أحمد علي أحمد من قرية القلع، وقد ظلّ يحضّ على تعلّم العلم حتى وفاته. وكان هناك فضل كبير لأسر بعينها ساهمت في الحضّ على العلم ونشره بين العلويين ومنها أسرة آل يونس ياسين - صافيتا التي وسّعت على طلاب العلم بالناحية المادية وتأمين السكن ومكان الدراسة.

يقول الشيخ حسين ميهوب حرفوش: «وللشيخ يونس ياسين وآله فضل على الشعب إذ كانوا أوّل من تفضّل بإحياء العلوم الأدبية في العلويين، فكان بيت الشيخ يونس محطّ رحال الطلبة، إذ كان الشيخ يونس ياسين وهو أب الشيخ محمد ياسين أعلن لطلاب العلوم أنه مستعدّ وآله مستعدّون لأن يوسعوا على كل طالب علم يقدم إليهم، وأحضروا المرحوم الشيخ علي حسن القاضي العالم الشهير وأسكنوه عندهم، وتكفّلوا بواجباته العائليّة؛ وفتحوا بيتاً عادياً بمثابة مدرسة علمية للشيخ المذكور يلقي فيه الدروس على الطلاب من قراءة وتجويد قرآن وتعليم علم النحو في الأجرومية) وإعراب أمثلتها في كتاب نجم الدين وغيره من الكتب المستعملة آنذاك.[١٧٧]

بقي أن تعلم أن الشيخ يونس ياسين توفي ١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م. وممّن حظي بشرف المساهمة في إحياء العلم وتنشيطه الحاج معلا (حمّين) إذ استحضر أحد خريجي الجامع الأزهر ليتلقى المتعلمون تجويد القرآن الكريم على يديه، وليتعلّموا بعض قواعد اللغة منه على طريقة (الأجرومية) وشرحها للكفراوي، وألفية ابن مالك وغيرهما. وقد حارب هذا الحاج الخوف الموروث في العلويين من نظام الأجيال الرهيبة التي مرّت بهم.[١٧٨]

ومن الرجال الكبار الذين ساهموا في هذه النهضة العلمية الشيخ محمود حسن (بعمرة) والشيخ إبراهيم مرهج والشيخ عبد الكريم سعد القاضي وله القدح المعلّى في نشر اللغة العربية الفصحى بين العلويين.

والملاحظ في هذه الفترة كثرة الحكّام والمتنفذين العلويين وتزايد المقرّبين من الحكومة التركية. (هل لذلك علاقة ببناء المساجد؟) نذكر منهم حامد أفندي اليوسف من قرية رأس الخشوفة فقد كان رئيساً مقداماً غيوراً على شيعته، مجاهداً، متعبداً بالأسحار، دأبه نفع الفقراء والمساكين، وفكاك المحبوسين لأنه جاءه وقت قام فيه بأربع وظائف على عهد الدولة التركية لأنه في بدء زعامته كان عضواً بالمحكمة الشرعية وعزل (مستنطقها) فصار

عوضه، وانتقل قاضيها فصار نائبه، وخلع قائمقام القضاء فصار وكيله، فصارت بيده أربع وظائف يديرها بمهارته ويتصرّف بقوّته وإرادته، وكان همّه قضاء غرض الذي له شغل في تلك الدوائر، وأخذت الناس تثني عليه، ولكن لم يخل ذو النعمة من حسود.(١٧٩)

ومنهم الشيخ علي أفندي من قرية (ترسوس) أنطاكية الذي كان ذا عزّة ومنفعة في الدنيا، مبرّاً لإخوانه غيوراً عليهم، وذا وجاهة عند الدولة التركية، وكان يدافع عن العلويين لكلمته المسموعة والمقبولة في الأستانة عند سلطان الأتراك.(١٨٠)

ومن ترسوس أيضاً كامل باشا علي أفندي ابن المترجم سابقاً - وكان مثل والده غيوراً على شيعته ويتوسّل لها بالوسائط النافعة وتوظيف أفرادها في دواوين الحكومة التركية.

ومنهم الشيخ عمر الدرويش الشمسيني الذي تولّى حكومة القضاء متسلّماً ذلك من قبل حكومة عثمان خير بك في صافيتا، وكان يسأل الشيخ إبراهيم مرهج عن غنيمة مال الكافر وقت الحرب لمن تجب وكيف تنفق.

ومن زعماء تلك الأيام محمد أفندي العباس جابر (الطليعي)، وكان زعيماً متقدّماً في زمن الحكومة التركية.

ومن زعمائها أيضاً هوّاش بك: يتّصل نسب هوّاش بن إسماعيل بن عثمان بن خير بك بالأمير حسن بن مكزون السنجاري. ولد سنة ١٨٤٦ في قرية اللقبة التابعة لقضاء مصياف التي سكنها جدّه خيري بك مع جدّته لأول مرّة نازحاً من اللاذقية ونزع والده إسماعيل بك إلى الثورة على العثمانيين لما استقرّ في نفسه من المروءة والشهامة وعدم الصبر على الضيم والذل، وقد تمكنت الدولة من إخماد ثورته الأولى بأن عيّنته حاكماً على قضاء صافيتا، ولكن لم يمضِ ردح من الزمن حتى هبّ للثورة ثانية انتقاماً من العثمانيين الذين قتلوا بعض أصدقائه وأتباعه وجرّدت الدولة عليه حملة قوية كانت الحرب فيها سجالاً بينه وبين الدولة ولمّا خشي المغبّة بعد مدة لاذ بخاله علي الشبلي في قرية عين الكروم، ولكن هذا غدر بابن أخته طمعاً برشوة الحكومة وتزلّفاً لها فاغتاله أثناء نومه عنده سنة ١٨٥٨، وكان هوّاش أكبر أولاده إذ ذاك صغيراً فلمّا بلغ أشده أخذ مركز أبيه، وفي أيام المتصرف هولو باشا الذي عطف على العلويين نال هواش مركزاً مرموقاً لدرجة أن مدحت باشا أبا الأحرار لمّا جاء إلى سورية اتخذه صديقاً واعتمد عليه في تنفيذ إصلاحاته في المنطقة العلوية، كما أحسن معاملة

العلويين بعد أن استدعى لمقابلة مشايخهم وأفهمهم ما ينوي عمله لأجل مصلحتهم وخيرهم، وبأنه قرّر أن يجعل بلادهم لواءً مستقلاً قاعدته (الشيخ بدر)، عندئذ تحركت خواطر بعض أشراف دمشق وحماة واتهموا مدحت باشا بأنه ينوي الاستقلال في تلك البقعة عن الدولة ولاقت آراؤهم هوىً عند السلطان عبد الحميد الذي كان يكره مدحت باشا كرهاً عظيماً ويخشى بأسه فنقله إلى إزمير كما أساء الظن بهوّاش بك فاتّهمه بأنه متواطئ مع الأمير عبد القادر الجزائري لإلحاق سورية بالدولة الفرنسية فاستقدمه والي سورية إلى دمشق واعتقله ١٨٨٢ وأرسله إلى عكا وبقي معتقلاً أربع سنوات، وقد توسّطت شخصيات حمصية مسلمة ومسيحية، كانت له صلات حسنة وصداقة متينة معها لدى الوالي للإفراج عنه فلم يقبل وساطتها بل أمرت الدولة بنفيه إلى جزيرة رودس سنة ١٨٩٠ من جرّاء هذه المحبّة. مات في رودس ١٨٩٦م، وكان عبد الحميد نقل مدحت باشا إلى ولايات بغداد والشام وإزمير ومنها إلى الطائف في الحجاز حيث قتل هناك في ١/ ٤/ ١٨٨٣. (بتصرّف عن تاريخ حمص ج٢ ص٣٨٥)

وقد أثمرت النهضة التعليمية وأفرزت عدداً كبيراً من الأدباء والكتّاب والشعراء وأصحاب الفكر والرأي والقادة نذكر منهم:

١ - **الشيخ حسين أحمد من قرية (حمّين) المتوفى عام ١٢٩٥هـ.** وقد وصف بأنه كان عالماً علامة، فريد عصره وفريع دهره، له المصنفات العديدة المفيدة التي فاق بها أقرانه، وكان مرجعاً يرجع إليه. وله ديوان أشعار، وله جهاد عظيم في الحالتين الدينية والدنيوية، ورتّب قاموساً صغيراً، وسنتطرق إلى دوره في إخماد الفتنة العشائرية التي حدثت في زمنه. وله رسالة في الردّ على رسالة للشيخ يوسف إبراهيم. وله كتاب مقامات الحسنى ومجمع البحرين الأقصى والأدنى. وهو ثلاثون مقامة على نمط مقامات بديع الزمان الهمذاني والحريري.

٢ - **الشيخ علي حمدان شريا:** الشاعر اللغوي، كان قريناً في صباه للشيخ سليمان الأحمد وهاجر إلى أنطاكية وسكن قرية (النعيرية) التي منها الشاعر المعروف سليمان العيسى. توفي ١٣٢٠هـ.

٣ - **الشيخ يوسف علي الخطيب:** كان يتيماً فقيراً في طفولته، ثقّف نفسه بنفسه إذ كان ذكياً، وأقبل على قرض الشعر وباشر تعليم الناشئة، من تلاميذه العالم العلامة الشيخ سليمان

الأحمد، ألف رسائل عديدة، نبغ وأصبح يشار إليه بالبنان، وكان يجمع إلى صباحة الوجه فصاحة اللسان، ذاع صيته في جميع أنحاء العلويين، ألف كتاباً ترجم فيه لعلماء العلويين منذ نشوئهم وحتى عصره. توفي ١٣٤٦هـ.

٤ ـ **الشيخ يعقوب الحسن**: العلامة الكبير، الفيلسوف، عالم الأديان المتخصّص، المجدّ الساعي إلى تثقيف نفسه بنفسه وهو الفقير مالياً، الغني فكرياً وعلمياً ودينياً. وصفه الشيخ يوسف علي الخطيب بقوله: هو رجل عالي الهمّة، كاتب، لبيب، عالم، شاعر، ناثر، غيور، ذو تقىً، هاد مهديّ، وهو إلى الصمت أقرب منه إلى التكلّم، يحبّ مجالسة العلماء والفضلاء، لا بالطمّوع، ولا يكثر الجدّ على حطام الدنيا.[١٨١] ووصفه الشيخ حسين ميهوب حرفوش بقوله: «هو الإمام الثقة، التقيّ، النقيّ، الورع، الراسخ في الدين والعلم، العالم، العلامة، الحَبر الفهّامة، الشاعر الشهير والواعظ البليغ، وشعره عذب حسن مشترك بين الرقّة والصعوبة، على أنه جمع أبواب الشعر التي نطق بها وهي أربعة: الحكمة والمديح والرثاء والغزل قد أجاد في أجمعها وبرع فيها».[١٨٢]

وُلدَ الشيخ يعقوب في قرية (بريعين) ١٢٨٤هـ، وفي السابعة انتظم في سلك التعليم الابتدائي بقراءة القرآن الكريم وتجويده لا غير لعدم وجود من يدرّس اللغة العربية في المحيط لكنه عكف على مطالعة الروايات والقصص القديمة، وفي الثانيةَ عشرة من عمره درس على الشيخ حيدر ديب (قصّابين) وأخذ الفقه حسب مذهب الإمام جعفر الصادق عليه السلام ثم بدأ بمطالعة قواعد اللغة العربية بدون مدرّس ونظم بعض الأشعار، ثم بدأ بمطالعة الكتب المتعلقة بالأديان القديمة وإذ آنس من نفسه القدرة على التأليف في هذا الموضوع فقد شرع في كتابة كتاب سمّاه (تذكر الحياة الروحية) عام ١٣٤٥هـ، تحدّث فيه عن الأديان منذ عرف الإنسان على الأرض فتحدّث عن العبادة والألوهية والأنبياء وضرورة التديّن في المجتمع الإنساني وبرهن على وجود الخالق بالدلائل والبراهين، وردّ على من انكر صنع الله وعجائب قدرته، ثم تحدّث عن حقيقة عبادة أصحاب الأديان القديمة وما جاء به الفلاسفة المصلحون وقدّم نبذة من تعاليم خريستا المصلح الهنديّ ومن تعاليم بوذا، وأوضح ديانة الكلدانيين والآشوريين واليونانيين، ثم تحدّث عن الأديان السماوية: اليهودية والمسيحية والإسلام، وفصّل في أديان العرب في الجاهلية وتوسّع في شرح الدين الإسلامي، وأجاد في شرح مسألة القضاء والقدر في الإسلام ولم يضارعه أحد في هذا الموضوع. وكان يذكر المراجع

التي استقى منها مادة كتابه فكأنه فاق أقرانه في عصره في هذا الأمر بالأمانة والدقّة فكتاب (تذكرة الحياة الروحية) جوهرة في موضوعه ومكتبة في فنّه، وزينة لكل مكتبة في بيت مثقف».

من شعره في الدعوة إلى العلم:

يمّمْ - هُديتَ - مغاني العلم تغليسا ... ولازم الجدّ تعريجاً وتعريسا

واخطب حسان المعالي والصّبا خَضِلٌ ... فعن قريب تريك الودّ معكوسا

واعص الهوى أنَفاً واحذر عَواصفه ... فكم دعت مِن جميل الذكر مطموسا

وكن بدينك بعد العلم في ثقة ... فالغَمْرُ محتَقَرٌ إن ساس أو سيسا

إن التعصُّبَ في الأديان موبقةٌ ... والعدل يشمل مسعوداً ومنحوسا

ويعث إلى أحد طلابه من الدّارسين في اللاذقية قصيدة قال فيها:

طلابُ العلم مَرقاةُ الفَخَار ... أتصبر أم تبوء بلا اصطبار

فإنّك في الصّبا مرآة ذهنٍ ... وحكمةٌ لطفها ضوء النهارَ

تضيء بنور حكمتها زماناً ... وتصدأ ثم تبدأ بانكسارَ

إذا شمتَ ائتلافاً من سهيلٍ ... فجنه ولا يرعك شواظُ نار

فإنّ العلم كنزٌ والخبايا ... دياج والنهى مصباحُ سارِ

من شعره في مديح الرسول ﷺ ومديح الأئمة عليهم السلام:

هم الأئمة يُهدى المتّقون بهم ... مثل الأهلّة والأنوار في الظُّلَم

لا أبرأ الله سقْمي من محبّتهم ... ولا خَبَتْ نار وجدي من ولائهم

آل النبي فرع المرتضى وكفى ... فخراً لهم ثمّ بالزهراء أمّهمَ

هم الصّراط السويّ المستقيم إلى ... الرحمن والعروة الوثقى لمعتصمَ

همُ الأجَلّون عند الله منزلةً ... سادت بفضل رسول الله جَدّهم

شمس الهدى آية الحق التي سنحت ... أوابد الشّرك بالأعجاز والحُزُمَ

خلاصة الكون بل سرّ الوجود ولا ... حدٌّ، ومشكاةُ وحي الله والكلمَ

المصطفى الطاهر المبعوث مرحمةً ... للعرب أهل النّجار الشمّ والعجمَ

محمدٌ خاتم الرُّسُل الكرام ومَن ... في القِدَم كان وسرُّ الكون في القدمَ

نورٌ بدا من سنا الرحمن خالقه ... قبل التّواصل بين الصّلب والرّحمَ

لقد نسج على منوال البوصيري وأحمد شوقي في مديح الرسول الكريم.

كان الشيخ يعقوب ترباً وصديقاً للشيخ سليمان الأحمد.

توفي ١٩٢٧م.

٥ - الشيخ حسين ميهوب حرفوش: ١٣١٠ - ١٣٧٩هـ

ولد بقرية المقرمدة التابعة ناحية القدموس منطقة بانياس من محافظة طرطوس سنة ١٣١٠هـ، وترعرع في حجر والده التقيّ الورع الناسك الشيخ ميهوب حرفوش الذي كان من بعض تلامذته الشاعر الكبير محمد سليمان الأحمد (بدوي الجبل).

ختم القرآن الكريم وهو ابن ٧ سنين، تعلّم النحو على يد الشاعر اللغوي الشيخ عبد الكريم سعد (آل الحاج معلا)، والصرف والبديع على يد الشيخ محمد محمود مصطفى (تلّة الخضر) وهو ابن ٢٠ سنة، ولمّا أكمل الخامسة والعشرين افتتح مدرسة في قرية (برمانة المشايخ) يدرّس فيها العلوم العربية بالمجّان طيلة سنتين، ثم انتقل إلى المقرمدة وافتتح فيها مدرسة كالأولى حتى حلول الانتداب الفرنسي فطُلب إلى دائرة المعارف في اللاذقية وقدّم امتحاناً نجح فيه فعيّن معلماً رسمياً في المعارف أيار ١٩٢٢م، واستمرّ يعلّم الناشئة حتى عام ١٩٣٦، وفي هذا العام اشتدّ ساعد الحركة الوطنية المنادية بالاستقلال عن الانتداب الفرنسي فشعر الفرنسيون أن قرية (المقرمدة) بصورة عامة والشيخ حسين بصورة خاصّة من المؤيّدين لهذه الحركة فما كان منهم إلا أن عاقبوا القرية بإلغاء المدرسة ونقل معلّمها الشيخ حسين إلى قرية (تعنيتا) فبقي فيها سنتين، ولما نجحت القضية الوطنية أعيد إلى مدرسة (القرمدة) وظلّ مثابراً على عمله إلى أن بلغ سنّ التقاعد فأحيل على المعاش. كان يحضّ على طلب العلم ويحث الناشئة على ارتشاف مناهله فتولّد نشاط ورواج لحرفة الأدب في ذلك الوقت، وحضّ على التعليم في ربوع العلويين وتهذيب أفكار العامة وتنشيطها والحث على الفضيلة واجتناب الرذيلة وبناء المدارس والجوامع بماله في تكاليف بنائها، وكان عدد المدارس التي بنيت بمساعيه (٤٥) مدرسة، وسمّت إحدى القرى جامعاً باسمه. امتاز بطهارته وبراءته وورعه وسماحته، كما امتاز بالتقى والفضل والكرم والنبل.

أذكره - رحمه الله - وأنا صغير حين كان يحلّ في بيتنا ضيفاً كريماً محبوباً وقد توافد سكان قريتنا للسلام عليه والإصغاء إلى مواعظه وحضّه على طلب العلم، وإرسال الناشئة -

إلى المدارس، وأذكره ـ وسّع الله له في جنانه ـ في بيتنا في مدينة حمص، وعندنا غرفة واحدة مخصّصة للضيافة حيث تمتلئ هذه الغرفة وتكتظ بسكان الحي الوافدين إلى بيتنا للسلام عليه والسهر معه ساعات تطول وهو يعظ ويفسر وينصح ويحضّ على طلب العلم، ويتلو القرآن الكريم ترتيلاً عذباً جميلاً، أو يؤمّ المصلين وبخاصة أثناء صلاة العشاء.

لقد كان الحضّ على العلم والتعليم غايته وديدنه وهدفه، وقد كان له الفضل في إقناع والديّ بإرسالي إلى المدرسة لأنني ختمت القرآن الكريم قراءة وأنا صغير يتراوح عمري بين الخامسة والسادسة، ولمّا سمع قراءتي وحسنها وشاهد خطّي وحلّي لعمليات حسابيّة أملاها طلب إلى والدي أن يعلّمني في المدرسة ولم تكن في قريتنا مدرسة ولا في الجوار فترك أبي القرية وسكن في حمص وسجّلني في مدرسة رسمية.

وكان ـ رحمه الله ـ عفيفاً جداً، وأذكر أنه في كلّ مرة زارنا فيها كان ميسورو الحال يتسابقون إلى دعوته لضيافتهم فكان يجيبهم: «محمد من قرابتي هو وزوجه، ولقمته حلال وأنا أريد لكم أن تتواضعوا وتحبّوا بعضكم بعضاً».

له تآليف عديدة ومجموعة أراجيز عددها ٢٠ وأبياتها ١٨٩٢، وقصيدة تبلغ ألف بيت، وديوان شعره كبير يبلغ ستة آلاف بيت، وله هذا السِّفر النفيس الذي اقتبست منه الشيء الكثير / ويحقّ لي/ وأعني به كتاب (خبر الصنيعة) الذي يشتمل على حوالي ٢٠٥٠ صفحة في عدة أجزاء، وقد قضى في تأليفه ١٥ سنة متنقلاً بين المكتبات مستخرجاً كنوزها الدفينة من العلوم والمعارف، ويشتمل على تراجم للعلماء منذ القرن الثالث الهجري وحتى القرن الرابع عشر الهجري بلغ عددهم (٦٢٥).

توفي ١٩٥٩م وأقيم له حفل تأبينيّ في ٢١ آب ١٩٥٩م/ ١٦ صفر ١٣٧٩هـ في المقرمدة.

٦ ـ الشيخ سليمان الأحمد: ١٨٦٩ ـ ١٩٤٢م/ ١٢٨٦ ـ ١٣٦١هـ

من أوائل المبدعين في هذه المرحلة، وتتلمذ على الشيخ يوسف علي الخطيب، وعندما اشتدّ عوده وقوي ساعده، وفاضت قريحته لم يكتف بعبّ العلم من بطون الكتب التراثية بل غدا ينهله من الكتب والمجلات العصرية؛ فاشترك بعدة مجلات كانت معروفة في زمانه مثل المجلة العلمية اللبنانية، العرفان، ومجلة الهلال المصرية وأشباههما، وراسل مجلّة العرفان وتوثّقت علاقته بمحرّريها فاحتفلوا بشعره ونشروه بازدهاء.

ومن خلال العرفان تعرّف عليه القرّاء وبخاصّة في جبل عامل وفي العراق، تتالت عليه الرسائل من علماء جبل عامل ومن العراق فأقدم على زيارة صيدا والنجف الأشرف والتقى علماء الشيعة في الأماكن التي زارها، ورحّبوا به وتباحثوا معه.

كان يدعو إلى العلم في كلّ مكان يحلّ فيه، ويعدّد فوائده، وليقرّب كتب التراث للعلويين أقدم على شرح ديوان المكزون، وهو بين ذلك يوالي نشر قصائده الداعية إلى الألفة والمودّة بين جميع أفراد الشعب العربي السوري.

وبالرغم من وجود المستعمر الفرنسي الذي قسّم سورية إلى دويلات طائفية فإنه سار مع حزب الكتلة الوطنية وشجب الاستعمار الفرنسي والمتعاونين معه.

وقد انتخب عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق، واعترافاً بفضله العلميّ وجهوده الوطنية أقيم له احتفال كبير عام ١٩٣٨ بمناسبة بلوغه الخامسة والسبعين دعي باليوبيل الذهبي للعلامة سليمان الأحمد تحت رعاية محافظة اللاذقية إحسان الجابري، وكان رئيس لجنة الاحتفال عبد الواحد هرون وأمين سرّها عبد اللطيف يونس، وشارك في هذا الاحتفال المجتهد الكبير السيد عبد المحسن شرف الدين الموسوي، والشيخ عبد اللطيف إبراهيم والأديب محمد المجذوب.

وأنجب الشيخ سليمان عدّة اولاد توارثوا علمه وأدبه منهم الدكتور علي والدكتور الشاعر أحمد، والشاعر الذي صارت له شهرة مدويّة في بلاد العرب ونعني به الشاعر الكبير بدوي الجبل (محمد سليمان الأحمد) الشاعر الفذّ الذي قارع الاستعمار الفرنسي بشعره وتبوأ منصب الوزارة بعد نيلنا الاستقلال.

نماذج من شعر الشيخ سليمان الأحمد:

مختارات من قصيدة أرسلها لمجلة العرفان يدعو فيها الشعب للعلم والمعرفة:

حنانيك شعب الله بوركت من شعب	فقد آن يلقي السمعَ من كان ذا قلب
أهاب بكم داعي الفلاح مذكّراً	أطلت الكرى يا شيعة المرتضى هبّي
أنا شدكم لله أن تتعطفوا	سماعاً لنصحي بالقبول بلا عجب
هلمّوا إلى العلم الرفيع مكانةً	ومورده الصافي ومنهله العذب
إلى ما يعز النفس بعد مذلّة	وينقذ مِن ضنْكٍ وضيقٍ إلى رحْبَ

إلى العزّ في الأولى إلى الفوز فـــي غد ... إلى نعمة الدارين والأمن والخصب
سرى العلم مسرى البرق يا شيعة الهُدىً ... فيطبق من شرق البلاد إلى الَغربَ

٢. الدّين:

كثر الزهد في الحقائـــــــق وارتـ ... ـاب أناسٌ بصحّة الدين شكّاً
أفلا تمطـــر السمـــوات أحجـــاراً ... وتـــدكّ هـــذه الأرض دكّـــا

٣. الغيب:

سألتني عن الغيـــوب كـــــأنّي ... مـن خُراق الحزّاق والكهّان
لست أدري ولا المنجّم يـــــدري ... ما يريد القضاء بالإنسان

٤. المعارف:

كلّما قلت المعـــــــــارف تربو ... بين أصحابها منون العرافة
إنما السحـــر والتوابـع والتنجيـــم ... في مذهبي حديث خرافه
غلب الجـهل فافـــتراها عـــلى العـ ... ـلم شيوعاً والجهل للعلم آفة

٥. دعوا المغالاة:

دعوا المغالاة إن صـــدقاً وإن كـذبا ... فسيرة المرء تنبي عن سريرته

٦. أيها الجنّ:

أيّهـــــــا الجـــــنّ ألا ... تـتخـذون اللـه ربّـا؟
قـــد غــدا الجاهـــل فيكم ... مستهام القلب صبّا!
فاتّقـــــوه وذرونـــــــا ... (واقـصدوا أهـل أوربـا)!!!

٧. التدجيل:

كـــن صمـــوتاً أو مت بغيظك ... فالناس كما قد رأيت جيلاً فجيلا
غلب الجهل نير العلم والعقــــل ... جميعاً فصدّقوا التدجيلا
وتراهم من قبــــل أن ينكـــروه ... ينكرون التوراة والإنجيلا

٨. الشعر

والشعر أفضله ما كـــان منبعـــثاً ... من الشعور إلى الأشباح أرواحا
فإن أفاد اتحاداً أو حـــوى حِكَـماً ... غرّاءَ كانت له الألباب ألواحا

يقول الشيخ عبد الرحمن الخيّر: «عام ١٣٣٢هـ قام العلامتان الشيخ سليمان الأحمد والشيخ إبراهيم عبد اللطيف مرهج بزيارة إخوانهما من علماء المسلمين الجعفريين في لبنان؛ بيروت وصيدا وصور، حيث حجّة الإسلام الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء يزور لبنان لطبع كتابه (الدين والإسلام) وقد دامت الاجتماعات والمحادثات بينهم أياماً أسفرت عن تعارف مذهبي وتفاهم أخويّ ومودّة صادقة». (١٨٩ مكرر)

٧ـ الشيخ إبراهيم عبد اللطيف مرهج: من قرية المندرة، ينتهي نسباً إلى حيدر بن صدقة، ولد عام ١٢٩٥هـ.

كان عالماً علامة، شاعراً، شرح ديوان المنتجب، وحقّقه. في نشأته قرأ النحو والمنطق والفلسفة على أبي حنا سعادة اللبناني المعلم في برج صافيتا.

تميّز بالعفة والقناعة، ولده الشيخ عبد اللطيف إبراهيم خليفته في علمه وفضله.

٨ ـ الشيخ عبد الهادي حيدر: ولد ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م، قرأ القرآن الكريم على الشيخ عبد الكريم البوغا المهاجر من أضنة، حفظ الأجرومية وكتاب نجم الدين وإعراب بعض سور القرآن الكريم، وقواعد اللغة العربية ولغة الإعراب لناصيف اليازجي، وسلسلة الشرتوني.

قرأ دواوين: المتنبي والقاضي الأرّجاني ولزوميات أبي العلاء المعرّي. اتصل بالشيخ سليمان الأحمد الذي لقّبه بشاب العلم شاعر مدّاحة، مُمَدَّح، كثير الزوار بسبب علمه الواسع وفضله السابغ.

وما كان لليقظة العلمية أن تمرّ من دون عوائق فقد تصدّت لها قوى كانت تريد للعلويين أن يظلّوا يعمهون في حياتهم ليستغلوهم، وليبعدوهم عن الاندماج في الحياة الجديدة التي بدأت تفرض نفسها في الشرق، حياة العلم والحرية والتنوير والعيش الكريم، ولذلك حرّضوا العامّة على عدم الإقبال على المساجد لأنها مراكز للعلم وحاربوا بخاصّة تعليم الإناث وصاروا يزيّنون لهؤلاء العامّة أن بناتهم حينما يحصلن على العلم لن يستفدن منه سوى مكاتبة الشباب وتحرير الرسائل الغراميّة، والعلم بالنسبة للبنات قضاء على الحياء والشرف في زعمهم، والشباب حينما يتعلمون سوف يتنكّرون لآبائهم ولن يحترموهم ولن يجلّوا شيوخ الدين أو يطيعوهم فيما يوجّهونهم إليه. (ومن الطّريف أنهم كانوا يعلّمون بناتهنّ في الكتاتيب أو يرسلونهنّ إلى مدارس داخليّة مسيحية).

ولمّا شاهدوا إقبال العديد من العلويين على العلم سَعَوا عند أصحاب المصالح الخاصّة وحرّضوهم على إشعال فتنة عمياء بين العلويين واستعانوا بقوى من خارج العلويين، وهكذا اشتعلت الفتنة العشائرية لإيقاف تقدّم هذه الطائفة في مدارج الحضارة والالتقاء بمن يجاورها من المجتمعات الشقيقة، وهكذا رأينا من يدعون رؤساء العشائر يتهاترون فيما بينهم ويتحزّب لكل واحد منهم فريق من عشيرته ربط مصالحه بمصالح رئيس عشيرته الذي كان يفرض عليه ضريبة تؤدّى له بالليرات الذهبية سنوياً، هؤلاء الغرقى في مستنقعات الجهل..

وقد سارع عدّة علماء ورؤساء لإطفاء نار هذه الفتنة الكريهة وكان لهم دور كبير بين أنصارهم ومحبّذيهم، ومن يكرهون العشائرية وسخفها وهواها المردي، ويذكر بالفضل والتجلّة والاحترام العلماء: الشيخ حسين أحمد والشيخ ناصر الحكيم والشيخ إبراهيم مرهج.

وكان للعلامة الشيخ حسين أحمد فضل المسارعة بإرسال قصائد إلى الرؤساء والعلماء أثناء الفتنة عام ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٣م، وكان ممّن استعان بجهودهم العلامة إبراهيم المرهج، وأرسل ما يماثلها إلى الزعيمين حامد أفندي يوسف وعباس جابر، يدعو الجميع للتّعاضد وإماتة النعرة الطائفية.

ويورد خبر هذه الفتنة مؤلف (خير الصنيعة) في ترجمته للشيخ حسين أحمد فيقول: «وله جهاد عظيم في الحالتين الدينية والدنيوية ولا سيّما مكاتباته وقصائده التي مدح فيها زعماء الدين والدنيا كالشيخ إبراهيم مرهج وإخوان محيطه والمرحومين حامد يوسف وأخيه محمد يوسف مَيّ وعباس جابر حين اضطرب الأمن والفوضى العمومية التي حصلت في صافيتا أثناء حكومة إسماعيل خير بك في الحصن وصافيتا وتقسيم الشعب إلى عشائر وأحزاب وميل العامة كل جماعة لزعيمها ممّن كان مع البيك المذكور أو عليه فكتب للرؤساء المذكورين قصائد يحضّهم فيها على الألفة والاتحاد العموميّ، وترك النعرة الطائفية وتأليف رابطة دينية عهدوا بها إلى الشيخ إبراهيم مرهج». (١٨٣)

ويتضافر المخلصين والحريصين على المصلحة العامة وخيرها وئدت الفتنة وقامت رابطة دينية بمثابة حلف مقدّس بين المخلصين والعشائر جميعها للقضاء على الفرقة ونبذ من يبشّر بها ويعمل على نشرها.

ويلاحظ أنه كان لبعض الشخصيات المرتبطة بأوروبا دور في إذكاء هذه الفتنة بدّس وخديعة ومكر من السلطات التركية ونلحظ ذلك في شكوى الشيخ والزعيم عباس جابر في أشعار نظمها أثناء حبسه في بيروت وجزيرة رودس لاتهامه بالاشتراك في الفتنة الطائفية. (١٨٤)

ويبرز الشيخ يوسف علي الخطيب في دور شيخ جليل سعى لإطفاء نار الفتنة والقضاء على العشائرية ونبذها وسعيه الدؤوب للإصلاح بين جميع العشائر ويبرز كرمه المفرط (لكأنه هرم بن سنان أو الحارث بن عوف اللذان أوقفا الحرب بين عبس وذبيان وأحلا السلام بينهما) ويماثله الشيخ أحمد معلا (بقعو) المتوفى ١٣٤٤هـ/ ١٨٩٦م. (١٨٥)

لقد تركت هذه الفتنة آثاراً سيئة وجروحاً عميقة وشروخاً واسعة امتدّت وتعرّجت في القرى والسهول والوديان والجبال وألقت بليلها الحالك السواد على فضاء العلويين فجلّلته بالحقد والبغضاء والغزو والسلب والنهب، وهجر المساجد من جديد مخافة المداهمة وإطلاق النار أو ذبح من يصلّي بها من الخصوم أو الرافضين للعشائريّة وتباطأت حركة العلم أو توقفت في بعض المناطق واحتجّ العلم وقهقه الجهل. ويتحدّث الشيخ محمود صالح عن نتائج هذه الفتنة: «أخذ أولئك الرؤساء يناوئ بعضهم بعضاً ويعمل كل منهم بما يراه من مصلحته ويحكّم هواه في عقله ويسر وراء نزعاته، ويسيّر قومه برغائبه، ويبثّ فيهم روح الكراهية لإخوانهم أبناء العشائر الأخرى غير آبه لما يؤول إليه حال الجماعة ولا يفكر بمصير الشعب القائم على تصريف أموره المسؤول عنه أمام العدالة الإلهية بحكم السنّة المقدّسة «كلّكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيته». . إلى أن يقول: وكان من جرّاء هذا التوجيه الفاسد أن أخذ العلّويون يغزو بعضهم بعضاً ويسلب بعضهم أموال بعض، وكثر بينهم النّهب وعمّت الفتنة واضطرب حبل السفينة وربانها مخمور تتقاذفه ومن معه أمواج الجهل وتعصف بهم ريح الأحقاد ممّا جعل أمر صلاحهم متعذراً والأمل بنجاتهم ضعيفاً. . لقد اجتاز العلويون في أدوار تاريخهم الطويل خلال ماضيهم الرهيب أدهى وأمر ما تجتازه فئة محكومة في مراحل حياتها. . . وكلّما نزلت بهم نازلة تضاءلوا أمامها واستكانوا لها، وازدادوا انكماشاً على أنفسهم وابتعاداً عن مجتمعهم، فيزداد المجتمع منهم نفوراً وعنهم بعداً وعليهم نقمة، وبهم استهانة، وهم عمّا يعروهم لا هون، مشغولون بانقسامهم عن تدارك أمرهم، صابرون على بلائهم، مستسلمون لمشيئة الأقدار فيهم، محتفظون بلغتهم العربيّة، ودينهم الإسلامي وتقاليدهم القومية الموروثة وأصولهم وأنسابهم العريقة. (١٨٦)

وما دمنا قد عرضنا للفتنة العشائرية فلا بدّ من وقفة مع أنساب العلويين ومع عشائرهم:

١ ـ عشيرة الكلبيّة: وهي من قبيلة كلب اليمنيّة القوية المعروفة. وهي من أقوى عشائر بلاد الشام، ومنها النسّابة المعروف السائب الكلبي صاحب كتاب (الأنساب) الذي حقّقه المحقّق محمود الفردوس العظم وهي أيضاً أكبر العشائر، أهلها ساكنون في قلب البلاد العلوية.

وفي مقابلة تلفازية أجراها معه المذيع رياض نعسان آغا في التلفزيون العربي السوري مساء يوم الإثنين في ٢١/ ١/ ١٩٨٩ بين الأستاذ العظم أن الرئيس حافظ الأسد يعود بنسبه إلى قبيلة كلب العريقة في عروبتها، وأن قبيلة كلب كانت الأقوى بين كل القبائل، وأنها كانت منتشرة في بلاد الشام وقام عزّ الأمويين على أكتافها ومن عظمائها أسامة بن منقذ ونائلة بنت الفرافصة، وامرؤ القيس والد الرّباب زوجة الشهيد الحسين بن عليّ عليه السلام، ووالد ابنة أخرى كانت زوجة للإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام ووالد ابنة ثالثة كانت زوجة للإمام الحسن عليه السلام.

٢ ـ عشيرة الخياطين: وتعود بنسبها إلى الشيخ علي الخيّاط البانياسي البسطويري الممتد نسباً إلى الشيخ علي الليث المدفون بقرية (فديو) الساحلية، الشهير بالشيخ علي النخلة صاحب الكرامة، ويمتد بنسبه إلى أبي الفتح محمد بن الحسن البغدادي الجوهري الشاعر، وكنت قد حدّثتك عن كرامة الشيخ علي الخيّاط بإقدامه على خياطة سكّة المحراث بورق الشنبوط وحراثته بها وكأنها لم تكسر.

٣ ـ عشيرة المتاورة: تعود بنسبها إلى أحد أولاد الأمير المكزون السنجاري والذي قال بعضهم إنه ينتهي نسبه إلى المهلب بن أبي صفرة الأزدي اليماني.

٤ ـ عشيرة الحدّادين: المنتسبة إلى محمد المعلم الحداد بن مكائيل يوسف بن محمود الذي ينتهي نسبه إلى الأمير الشيخ علي العامود ابن الأمير المرسل الكلبي الكناني التنوخي ولذلك فهي عشيرة سلالية للعشيرة الأم الكلبية. (الشاعر أحمد أسعد الحارة).

وتابعت الحياة مجراها حتى مطلع القرن العشرين الميلادي وفي العقد الأول منه حدثت تطورات جديدة في الدولة العثمانية، فقد خلع السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٩٠٨ واستولى على الحكم بانقلاب عسكري حزب الاتحاد والترقّي الطوراني التركي المتعصّب للقومية التركية فعامل العرب معاملة من الدرجة الثالثة؛ فقام أحرار العرب في كل مكان من

الدولة يؤلفون الأحزاب والجمعيات العربية للنهوض بالأمة العربية لتلحق ركب الأمم المتحضرة بعد أن ظلّت سادرة في التأخّر والانحطاط أكثر من أربعمائة سنة أيام الحكم التركي وقامت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ ودخلت تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا عدوّة فرنسا وبريطانيا.

وخاف الأتراك من الوعي الذي انتشر بين العرب في كل مكان يخضع لحكمهم فأرسلوا أحد قادتهم المشهور بالبطش المدعو جمال باشا السفّاح ليقضي على كل حركة عربية وليعدّ جيشاً عربياً يهاجم به قناة السويس ويحتل مصر الرّازحة تحت الانتداب البريطاني وقد جنّد جيشاً كثيفاً من بلاد الشام فارضاً التجنيد الإجباري وقام بمهاجمة البيوت وألقى القبض على كل قادر على حمل السلاح وجنده في هذا الجيش.

وكان الدرك التركي يهاجم القرى ليلاً ويلقي القبضّ على الفلاحين الصالحين للخدمة العسكرية ويسوقهم إلى مراكز التدريب ومنها إلى الحجاز أو اليمن تمهيداً للهجوم على قناة السويس.

ولا يزال الناس يذكرون هذه الحرب باسم (سفر برلك)، ويذكرون كيف كان الدرك يسوقون أجدادهم قسراً للاشتراك في هذه الحرب، وكيف كان هؤلاء الدرك يضحكون من الذين يلقون القبض عليهم بإقناعهم بإعطائهم الليرات الذهبية التي يحملونها لإطلاق سراحهم فعلاً، والسماح لهم بالعودة إلى بيوتهم، وما إن يحصلون على ليراتهم الذهبية حتى يسارعوا إلى تركهم يعودون أدراجهم إلى ذويهم، ولكن بعد ساعات قلائل من عودتهم يعود هؤلاء الدرك ويطوّقون بيوتهم ويسوقونهم من جديد إلى مراكز التجنيد.

ونال العلويون نصيباً كبيراً من هذا التجنيد الإجباريّ والتحقوا بالجيوش العثمانية مكرهين كما جرى لغيرهم من سكان بلاد الشام وتخلّص بعضهم من الجندية بالهرب إلى الأمريكيتين خلسة عن طريق المرافئ الساحلية في بلادهم أو عن طريق المرافئ اللبنانية وتعتبر هذه الفترة ثاني لقاء لهم مع المَهَاجر.

وقد استفاد العلويون من هذه الحرب إذ خرجوا من عزلتهم والتقوا أفراداً من مجتمعات شتّى ومن امكنة بعيدة عن مناطقهم فتعرّفوا إلى أحوال إخوانهم العرب وشكوا لهم همومهم وأحزانهم وبعضهم تزوّج من الحجاز أو اليمن أو دمشق وعاد بزوجته وأولاده بعد انتهاء الحرب، وبعضهم قضى شهيداً..

وقد اندحرت تركيا في هذه الحرب وفجّر أمير مكّة الشريف حسين مع أحرار العرب ثورة ضدّها عام ١٩١٦ ، وارتكب السفاح جمال أفظع الجرائم بحقّ أحرار العرب وزعمائهم فنصب لهم المشانق في بيروت ودمشق وشنق العديد من هؤلاء الزعماء المطالبين بالحرية والاستقلال لبلادهم .

وانتصرت الثورة العربية وخسرت ألمانيا وتركيا الحرب فرحلت الجيوش التركية عن البلاد العربية وتخلّصت بلاد الشام من الحكم التركي في تشرين الأول ١٩١٨ وتشكّلت دولة عربية في دمشق لأول مرة في بلاد العرب بعد مئات السنين من الاستعباد والقهر والظلم، وعاد من بقي من العلويين إلى مدينته أو قريته ، وغمرت الفرحة بلاد العلويين جميعها لأنها تخلّصت من الحكم التركيّ البغيض الذي ذبح منهم من ذبح ، وقتل منهم من قتل ، وظلمهم وأذاقهم الصاب والعلقم ، وعزلهم عن إخوانهم في داخل البلاد وعن العالم الخارجيّ وبثّ بين الأشقاء كرهاً وحقداً وتوجّساً وخيفة / وهذا ديدن المستعمرين/ ولكن فرحتهم لم تدم طويلاً فقد دهمتهم داهية جديدة هي : الانتداب الفرنسي .

علماء وشخصيات من القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين:

١ ـ **الشيخ خليل معروف النميلي**: الممتد نسباً إلى الشيخ سلمان الرويّس ، عالم بارع ذائع الصيت . ورع منقطع إلى العبادة ، لا يشغله مال ولا ولد ، نشأ وأخوه يتيمين وجار عليهما الزمان بظلم الحكّام ، هاجر إلى بلاد الحصن وسكن قرى عديدة ؛ الصويري والصفيفات ، خربة القبو ، المحفورة ، وفيها صار له رزق كبير فَحُسدَ عليه وأُبلغ عنه حاكمٌ ظالمٌ فهرب منه إلى الجبال ، إلى قرية فُلسقو ، وبعد أن استقرّ به المَقام قام بتشييد (مقام) للخضر عليه السلام في (الطليعي) وبيت سكن للشيخ جابر المنصور .

وله وصيّة يوصي بها إخوانه في طلب العلم والمحافظة على الإيمان ويكثر فيها التحذير من الأمر المنكر ، مُمَدّح من علماء عصره . توفي ١٢٣١هـ .(١٨٧)

٢ ـ **الشيخ إبراهيم مرهج**: ينتهي نسباً إلى حيدر بن صَدَقَة . ولد في بعمرة ١٢١٠هـ وتوفي ١٢٨٣هـ ، عالم فقيه ، عمدة زمانه ، يرجع إليه في الفقه مؤلف ، زعيم ديني ، ساهم في إطفاء نار الفتنة العشائرية عام ١٢٧٠هـ وألّف مع الساعين لإطفاء هذه النار رابطة دينية بثّت في العلويين روح الاجتماع والائتلاف بعد التفرقة والاختلاف .(١٨٨)

٣ ـ **الشيخ أحمد علي (القلع) شاعر، عالم، رحّالة،** ساح في بلاد انطاكية واللاذقية وطرابلس وحمص وحماة، ومدح العلماء الذين شاهدهم في هذه البلاد بقصيدته الرائية التي مطلعها:

سقتني صروف الدهر كأس المرائر وعدت كمشمول من الهمّ حائر

وتتجاوز مئتي بيت ألفها عام ١٣٠٠هـ، وأحصيتُ مَن مدحهم فيها فوجدتهم يقاربون المئة. اخترت منها:

عقلتُ أسفاراً عن الجدّ أنه على طلب العرفان من أمْر آمرِ

لقول رسول الله بالحقّ هاجروا واستغنموا جداً بصيد الجواهرِ

٤ ـ **الشيخ جابر المنصور (الطليعي)** يمتد نسباً إلى عليّ بن مقداد الحلبي المتوفى ٨٨٥هـ. ولد في بسماقة من قرى ناحية المشتى ثم انتقل مع والده إلى قرية الطليعي بدعوة من علماء عصره وفي مقدمتهم الشيخ خليل النميلي للاشتراك في بناء مسجد الخضر عليه السلام في الطليعي.

٥ ـ **الشيخ حيدر ديب / قصابين/** المنتهي نسباً إلى سلمان الرويس بن نميلة، ولد في قصّابين ١٢٢٨هـ وتوفي ١٢٨٠، مذكور بالتقى والعبادة ليلاً ونهاراً. كان يحب معاشرة العقلاء ويتجنّب الجهلاء، له اليد الطولى في عشيرته بعد أبيه.

٦ ـ **الشيخ سلطان / بلين/** بلّين قرية من أعمال حماة. ولد ١٢٠٩هـ وتوفي ١٣١٠هـ، شاعر، بليغ، من ذوي الكرامات الخارقة والأخلاق الفائقة، ممدّح من علماء عصره.

٧ ـ **عبد الحميد اليونس ياسين:** كان رئيساً وقدّم خدمات جلّى، وصادم الخصوم فأبعد إلى تركيا (طرابزون) وبقي أعواماً في المنفى، وتزوّج ابنة عائلة شريفة من طرابزون أحضرها معه حين عاد إلى قريته وقام بتشييد جامع له مئذنة وأوقف أوقافاً للجامع، احترمه الحاكم المستبدّ في صافيتا مصطفى الأنْجا، وتحاشى أراضي آل يونس بسبب ذلك الجامع.

٨ ـ **الشيخ عبد الرحمن حسن غنوم:** ١٢٧٣ ـ ١٣١٠هـ ولد في قرية فاحل، ولما شبّ تركها واستوطن قرية (حداثة) ثم انتقل منها إلى جرنايا: وليّ عارف، له مجاهدات في الدين. ممدّح من علماء عصره.

٩ ـ الشيخ علي مرهج: البيضا ١٢٢٨ ـ ١٣١٢هـ، ينتهي نسباً إلى مونّس بن محمد، وليّ، رئيس مقدام، كان يُعوَّل عليه في الإصلاح بمحيطه، ممدّح من علماء عصره.

١٠ ـ الشيخ محمد سلمان / المزارع/ ١٢٢٨ ـ ١٣١٦هـ: عالم، عارف، كثير الخشوع والصلاة والصيام، مولع بقراءة القرآن الكريم، عفيف النفس له المرتبة العليا بين جميع العشائر، كان يقول: كثرة القضايا تجلب البلايا، وكان مع زعامته رئيساً مع الرؤساء، عالماً مع العلماء، عابداً مع العبّاد، غنياً مع الأغنياء، متواضعاً مع الفقراء. ممدح من علماء عصره. حارب الخرافات والعادات الدخيلة وأفتى بكراهية الأكل من الجَزَر المذبوحة في رأس السنة الشرقية.

١١ ـ الشيخ محمد عمّار / حلبكّو/ توفي ١٢٩٥هـ: ينتهي نسباً إلى محمد المعلم الحداد المكزون السنجاري. كان من رؤساء ومشايخ عصره ديناً ودنيا، قلّ أن وجد في عصره من يعادله جمالاً وكمالاً وفصاحة ومهابة، وكان السيّد الوحيد المطاع في عشيرته.

١٢ ـ الشيخ ناصر الحكيم: ١٢٤١ ـ ١٣١٦هـ: عالم، عارف، وليّ كبير، جواد كريم، فضائله كثيرة ومناقبه كبيرة، طائر الصيت، مبرّ للفقراء والمساكين، متواضع، كثير العبادة، لا يماري أبناء الدنيا ولا زعماءها، دأبه الوعظ والنصح لهم، كان يصطحب خبزه وملحه معه. كان يكلّف المقدمين والرؤساء بسكب الماء على أيدي العلماء ليتواضعوا. مؤلف قليل الشعر. ممدّح من علماء عصره.

١٣ ـ القاضي الشاعر عبد الكريم سعد: توفي ١٣٢٥هـ: عالم، علامة، شاعر فصيح، أوّل من نظم أشعاره بالفصحى من المحدثين، تعلم تعليماً بسيطاً في الأجرومية لكنه جدّ حتى وَجَدَ، وأصبح شاعراً فصيحاً وقام بنشر اللغة العربية الفصحى بين العلويين، وعُيِّنَ أيام الأتراك معلماً في قرية (بحنّين) وأثناء حكم الفرنسيين عُيِّنَ قاضياً في طرابلس براتب عشرة دنانير ذهبية فاشترى أملاكاً وصار غنياً بعد الفقر. له ديوان شعر كبير، شاعر مدّاحة ونوّاحة أيضاً يشابه الشاعر أبا تمام. مدح كثيراً من علماء عصره ورؤسائه، ورثى الكثير أيضاً. من شعره:

ماذا أرى يا ترى في عرب ذي سَلَمِ	همُ خضبوا وجنتي يا صاحبي بدمِ
هم علّموا مقلتي طرز البكا فشكـا	لـهجرهـم بـالـنوى لبّي من الألـمِ

خُفيت وجـداً ولـولا أنـه عرضت — بمهجتي لم يعُدني عائدُ السقمِ
أنا الغـريم إذا الدعـوى بهـم فُتحت — لست البريءَ ولا عرضي بمتّهمِ
يا جاعلي مهجتي فـي حبّهـم هـدفاً — لنيل فيسانهم هل جاز سفك دمي؟

يلاحظ تأثره بأحمد شوقي والبوصيري في مدح الرسول العظيم ﷺ، ومن شعره أيضاً:

ما في اللوى عرفوا يـوم النقا خبري — ولا وقفت بهـم يوماً على أثري
غزلان نعمانَ لـي فيهم منَعمـة — تغْني إذا برزت ليلاً عن القمرِ
أبيّة الوصل لا ينجـاب برقُعـها — إلا كشمس جَلَتْها السحب للبصرِ
كحيلةُ الطرف كم في لحظـها كَمَنَتْ — منيّةٌ والمنى منها على حَذَرَ
ما طرفُـها الفـاتن الفتّان منظـره — إلا محجّة تشويق لذي نظرِ

١٤ ـ الشيخ يوسف علي عيد: ١٢٧٥هـ/ ١٨٥٥م ـ ١٣٥٠/ ١٩٣٠م.

ينتهي نسبه إلى المعز لدين الله الفاطمي. ولد في قرية بشراغي ـ جبلة

حباه الله بسطة في العلم والجسم فأسبغا عليه مهابة، وكان تقياً ورعاً موحداً عابداً يصل الليل بالنهار، واتصف بالحلم والأناة مما أهله لأن يكون سيداً بالدين والدنيا، مُمَدَّح من علماء عصره. بعد وفاته شيّد أولاده مسجداً بجانب ضريحه.

١٥ ـ الشيخ معلاّ ربيع: ولد عام ١٢٩٧هـ في قرية الدالية وبها نشأ محباً للخلوة والانفراد والتعبد، هاجر مع إخوته إلى قرية بيرة المشايخ فنشأ عالماً بارعاً، عارفاً، وعندما جالس العلماء في صافيتا شهدوا له بالسبق والتفوق. ممدح من علماء عصره.

١٦ ـ الشيخ أحمد ديب الخيّر: ١٨٥٩ ـ ١٩٥٥م: رجل محنّك، فصيح اللسان، وقور، مقدام، حازم، سديد الرأي، عيّن قاضياً في قريته ثم رقّي إلى وظيفة قاضي القضاة بمحكمة استئناف الشرع العلوي أيام الحكم الفرنسي، وبعد تقاعده من الوظيفة انتخب نائباً في حكومة اللاذقية ١٩٣٥. [١٨٩]

١٧ ـ الشيخ يوسف ميّ: الجدّ الأكبر لعائلة بيت الحامد / رأس الخشوفة/ صافيتا. اشتهر بعلم الفلك وأتقن عنه هذا الفن خليفته الشيخ محمد اليوسف وانتهى علم الفلك بعده إلى سميّه الشيخ محمد اليوسف.

١٨ ـ محمد اليوسف القاطن في مزرعة بيت بلّول / صافيتا/ ، وكانت عنده كتب مخطوطة قيّمة يرجع تاريخها إلى عهد العباسيين المزدهر ، إضافة إلى آلات يونانية الطراز لرصد الكواكب منها اصطرلاب دقيق الصنع يضبط بواسطته حصول الكسوف والخسوف بدقة غريبة .

١٩ ـ الشيخ علي القاضي المعروف بالشيخ علي بدرة في (صهيون ـ صافيتا) : نسب إلى أمه وربّي يتيماً عند الشيخ يوسف ميّ واستقدمه الشيخ يونس ياسين إلى قرية بيت الشيخ يونس حيث نصبه قاضياً ومعلماً ولهذا عرف هو وعائلته من بعده ببيت القاضي ، وعنه أخذ اللغة نفر من أبناء العائلات الشهيرة .

٢٠ ـ عبد الكريم الحاج : تولى التعليم الحكومي في مدرسة (بحنّين) على عهد متصرف اللاذقية المرحوم ضيا باشا والقضاء المذهبي في طرطوس على عهد الانتداب ، وله شعر في مدح النبي ﷺ وآل البيت الأطهار وأولياء عصره . وكان فقيهاً عابداً وعالماً غيوراً .

٢١ ـ مصطفى مرهج المعروف بالسيّد الجد الأكبر لعائلة بيت السيّد بعمرا ـ صافيتا ، نبغ في علم الفقه وخاصة في فرع الإرث ، ونبغ فيه أيضاً ولده إبراهيم السيّد ولهما في الزهد أحاديث تجدد عهد إبراهيم بن أدهم الوليّ العظيم .

٢٢ ـ عبد الله الخيّر : تولّى التعليم الحكومي في مدرسة القرداحة على عهد المرحوم ضيا باشا ، أنكر القوزلّي والبربارة وما يتعلق منهما بطقوس أجنبية عن المذهب الجعفري (العلوي) وبرز في محاربتها والتغلب عليها وبرز في دحض الخرافات المتسلطة على عقول الجهلة من أمثال فكرة الجن والتوابع والتنجيم والرمل والمنْدل وما شاكلها إذ لا ترتكز على أساس من الحقائق العلمية .

٢٣ ـ عبد الكريم محمد ١٢٩٥ ـ ١٣٥٤هـ :

عالم ، شاعر ، ولد في قرية المصيطبة من أعمال صافيتا ونشأ في حجر والد كريم حثه على طلب العلم فتردّد إلى أحد مجاوريه الشيخ أحمد سلمان ـ حمّين/ فأخذ عنه قواعد النحو من الأجرومية ونجم الدين وغيرهما ، وطمحت نفسه إلى طلب الزيادة فطالع وراجع وسأل عما لا يعلم من يراه أوسع علماً وأكثر اطلاعاً فصار من الطبقة العليا بين علماء العلويين وبخاصة قرض الشعر بكافة فروعه وبخاصة في التوسيل ، من شعره يعاتب عزيز الهواش وكان قائمقام قضاء صافيتا وحكم لخصم الشيخ عبد الكريم بعين ماء كانت للشيخ في أرضه :

فكيف لديك جاز يمين خصمي وعندي بيّنات كالمثاني؟
ولا يخفاك يحلف كل باغٍ إذ للحقّ أنكر وهو جاني
أتطلب ضوءَ مصباحٍ ضعيفٍ ونور الصبح يشرق في الكيان؟

٢٤ ـ الشيخ عبد الكريم عمران: ١٢٧٢ ـ ١٣٥٦هـ/ ١٨٥٥ ـ ١٩٣٧م.

ولد الراحل الكريم في قرية (حمّين) من أعمال صافيتا العام / ١٢٧٢هـ، من أب جميل الأخلاق تقي السجيّة ترعاه الأنساب الزكية. وتوفي والده وهو لم يبلغ السادسة من عمره، فنشأ في رعاية والدته وكانت من النساء الطاهرات، وهي تنسب إلى عائلة بيت (الشيخ عبد الله الدالي) المشهورة بين العائلات بكرم محتدها..

ولمّا بلغ الثامنة من عمره، أخذ يراجع المعلمين القرويين المعتادة. ولم يلبث يوماً على آخر لدى معلم، نظراً لضيق ذات يده وظروفه الحياتية الصعبة، بل كان يأخذ دروسه سماعاً من التلامذة، وكان يحفظ في اليوم ما يحفظ غيره في الأسبوع، فلم يمضِ عليه أكثر من شهرين على هذه الطريقة، حتى ختم ربع القرآن الكريم بأجود قراءة. وأخذ يدرس في الروايات والكتب الأدبية، حتى أصبح يدرك معنىً لأي جملة تمرّ عليه.

وقد اختار لنفسه أستاذاً تقياً من الرجال المتوسمين، يدعى الشيخ سلمان إبراهيم (حمّين). ولمّا بلغ العقد الثاني من عمره، رأى في جده قصوراً، فحتم على نفسه بنفسه، وأخذ يدرس في الكتب الدينية، والأحكام الشرعية، إلى أن صار فيها عالماً فقيهاً. ثم انكب يدرس قواعد اللغة العربية من الكتب القديمة المشروحة.. وبعد أن برع في علم اللغة، وأصبح أسوة في العلوم الفقهية، وإماماً يُقتدى به، نظر بعين البصيرة فرأى بأن زينة العلم العبادة والتمسك بإقامة الفروض الواجبة، فسار على هذه الجادة القويمة، إلى أن بلغ العقد الخامس من عمره، فتربع على دست العبادة بإقامة الصلوات ليلاً ونهاراً.

وقد تعاطى عالمنا الراحل، فن الشعر في صباه، وله قصائد في الابتهال والدعاء والرثاء، ومن ثم لم يرق له نظم الشعر فتركه وتفرّغ للعبادة.

وطار له الصيت الأكبر في العبادة والكرامات، فطبق آفاق البلاد. ومن كراماته المشهورة قصيدته في رثاء المغفور له الشيخ عبد الكريم محمّد، المتوفى قبله بعام وثلاثة أشهر، وقد رثاه وهو حيٌّ يُرزق، وبقيت قصيدة الرثاء مكتوبة بوصيّة منه، إلى أن توفي الشيخ عبد الكريم

عمران، عندئذ استوفت الوصيّة حقّها، وتُليتْ في حفل تأبين الشيخ الأسبوعية، فكان لها الوقع العظيم فّي قلوب الجميع، ومن هذه القصيدة نختار:

خضْ غمرةَ الموت أن الخوف والحذرا لا يمنعان القضا المحتومَ والقدرا
وكل ما تقتضي أحكام دهرك في لوح المشيئة عند الله قد سطرا

وتجدر الإشارة إلى أن حفيد الشيخ الجليل المهندس (عبد الكريم علي عمران ديب) قام مشكوراً بإعادة طباعة كتاب (اللوعة الخرساء في أصدق الرثاء) ويشتمل على ما قيل في فقيد الشعب جدّه الكريم. [المصدر: من أعلام الفكر والأدب، وطلائع النهضة الأدبية في محافظة اللاذقية، تأليف الشيخ العلاّمة عبد الرحمن الخيِّر (مخطوط)].

٢٥ ـ الشيخ علي عبد الكريم عمران: ١٩١٠ ـ ١٩٨٤.

شيخٌ جليل ومصلح اجتماعي. ومجاهدمن دعاة الوحدة السورية زمن الانتداب الفرنسي. ولد في قرية (حمّين) القريبة من بلدة صافيتا. والده هو الشيخ عبد الكريم عمران. وكان الشيخ علي وحيد أبيه الشيخ الكبير، وموضع رجائه، ألبسه بردة العلم والشرف، منذ نعومة أظفاره، وظلّ طيلة حياته يغترف من بحر المعرفة على يدي والده وكوكبة من شيوخ جبال اللاذقية.

وكان واحداً من أعضاء الوفد السوري الذي ذهب إلى لواء الإسكندرون العام ١٩٣٧، قبيل سلخه. وذلك للاتصال بأهاليه، لحثّهم على اختيار الانضمام إلى سورية الأم، في الاستفتاء الذي أجري آنذاك، فجاءت نتيجته لصالح الوطن السوري..

وكانت له اليد الطولى إلى جانب دعاة الوحدة الوطنية، في مقاومة سلطة الانتداب الفرنسي، من أجل الحصول على الاستقلال التام.

لم يرشّح نفسه لأي منصب سياسي خلال حياته، على أنه مارس السياسة منذ فجر شبابه إلى آخر يوم في حياته، ولكن فيما ينفع الناس ويؤلف بين قلوبهم إصلاحاً لذات البين، وانتصاراً للضعفاء، وقضاءً للحاجات، ونهضة عمرانية وثقافية واجتماعية في بلدته (حمّين) أو في مدينة طرطوس حيث أقام. أدى مناسك الحجّ العام ١٩٧٥.

[**المصدر:** من هو في سورية في القرن العشرين، تأليف الكاتب الصحافيّ هاني الخيِّر (مخطوط)].

٢٦ ـ الشيخ علي العباس سلمان: ١٨٧٧ ـ ١٩٦٨.

من كبار علماء المسلمين الجعفريين (العلويين)، وأحد روّاد الإصلاح الاجتماعي، ومن دعاة النهضة التعليمية في جبال اللاذقية. ولد في قرية (بحوزي) من أعمال صافيتا، ثم انتقل إلى قرية (ضهر حمّين) منطقة الدريكيش، حيث بنى مسجداً. ويشاء القدر أن يدفن إلى جواره فيما بعد.

أسس مدرسة في قرية (العنازة) القريبة من بانياس الساحل، استوعبت عشرة مدرّسين، وأكثر من /١٢٠/ طالباً. ومن أبرز طلاب هذه المدرسة: المرحوم الشيخ العلاّمة عبد الرحمن الخيّر. والشاعر الكبير المرحوم نديم محمد، والشيخ العلاّمة المرحوم محمد ياسين. وقد أسندت إلى الشيخ الجليل أمانة سر ثورة المجاهد الكبير الشيخ صالح العلي.

كان قوي الحجّة بليغ الموعظة، إذا تحدّث أوجز، وإذا خاصم أعجز، وإذا دخل في مناقشة أمر جلل ذلّل صعابه وكشف معماه. من مؤلفاته المطبوعة (القلائد في العقائد) الذي أشرف على طباعته، في طبعة ثانية، وفي حلّة نضرة قشيبة حفيده المهندس نزار محسن العبّاس جزاه الله خيراً.

[**المصدر**: من هو في سورية في القرن العشرين (مخطوط)].

٢٧ ـ محسن العبّاس: ١٩١٢ ـ ١٩٨٣.

رجل قانون. من دعاة وحدة سورية في زمن الانتداب الفرنسي ولد في قرية (بحوزي) والده العلاّمة الجليل الشيخ علي العبّاس سلمان. تلقى تعليمه في المعهد العلماني الفرنسي في بيروت. مجاز من الحقوق من جامعة دمشق العام ١٩٣٤، وإجازة في مدرسة الأدب العليا العام ١٩٣٤. عمل محامياً بين عامي ١٩٣٥ ـ ١٩٣٧، ثم انتسب إلى سلك القضاء في العام ١٩٣٧، وتدرّج في القضاء حتى وصل إلى أعلى المراتب الوظيفيّة في القضاء السوري. نُدبَ محافظاً لدرعا بالمرسوم رقم /٤٦/ تاريخ ١٤/ ١٠/ ١٩٦١، وأوفد إلى مؤتمر السلام العَالمي ممثلاً عن رجالات القانون في جنيف العام ١٩٦٦. من كتبه المطبوعة (الحقوق السوفييتيّة) تأليف رينيه دافيد وجون هازرد، (ترجمة) ج١، منشورات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ـ دمشق.

[**المصدر**: من هو في سورية في القرن العشرين (مخطوط)].

٢٨ ـ الشيخ عبد الرحمن الخيِّر: ١٩٠٤ ـ ١٩٨٦ .

ولد في بلدة القرداحة . والده هو العلاّمة الحافظ العابد المشتهر بلقب الدرويش لزهده ، الشيخ (محمد) بن الشيخ (ديب) بن الشيخ (سعيد) بن الشيخ (علي الخيِّر) وهذا الأخير هو الجدّ الأكبر للعائلة .

دخل الكتّاب وعمره خمس سنوات ، وفيه تعلّم القراءة والكتابة ومبادئ التجويد في القرآن الكريم .

تابع دراسته في المدرسة (الرشادية) في القرداحة وعمره تسع سنوات . . وبسبب انتشار الوباء في الحرب العالمية الأولى أغلقت المدرسة أبوابها بعد عامين من انتسابه إليها .

دخل مدرسة دينية علميه خاصة ـ بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ـ كان قد أسّسها في قرية (العنازة) التابعة لبانياس من الساحل نخبة من فضلاء (المشائخ) وأساتذة الجبل الأشمّ . . وفي هذه المدرسة تابع دراسته في الفقه الإسلامي الجعفري ، وقراءة علوم اللغة العربية على يدي الشيخ علي العبّاس سلمان .

في العامين ١٩٢٠ ـ ١٩٢١ ، تابع دراسته في الفقه الإسلامي ، وفنون المعاني والبيان والبديع ، والمنطق على يدي الأستاذ العلاّمة الذائع الصيت المغفور له الشيخ سليمان الأحمد (عضو المجمع العلمي العربي بعدئذ بدمشق) .

وفي عام ١٩٢٢ استأنف دراسة علوم الحديث والتفسير والفقه على يدي الأستاذ المرحوم الشيخ علي العبّاس ، الذي افتتح مدرسة خاصة في القرداحة .

درس اللغة الفرنسية ـ لمدة ثلاث سنوات ـ وأجادها قراءةً وكتابةً .

نال شهادة أهلية التعليم ـ القسم الثاني عام ١٩٣١ . وعمل معلّماً في سلك التعليم . . ثم استقال منه بسبب عجزٍ صحيٍّ طارئ في الحنجرة عام ١٩٤٣ .

زاول عملاً كتابياً في مديرية إدارة حصر التبغ والتنباك ، ثم تقاعد لبلوغه السن القانوني اعتباراً من سنة ١٩٦٣ .

أقام في مدينة دمشق ـ بصورة دائمة ـ منذ عام ١٩٥٦ وحتى سنة وفاته .

عمل بوزارة الأوقاف بصفة مدرس ديني. وخلال عمله بالوزارة كتب ما يتعلّق بمناسك (حجّ التمتع على المذهب الجعفري).

وفي عام ١٩٧٦ طلب منه سيادة القاضي عبد الرحمن الأرياني، الرئيس الأسبق للجمهورية العربية اليمنية، التعليق على الفتوى التي أصدرها الشيخ عبد العزيز بن باز، رئيس الجامعة الإسلامية في المدينة المنوّرة، والتي تتعلّق بعدم صحّة الصلاة خلف معتنقي المذهب الزيدي. . وقد علّق على فتوى ابن باز - بسبع صفحات قياس فولكساب - فتراجع عن فتواه واعترف بخطئه. وقد طبع هذا الردّ أكثر من مرّة في دمشقّ.

كتب ردّاً مطوّلاً على أسئلة وردته من الدكتور شاكر مصطفى في مطلع عام ١٩٧٦ - الذي يدرّس مادة التاريخ في جامعة الكويت - وكان ردّه في / ٤٥/ صفحة، وقد طُبع هذا الردّ في كتاب بدمشق.

زار العديد من الدول العربية والإسلامية. وله مئات المقالات والدراسات والأبحاث المنشورة في الصحف والمجلات السورية والعربية.

أقدم على تأليف كتب للجمهور وللخاصّة، لم يقدم عليها أحد. من مؤلفاته المطبوعة نذكر:

- الصلاة والصيام ومناسك الحجّ وفق المذهب الجعفري.
- موقف الإسلام من الإجهاض والتعقيم.
- عقيدتنا وواقعنا نحن المسلمين الجعفريين (العلويين).
- الردّ على الدكتور شاكر مصطفى، رسالة تبحث في مسائل مهمّة حول المذهب الجعفري (العلوي).

وترك العديد من المخطوطات التي يتصدّى لنشرها نجله الكاتب الصحافيّ هاني الخيِّر.

انتقل إلى جوار ربه صباح ١٨ حزيران ١٩٨٦، ودفن في مقبرة السيدة زينب عليها السلام بدمشق، تنفيذاً لوصيته.

٢٩ - العلاّمة الشيخ محمود الصالح الزلّو ١٩١٢, ١٩٩٨

ولد في قرية (زلّو) من أعمال مدينة بانياس الساحل. درس لدى الكتاتيب أولاً ثم أخذ العلوم الدينية والعربية على يد والده، و الشيخ سليمان الأحمد، والشيخ علي العبّاس

سلمان، والشيخ عيد الخيّر، والشيخ يعقوب الحسن. من مؤلفاته: النبأ اليقين عن العلويين، طبع أكثر من مرّة. نزهة الأفكار في روضي الأحاديث والأخبار (مخطوط).

[المصدر: مجلة الموسم العدد / ١١/ ١٩٩١].

٣٠ـ علي حسين حرفوش: ١٩١٤.

فقيهٌ وشاعر، ينتسب إلى الأسرة الحرفوشية، وهي من أمهات الأسر العربية العريقة عروبةً ومحتداً. عُرف أسلافها بالعلم والمعرفة والصلاح، منهم العابد الزاهد الشيخ علي سليمان، والشيخ رجب المصلح الاجتماعي، والشيخ عيسى وأخوه الشيخ ميهوب فقيهان وشاعران.

تلقى مبادئ اللغة العربية والمبادئ الطبيعيّة والاجتماعيّة على يدي والده، وأنهى دراسته الإعداديّة وحلقة دار المعلمين في اللاذقيّة، وعُيّنَ مديراً للمدرسة الابتدائيّة في بانياس، إبّان الانتداب الفرنسي..

درس الفقه والتشريع الإسلامي على يدي الفيلسوف الراحل الشيخ يونس حمدان آل عبّاس سلمان، وكسب من فضله إرشادات جمّة.. كما كانت له لقاءات مع العلاّمة الزاهد الشيخ عبد الكريم عمران، وولده العارف بالله، الشيخ علي عمران، وغيرهم من كبار العلماء والفقهاء.

تشرّف الفقيه علي حسين حرفوش بالحجّ إلى بيت الله الحرام العام ١٩٦٥م بصحبة المجاهد الشيخ عبد الرحمن الخيّر وأخيه الشيخ عبد اللطيف.

للمترجم له مجموعة شعرية مطبوعة بعنوان (ذكرى ونشيد)، ويغلب على هذه المجموعة طابع الرثاء الوجداني، وهو يهوى الشعر لكن لا يحترفه ولا يقوله إلاّ في الظروف التي تفرضه.

أسهم في بناء العديد من المساجد، لا سيّما مسجد قرية (المقرمدة)، المركز الرئيس للعائلة الحرفوشية، وذلك بالتعاون مع الفضلاء من شباب هذه القرية.

المراجع

١٧٤ ـ خير الصنيعة ج٤ ص١٧٥٠ .
١٧٤ مكرّر ـ يقظة المسلمين العلويين للشيخ عبد الرحمن الخير ص٢١ .
١٧٥ ـ خير الصنيعة ج٤ ص١٦٧٩ .
١٧٦ ـ المسلمون العلويون في مواجهة التجني ص١٥٠ .
١٧٧ ـ خير الصنيعة ج٣ ص١٣٩٠ .
١٧٨ ـ النبأ اليقين عن العلويين ص١٣٣ .
١٧٩ ـ خير الصنيعة ج٤ ص١٤٨٩ .
١٨٠ ـ خير الصنيعة ج٤ ص١٦٥٨ .
١٨١ ـ تاريخ الشيخ يوسف الخطيب مخطوط ١٦٩ .
١٨٢ ـ خير الصنيعة ج٥ ص٢٠٢٧ .
١٨٣ ـ خير الصنيعة ج٤ ص١٥١١ .
١٨٤ ـ خير الصنيعة ج٤ ص١٦٢٦ .
١٨٥ ـ تاريخ الشيخ يوسف علي الخطيب ص٧٧ .
١٨٦ ـ النبأ اليقين عن العلويين ص١٧٦ مع وجود بعض الاختلاف بين الطبعتين ١ و٢ .
١٨٧ ـ خير الصنيعة ج٣ ص١٣٩١ .
١٨٨ ـ خير الصنيعة ج٤ ص١٤٢٩ .
١٨٩ ـ التراجم من ٣ ـ ١٦ مستقاة من كتاب خير الصنيعة ج٤ و ج٥ .
١٨٩ مكرّر ـ عقيدتنا وواقعنا نحن المسلمين الجعفريين (العلويين) ص٣٩ .

الفصل السادس عشر

العلويّون أثناء الانتداب الفرنسي

رأى العرب أن فرصتهم قد سنحت للتخلص من الاستعمار التركي ولتحقيق استقلالهم ووحدتهم العربية ، وهذه الفرصة تمثلت بالحرب العالمية الأولى التي اشتركت فيها تركيا إلى جانب ألمانيا المعادية لبريطانيا وفرنسا ، وقد عرض الإنكليز والفرنسيون على الشريف حسين أمير الحجاز مساعداتهم لطرد الأتراك من البلاد العربية وتشكيل دولة عربية مستقلة .

وقد قام الشريف حسين بالثورة العربية ضد الأتراك في ١٠/٦/١٩١٦ واستطاع جيش الثورة بقيادة فيصل ولده دحر الجيش التركي الموجود في البلاد العربية وأخرج الأتراك من دمشق في تشرين الأول ١٩١٨ وتشكلت حكومة عربية في دمشق تحت إشراف الأمير فيصل .

ولكن الحلفاء غدروا بالعرب وقضوا على حلمهم بتأسيس دولة عربية مستقلة ، واقتسمت فرنسا وإنكلترا البلاد العربية ، بموجب اتفاقية وقعتاها سراً بدون معرفة العرب دعيت اتفاقية (سايكس - بيكو) . وكان للإنكليز حق السيطرة على فلسطين والعراق ، بينما كان لفرنسا حق السيطرة على سورية ولبنان وكيليكيا ، وفي ٢٠/ ١٠/١٩١٨ أنزلت فرنسا جيشها في بيروت والساحل السوري ، واحتلت اللاذقية مطلع ١٩١٩ وفي شهر شباط بدأت ثورة العلويين ضد الفرنسيين وظلت مستمرّة حتى السابع من شهر تموز ١٩٢١ .

وقد قاد هذه الثورة المجاهد المعروف الشيخ صالح العلي من قرية الشيخ بدر الواقعة بين طرطوس ومصياف والدريكيش وكانت هذه القرية مركزاً للثوار ينطلقون منه لمهاجمة الفرنسيين في الساحل والقرى التي احتلوها ، وجرت معارك عدة كان النصر في بعضها للثوار ، وتوصلوا في بعض الأحيان إلى مهاجمة المدن الساحلية مثل جبلة وبانياس المتمركز فيهما الجيش الفرنسي بكثرة ، وهددوا السفن الحربية الفرنسية الراسية بالقرب من الشاطئ .

وقد دعا الفرنسيون جيشهم في سورية ولبنان باسم جيش الشرق ، وقد سجل أحد الضباط الفرنسيين مجريات هذه الثورة في كتاب سماه «الكتاب الذهبي لجيوش الشرق» واعترف فيه بأن بلاد العلويين كانت المسرح الأول للمعارك الهامة التي اشتبك بها جيش الشرق .[١٩٠]

ففي موقعة بابنّا ١٦/ ٤/ ١٩١٩ ظل القتال دائراً بين الثوار والفرنسيين مدة سبعة أيام عنيفة القتال دفعت المحاربين أحياناً إلى التلاحم أجساداً بأجساد.

وفي واقعة المريقب ٢١/ ٧/ ١٩١٩ هزم الجيش الفرنسي وسقط منه العديد من القتلى والجرحى، واضطر الفرنسيون إلى الانسحاب أثناء الليل، وظل الثوار يسيطرون على مناطقهم حتى نهاية عام ١٩٢٠.

وقد تلاقت ثورة العلويين مع ثورة الشمال التي قادها الزعيم إبراهيم هنانو، وكان لتعاونهما أكبر الأثر في دحر الفرنسيين وإعاقة تقدمهم في احتلال سورية الداخلية، ويعترف مؤلف كتاب «الكتاب الذهبي» بوجود ثوار من العلويين مع قوات هنانو، حيث اشتركوا في مواقع جسر الشغور وإدلب أثناء كانون الأول ١٩٢٠. [١٩١]

كانت معارك الثوار متلاحقة مع القوات الفرنسية فمن معركة النبحا التي تكبد فيها الفرنسيون (٢٥ قتيلاً) وغنم فيها الثوار كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة، إلى معركة الشيخ بدر التي انتهت بهزيمة الحملة الفرنسية مخلفة (٢٠ قتيلاً) و ٣ أسرى بيد الثوار وكميات من الأسلحة والأعتدة.

وحاول الفرنسيون خداع الثوار فتوسط قائد القوات البريطانية في فلسطين الجنرال اللنبي ورجا الشيخ صالح في ٢٥/ ٥/ ١٩١٩ بأن يسمح للفرنسيين المرابطين في القدموس بالمرور عن طريق الشيخ بدر إلى طرطوس وأكّد له أن الفرنسيين تعهدوا بألا يتوقف جيشهم إلا للراحة والتزوّد بالماء.

وقبل الشيخ صالح شريطة ألا يتوقف الجيش الفرنسي في الشيخ بدر إلا ساعة واحدة وألا ينصب خيامه، وألا ينزل أحماله وانسحب الثوار إلى التلال المحيطة بالشيخ بدر من جهة الجنوب والغرب مستعدين لمواجهة الغدر.

وحينما وصل الفرنسيون نكثوا بوعودهم ونصبوا مدافعهم، وأطلقوا النار على الشيخ بدر والرستن فانقضّ عليهم الثوار من الجبال ودارت رحى معركة كبيرة دامت من الصباح حتى منتصف الليل، وقتل عدد كبير من الفرنسيين وهرب الباقون مخلفين ذخيرتهم وعتادهم. [١٩٤]

وفي ١٥ حزيران ١٩١٩ جهّزت فرنسا حملة جديدة معزّزة بطائرات الاستكشاف وقوات مدرّبة على حرب العصابات وحرب الجبال فخادعها الثوار وانسحبوا متظاهرين بالهزيمة أمامها واستدرجوها إلى ممر إجباريّ هو (وادي وَرْوَر) وعندما دخلت المصيدة انقضّوا عليها فمزّقوها، وقتلوا وجرحوا (٨٠٠ جندي) وأسروا (١٦ جندياً)، وقد استشهد في معركة وادي ورور البطل مصطفى خير بك مع ابنته الوحيدة، وهما من قرية وادي العيون.

وأباد الثوار حملة أخرى في ٢٩ حزيران بين قريتي الحمّام والمرقب ممّا دعا فرنسا إلى طلب الصلح فرد عليهم قائد الثورة بشروط منها:

١- الجلاء عن الساحل السوري وضمّه إلى الحكومة الفيصلية.

٢- تبادل الأسرى بين الفريقين.

٣- دفع تعويضات عن الأضرار التي ألحقها الفرنسيون بالقرى التي مرّوا بها.

فقبل الفرنسيون مبدئياً بهذه الشروط وطلبوا الاجتماع بالشيخ صالح.[١٩٥]

وخادع الفرنسيون فجردوا حملة استولت على قرية كاف الجاع التي يملكها الشيخ صالح واعتقلوا سكانها وأحرقوها.

وفي ٢٠ شباط ١٩٢٠ فاجأ الثوار فجراً القوات الفرنسية في طرطوس فقتلوا الكثير منها ولو لم يتدخل الأسطول الفرنسي لأبادوها كاملة. وفي ٣ آذار ١٩٢٠ هاجم الثوار قلعة القدموس وحاصروها ثلاثة أيام فاستسلمت، وفي نهاية شهر آذار خسر الثوار معركة السّودة.

وفي ٣ نيسان شنّ الفرنسيون هجوماً صاعقاً بالطّائرات والدبّابات على معاقل الثّوار واحتلّوها ولكن الثّوار استرجعوها بعد معارك دامت ٣٥ يوماً دون انقطاع، وخلال المعركة التقى الشيخ صالح والبطل يوسف العظمة وبحثا في شؤون الثورة وأقسما يمين الولاء والوفاء.[١٩٦]

وجدّدت فرنسا قواتها وهاجمت الثّائرين بجيش قوامه ثلاثون ألفاً بقيادة (بلونجي) وعندما وصل قرب وادي العيون انقضّ عليه الثوار وكبّدوه خسائر كبيرة، وأسقطوا طائرتين وانتهى بولنجي قائداً وعُيّن آمراً لموقع حمص.

وتوسطت فرنسا الإنجليز من جديد لإنهاء الثورة وتحقيق الصلح بشروط الثوار، فوافق الشيخ صالح وعقدت هدنة بين الطرفين استمرت شهراً، وقام ضابط فرنسي في عقرزيتي بالتهجّم البذيء على الدين الإسلامي فأثار ذلك حفيظة الشيخ صالح وأرسل رسولاً يحمل إنذاراً شديد اللهجة فأعدمَ الضابط الفرنسيُّ الرسولَ خلافاً للأعراف والتقاليد فأرسل الشيخ عصبة من مغاويره كمنت للقائد الفرنسيّ وقتله مع عشرة من جنوده.

وعندما حاول الفرنسيون حشد قواتهم حول بانياس هاجمها الشيخ بقواته في تموز ١٩٢٠، وبعد معركة دامية ارتدَّ الفرنسيون حتى مياه البحر، وتدخَّل الأسطول الفرنسيّ فانسحب الثوار بعد أن استولوا على موجودات ثكنة بانياس وأحرقوا (السراي) وأوقعوا بالحامية خسائر كبيرة.[١٩٧]

ولو لم تحدث معركة ميسلون في ٢٤/٧/ ١٩٢٠ وينتصر فيها الفرنسيون ويقضون على الحكم العربي الوليد، وعلى استقلال سورية الحرَّة لما استطاع الفرنسيون بعد ذلك احتلال داخلية البلاد، فمع انتهاء الحكم العربي في دمشق الذي كان يدعم الثورتين بالمعدَّات والمال والسّلاح والمستشارين والخبراء ضعفت الثورتان وانقطع عنهما المدد والعون اللذان كانا يرسلان من دمشق.

بعد احتلال دمشق وتوقيع الهدنة مع تركيا وجلاء الفرنسيين عن كيليكيا تفرّغوا للقضاء على الثورات المعادية لهم، وقرَّروا تعزيز وجودهم في الساحل والسيطرة على الجبال الشامخة المفعم سكانها بالوطنية والعروبة، هذه الجبال الشمّ التي وصفها مؤلف الكتاب الذهبي، بأنها مسكونة بشعب نزوع إلى القتال ويأتمر بأمور زعمائه ويطيعهم طاعة عمياء.[١٩٢]

في أوائل أيار ١٩٢١ بدأ الجيش الفرنسي بالتحرك لاحتلال مواقع الثوار والقضاء على الثورة وكان هذا الجيش كبيراً ومجهّزاً بأحدث معدات القتال. وننقل من الكتاب الذهبي خطّة الجيش الفرنسيّ وعددَه والأدوارَ التي مرّ بها حتى استطاع القضاء على مقاومة الثوار.

١- **القوات المحاربة:** بوشرت الإجراءات في الشّمال أولاً ثم تبسّطت إلى الجنوب وتولاّها الكولونيل (ينجر) على رأس القوات الآتية:

أ - تجريدة موران وتشتمل على لواء من الفرقة الأجنبية ولواء إضافي مختلط وبطاريّة من عيار ٦٥ .

ب ـ تجريدة كليمان غرانكور المشتملة على لواء من فيلق الرّماة السنغاليين العاشر وكوكبة من المختلطين، وبطاريّة ٦٥ وسرية مدفعية ٧٥.

ج ـ والعناصر التالية:

الكتيبة السادسة من الفرقة السورية.

ء ـ لواء من فيلق الرماة التونسيين السادس عشر.

هـ ـ لواء تويكيني.

و ـ كتيبتان إضافيتان.[١٩٣]

هذه القوات الضخمة المتعدّدَة الجنسيّات المجهزة ببطاريّات المدفعيّة الحديثة والطّائرات المقاتلة بدأت حشودها في الشمَال بمهاجمة القرى وقتلت السكّان ونهبت البيوت وأتلفت المزروعات، وفرّ أصحابها إلى القرى الواقعة في الشرق والجنوب من قراهم، وتابعت القوات الفرنسية زحفها نحو جبل «الشعرة» واستقرّت في (عين القرون) بعد احتلالها، وقد تصدّى الثوار لهذه الحملة الضخمة وقاتلوا بمشقة بالغة ولم يتخلّوا عن مواقعهم إلا بعد قطع الرجاء بالاحتفاظ بهذه المواقع.

وبعد أن كبّدوا الفرنسيين عدداً من القتلى والجرحى.

وكان الفرنسيون يأملون بعد الاستيلاء على عين القرون أن يستسلم الثوار مع قائدهم ولكنهم فوجئوا بانتشار الثورة في أكثر نواحي المنطقة، وقدوم متطوعين جدد للقتال مع الثوار، واتحاد كلمة الزعماء والرؤساء والعلماء العلويّين والتفافهم حول قيادة الشيخ صالح العلي.

وفي ١٢ حزيران ١٩٢١ بدأ الاشتباك بين الثوار والقوات الفرنسية على جبل (الصَرامطة) وقدر عدد الثوار بـ ٢٥٠٠ مقاتل، وقد بذلوا كل مستحيل لإيقاف تقدّم الفرنسيين وجرت معركة رهيبة في قرية (محمد جوفين) وتوصف في ملفاتَ الفرنسيين بأنها أشدُّ ما وقع في حملة العلويين.

وقد طوقها الفرنسيون بسلسلة من المراكز المجهزة بالمدفعية والرشاشات بعد أن سقطت قرية (قرفيص) في أيديهم، لكن الثوار المتحصّنين في محمد جوفين وبشراغي والمشرفين

على القوات الفرنسيَّة من أعالي الجبال والمختفين وراء الصخور أبدوا مقاومة رائعة تستحقُّ الإعجاب في وجه القوات الفرنسية المؤلفة من :

١ـ لواء قرمرش (الفرقة الأجنبية). ٢ـ اللواء السنغالي. ٣ـ اللواء الأول والثالث من فيلق الرماة الأفريقيين الحادي والعشرين. ٦ـ اللواء التويكني. ٧ـ بطارية ٦٥.

واستطاع الفرنسيون احتلال قرية (دوير بعبدة) ولكن بعد مقاومة عنيفة استبسل فيها الثوار، وتابع الفرنسيون الزحف نحو (بشراغي) فأصلوها نيراناً غزيرة من المدفعية والرشاشات، غير أن الثوار صمدوا أمام القوات الزاحفة وأمطروها بوابل من الرصاص، وكاد الجانبان يشتبكان بالسلاح الأبيض، وفي الوقت نفسه كانت قوة فرنسية تهاجم (محمد جوفين) ودار فيها قتال رهيب، وأصليَ المهاجمون نيراناً حامية وكثيفة، وثبت المقاومون بعناد.

ولكن الكثرة والمعدّات الحربيّة الحديثة تفوّقت على هؤلاء الثوار المؤمنين بوطنيّتهم وعروبتهم وحرية بلادهم واستقلالها، استقلال أرادوا فيه أن يرفعوا رؤوسهم لأوّل مرّة، ويواجهوا الشمس المشرقة والقمر المنير، ولكن قوى الظلام كانت أقوى وأعتى فالفرنسيون يملكون جيشاً كبيراً مدرّباً مسلحاً بأحدث ما أنتجته معامل الأسلحة في أوروبا وهم يتلهفون إلى الاستيلاء على الشرق حلمهم وحلم آبائهم وأجدادهم منذ مئات السنين لينهبوا خيراته، ويذلّوا نفوس شعبه.

ولما لم يجد الثوار أملاً في المقاومة انسحبوا من القريتين وسقطت (بشراغي) و(جوفين) في نهاية اليوم الثالث عشر من حزيران ١٩٢١ وتكبّد الفرنسيون في هاتين الموقعتين عشرات القتلى والجرحى.

وكانت المرحلة الأخيرة من الثورة في منطقة الشيخ بدر حيث اتّحدت قوات الجيش الفرنسيّ وهاجمت وادي العيون ووادي الشمس مروعة السكّان، قاتلة من يقف في طريقها.

وفي الرابع من تموز وصلت إلى مشارف الشيخ بدر حيث مركز الثورة، ودارت بين الثوار والفرنسيين عدة معارك متفرّقة في أماكن متعدّدة حول البلدة وفي القرى المجاورة كان الثوار يدافعون باستماتة عن قراهم ومعاقلهم وموئل صباهم ومهد أجدادهم، ومركز انتشارهم ولمّا لم يجدوا فائدة من المقاومة انسحبوا وخلّفوا وراءهم الشهداء شهوداً على الوقوف في وجه مستعمرٍ طاغٍ، باغٍ، أثيم.

وفي اليوم السابع من تموز ١٩٢١ توقفت الثورة في جبال العلويين بعد أن استمرت حوالي ثلاث سنوات وقد استطاع الشيخ صالح العلي قائدها أن يتوارى عن الأنظار حتى تشرين الأول بعدما صدر عفو عنه.

وعندما قابل القائد الفرنسي في اللاذقية سأله عن دوافعه للثورة فقال له الشيخ: (حب الوطن). وعرض عليه هذا القائد حكم الدولة العلويّة المشكلة حديثاً فرفض بإباء وشمم وعرض عليه أيضاً التعويض عن أملاكه التي أحرقت ودُمّرت فرفض أيضاً ولما سأله عن السبب قال له: (لأنَّ الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز: «ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسّكم النار» وانتفض الفرنسي غاضباً وقال: هل نحن ظالمون؟ فقال الشيخ: نعم، ولولا أنكم ظالمون لما جئتم إلى هذه البلاد). (١٩٨)

فطلب منه الفرنسي عدم مغادرة الجبل إلا بإذن من الجيش.

وقد كان لي شرف اللقاء مع حفيد الشيخ صالح العلي (الشيخ صالح الصالح) من قرية المبعوجة عام ١٩٩١ فحدَّثني عن هذه الثورة العظيمة، وأضاء لي بعض جوانبها وبخاصّة مشاركة النساء فيها، قال:

من المقرّبين إلى الشيخ صالح العلي أبناء عمّه: علي صالح وسليم صالح والشيخ عباس أحمد، الذي بقي موالياً له حتى نهاية حياته لأنه بقي بعده وهو الرجل الوحيد الذي اختصّهُ الشيخ صالح العلي بصلاة عيدي الفطر والأضحى.

ومن رجاله المقرّبين من أهله أيضاً: أحمد غانم ابن أخته (شمسة) وأحمد إبراهيم ابن أخته (خديجة)، وهذه المرأة كانت أعجوبة وتذكرنا بمن سبقها من النساء العربيات المناضلات نزلت مرة لزيارة (جدّها الشيخ بدر: الضريح وبيتها قريب منه، فشاهدت جماعة من الثوار منهزمة فصاحت بالمنهزمين: إلى أين يا جبناء؟ فبهتوا، ولم يردُّوا على تساؤلها، فصاحت بهم: تريَّثوا، وعادت إلى البيت ثم رجعت إليهم وهي تشهر في يدها سيفاً لامعاً، وقد وضعت في كتفها بندقية وصاحت بهم: عودوا، وتقدمت بهم إلى (قلب) المعركة التي انهزموا منها فانتصروا انتصاراً باهراً ومثلها قريبتها السيدة آمنة الصالح التي كانت ترافق أخويها سليماً وعلياً) وظلّتْ ترافقهما مدة الثورة على كتفها (جعبة الخرتوش) وعلى كتفها الثاني قربة الماء.

ومثلها السيّدة : أمّون الأسعد التي كانت تحمل رسائل الشيخ صالح إلى أنصاره وتؤدّيها على خير ما يرامَ ، وكانت تتحمَّل وعورة الطريق ومشقّاته ، وكان السير في الليل أحبَّ إليها من النهار ، و(مرَّ معنا سابقاً اشتراك ابنة البطل مصطفى خير بك في الثورة واستشهادها معه) .

ويتابع الحديث : الذين طردوا الحملة الفرنسية عن ظهر القليعات كانوا قلّة وهم : سليم صالح وسليم شاويش وسليم زينة وأحمد حسن وسليم من (حالين) . ومن قرية (سريجس) كان أحمد إبراهيم وعلي ديوب عثمان ، واستشهد البطل الكبير أحمد أبو أحمد عدلة وابن عمه علي سليمان ديوب قتلاً بالرصاص أعدما لأنّ أحد العملاء دسّ عليهما عند الفرنسيين فأمسكوا بهما وأعدموهما بدون محاكمة ، ومن مشاهير الشهداء علي زيهد الحمام .

ومن رجال الشيخ الشجعان : علي سليم الخدّام وعبّاس حبيب وعبّاس حسن وإسماعيل حسن الأسعد والشيخ جابر ميهوب الحطّانيّة - وعلي محمود ضوّا العصبّي وعلي محمود إسماعيل الحطّانيّة وعلي زاهر ، ومن الشهداء : كامل حمدو الباكير ، شنقه الفرنسيون . ومن مشاهير المجاهدين ، حامد أحمد ميهوب وفهد الشاكر من وادي العيون ومعه خادمه حمدو الذي كان شجاعاً مقداماً ، وحمدو هذا هو حسن الصفتلي من الطليعية من صافيتا الجنوبية ، والشيخ محمد الخدَّام ورجب الشيخ من عين الكروم ، وشاهين حسن حمد من قرية (الجباب) وكان مناضلاً عنيد أو شاعراً باللغة العامية ، ومنهم إبراهيم القاموع الذي كان ينقل الرسائل بين الشيخ وقرى محافظة حمص الشرقية ، وينقل المعدات الحربية والأغذية للثوار .

. ومن كان يساعد الثوار يا شيخ صالح؟

من منطقة سلمية : الشيخ علي سليمان نبهان الملقب بالشيخ علي القليب نسبة للقرية التي كان يسكنها ، وكان عبد اللطيف أبو عباس أخو الشيخ علي من رجال الشيخ صالح المقرّبين ، ومن حماه نجيب البرازي وأحمد الأحدب .

وما هي صفات الشيخ صالح العلي؟

كان حسن الوجه جداً ، أبيض بنقاء ، وعلى خدّه الأيمن خال أسود أشقر الشعر ، أسود العينين ، وكان وقوراً هادئاً ، كثير القراءة في القرآن الكريم ، حسن التّنغيم ، كثير الصلاة حتى يكاد يكون أعبّد رجل في زمانه ويظنّه من يجهله أنّه من الجبابرة حتى يعاشره فإذا هو الوديع الحليم .

وكان في الليل يقرأ الكتب الفقهية، وفي النهار كتب الفلسفة والآداب والتاريخ.

ومن ميزاته أنه كان متسامحاً مع خصومه وحسّاده، بل كان يمنحهم النقود، وكان إلى جانب ذلك فطناً حذراً، فقد حدث أثناء الثورة وكان يرابط في (فراس النبع) فوق كاف الجاع، وكان الثوار يرابطون أمام (عين القضيب) أمام الفرنسيين ونظر الشيخ وقال: أين فلان؟ فبحثوا عنه فلم يجدوه فصاح: تحوّلوا بسرعة، فتركوا أماكنهم مسرعين، وما هي إلا لحظات حتى أصلي المكان الذي كانوا مرابطين فيه وابلاً من القذائف كاد أن يهدم الجبل لكثرته وشدته، ويتابع الشيخ: وقد حدثنا السيد محمد الجندي من سلمية فقال: أغرت فرنسا بعض الزعماء العلويين - مثلما أغرت غيرهم من باقي المذاهب - أيام الانتداب بالمطالبة بقيام دولة علوية مستقلة تحت الانتداب تكون عاصمتها اللاذقية، فتصدّى لهم الشيخ صالح العلي، وانتهرهم وقال: نحن العرب جميعاً ضعفاء أمام أوربا فكيف إذا انفصلنا إلى دول وشيع؟ ضمّوا هذه الدولة إلى دولة دمشق.

واجتمع هؤلاء الزعماء ثانية في قرية رأس الخشوفة وأرادوا أن يطلبوا من البرلمان السوري (مقاعد) أكثر مما كانت لهم (زيادة عدد نوابهم في البرلمان) في ذلك الوقت فصاح بالمجتمعين: ويحكم! هذا الطلب للأقليات ونحن (أجليّات) وفي عصر العلم وغداً يقتتل أبناؤنا عليها، وقد يكون منّا رئيس جمهورية، وقد صدقت نبوءة الشيخ صالح حيث اعتلى الرئيس حافظ الأسد رئاسة الجمهورية العربية السورية بعد عدة عقود من الزمن من نبوءة الشيخ.

ولد الشيخ صالح العلي في قرية المريقب عام ١٨٨٣م وتوفي فيها في ١٣ نيسان ١٩٥٠. وقد كرّمته الحكومة الوطنية بعد جلاء الفرنسيين وأقامت له حفل تكريم في ٢٥/ ٤/ ١٩٤٦ أي بعد رحيل آخر جندي فرنسي عن أرض الوطن بتسعة أيام، وقد ألقى الشاعر بشارة الخوري قصيدة في هذا الحفل قال فيها:

من شاعر نَسَقَ الرّياضَ ونظّما	أكبرت فيه العبقريَّ الملهما؟
صرحُ العروبة أين كان مقرّه	أوْ ما إليك وقد تهلّل وانتمى؟
زرع المهنّدَ واليراعَ ليَعرب	وجنى الذي جهلتْ يداه كلاهما
تعب الجهاد من الطّواف فلم يجدْ	شرَفاً أعزّ ولا مقاماً أكرما

دولة العلويين:

أخمد الفرنسيون الثورات التي اشتعلت ضدَّهم في كل مكان من سورية: في حوران والقنيطرة ودير الزور وجبل العرب وفي حلب وحارم وفي جبال العلويين، وبعد أن استقرّت لهم الأمور أقدموا على تقسيم سورية إلى مناطق أربع: وشكَّلوا في كل منطقة دولة عيّنوا لها حاكماً فرنسياً يساعده حكّام من أهل البلاد تعاونوا معه، وقد أثار الفرنسيون المنافسات بين هذه الدول وشجعوا النزعات الانفصالية، وقوّوا العناصر الموالية لهم، وأشاعوا النعرات الطائفية، والعنصرية والإقليمية، وأقدم قائد القوات الفرنسية الجنرال غورو على إقامة حكومات هزيلة متعاونة مع فرنسا في هذه الدول:

١. **دولة دمشق:** يرأسها حاكم وطنيّ يسمّى الحاكم العام يعاونه في الأحكام سبعة مديرين وطنيين لكل منهم مستشار فرنسي، وتضم هذه الدولة أربعة ألوية هي دمشق وحوران وحمص وحماه، وتبلغ مساحتها: (٤٥٠٠٠ كم٢). [١٩٩]

٢. **دولة حلب:** وحاكمها وطنيّ يسمّى الحاكم العام ويعاونه في إدارة البلاد مديرون وطنيون ومستشارون فرنسيون وتقسم إلى ثلاثة ألوية هي: لواء حلب، لواء إسكندرونة. ولواء دير الزور مساحتها (٨٢٠٠٠كم٢). [٢٠٠]

٣. **دولة جبل الدروز:** يرأسها حاكم وطنيّ ينتخبه الشعب لمدة ٤ سنوات ويعاونه مجلس نيابي (لم يتقيّد الفرنسيون بهذه البنود بل حكموا الجبل حكماً مباشراً شأنهم في ذلك شأن كل دولة أقاموها) وتقسم إلى ٤١ ناحية فيها أكثر من (١٠٠) قرية وتبلغ مساحة جبل الدروز (٦٠٠٠ كم٢). [٢٠١]

٤. **دولة العلويّين:** رئيس حكومتها فرنسيّ يسمّى حاكم دولة العلويين، يعاونه في الإدارة مديرون وطنيون وتقسم إلى مدينتين مستقلتين في إدرانهما هما: اللاذقية وإرواد ولواءين هما: لواء اللاذقية ولواء طرطوس، ومساحة هذه الدولة (٦٥٠٠كم٢)، وقسم لواء اللاذقية إلى ثلاثة أقضية هي: **اللاذقية مركز الحكومة، ٢ـ صهيون ومركز القضاء بابنّا، ٣ـ جبلة وهي مركز القضاء.**

ولواء طرطوس وقسّم إلى خمسة أقضية هي:

١ـ قضاء طرطوس ومركز اللواء طرطوس، ٢ـ قضاء المرقب ومركزه بانياس، ٣ـ قضاء العمرانية ومركزه مصياف.

٤ـ قضاء صافيتا ومركزه الدريكيش.

٥ـ قضاء الحصن ومركزه تلكلخ.[٢٠٢]

هذه الدولة كانت تضم أكثر من ٤٠٠,٠٠٠ . شخص، وقد مرّت تسميتها وتقسيمها بمراحل:

ففي ١٩٢٠ أطلقوا عليها اسم **(إقليم الحكم الذاتي للعلويين)** وفي عام ١٩٢٢ أقام الجنرال غورو ما يدعى بالاتحاد السوري ويشمل دول العلويين ودمشق وحلب.

وعندما خلفه الجنرال ويغان عام ١٩٢٤ أقدم على إلغاء الاتحاد ودمج دولتي دمشق وحلب بدولة واحدة أطلق عليها اسم (دولة سورية) وفصل لواء الإسكندرونة عن دولة حلب وجعله لواءً مستقلاً وكان هذا تمهيداً لإلحاقه بتركيا في المستقبل، أما دولة العلويين فقد عادت لوضعها الذي رسم لها من قبل ولتسميتها عام ١٩٢٢ بدولة العلويين.

أرأيت أعجب من هذا؟!! وطن واحد قسّم إلى أوطان عدّة كأنه قطعة حلوى كبيرة، ودولة واحدة تفتت إلى دويلات لبنان الكبير!!! دولة العلويين ـ لواء الإسكندرونة ـ دولة حلب ـ دولة دمشق ـ دولة جبل الدروز.

ومَن حكامه؟ موظفون من أهل البلاد لا يملكون من أمورهم شيئاً، وموظفون فرنسيون هم الحكام الحقيقيون والفعليون قَدموا لنهب الرّصيد الذهبي لبلاد الشام، وقاموا بصهره أواني وملاعق وسكاكين ومقابض أبوَاب وصنابير مياه، وصدّروه لفرنسا، وتقاضوا الرواتب الضخمة الخيالية حتى أفقروا البلاد وأقفروها وأذلّوا السكان وطبّقوا سياسة (فرّق تَسُدْ) وقسّموا الشعب الواحد إلى أقسام وكلّ قسم يتبع مذهباً معيناً وأوغروا صدور أبناء هذه الدويلات على بعضهم بعضاً فاستشرت الطائفية المذهبية بين عامّة القوم، وحلّ الكره والحقد محلّ المحبّة والتسامح.

ولم يكتفوا بذلك بل حرّكوا بأساليبهم الخبيثة الماكرة ما نام من عشائرية بين العلويين ونصّبوا لكل عشيرة زعيماً يتحكّم فيها ويتصرّف بشؤونها وبفرض الإتاوات عليها، ويرتبط هؤلاء الزعماء بالحاكم الفرنسي في اللاذقية.

وكم قاسى العلويون من هذه العشائريّة البغيضة ومن هؤلاء الزعماء فقد كان الزعيم يتحكّم في مصير أفراد عشيرته فيفرض عليهم ضريبة معيّنة تقدّم له في أوقات معلومة

وسخَّرهم في إنجاز مصالحه الخاصة ، وكان يقاتل بهم أفراد عشيرة أخرى وهكذا أبقى هذا الفرنسي الخبيث العلويين في صراع دائم مع بعضهم بعضاً كي لا يلتفتوا إليه ويحاربوه ليجلوه عن بلادهم متعاونين مع إخوانهم في بقية المناطق السورية .

وقد نشر الكره في سورية كلّها بين كلّ مدينة ومدينة ، وفي المدينة الواحدة جعل أبناء الأحياء يكرهون بعضهم بعضاً بلَ ويصطدمون بعراكٍ مسلّحٍ ومميت .

في عام ١٩٣٠ تغيّر اسم دولة العلويّين إلى حكومة اللاذقية ولعلّ ذلك عائد إلى فوز الكتلة الوطنية في انتخابات ١٩٢٨ وأرادت فرنسا أن تخفّف من مطالب غالبية العلويّين الذين كانوا يريدون الوحدة مع حكومة سورية ، لكن في عام ١٩٣٣ عطّل المندوب السامي الفرنسي (دوما رتيل) المجلس النيابي فنشطت الكتلة الوطنية ضد السلطات الفرنسية وطالبت في كانون الثاني ١٩٣٦ بتحرير سورية واستقلالها وإعادة وحدتها ، وقامت المظاهرات الوطنية في كل أنحاء البلاد فتصدّى الجيش الفرنسيّ لهذه المظاهرات وسادَ العنف والعذاب والتهجير والنَّفي وأغلقتْ دمشق محلاتها التجارية حوالي ٦٠ يوماً فتعطّلت مرافق البلاد ووقعت منازلات بين رجال الدولة والمواطنيين ، وخافت فرنسا من قيام ثورة جديدة على شاكلة ثورة ١٩٢٥ الثورة السورية الكبرى ، فأعلن المندوب السامي فتح باب المفاوضات بين فرنسا والكتلة الوطنية لعقد معاهدة صداقة وتحالف بين البلدين ، وفي أيلول ١٩٣٦ وقعت المعاهدة وتشتمل على ملاحق نصّت على انضمام بلاد العلويين وجبل الدروز إلى سورية ، وفي تموز ١٩٣٩ ألغت فرنسا المعاهدة وعاد التقسيم من جديد ، وعاد الحكم الذاتي يمارسه العلويون حتى عام ١٩٤٢ عندما أعيد توحيد سورية في دولة واحدة هي الجمهورية السورية .

نصّ قرار ضمّ دولة العلويين إلى سورية ١٩٣٦ .

قرار عدد ٢٧٤ ل/ع بنشر النظام الأساسي للمنطقة العلويّة .

إن المفوض السامي للجمهورية الفرنسية ، بناء على صكّ الانتداب المؤرَّخ في ٢٤ تموز ١٩٢٢ وبناء على مرسوم ٢٢ تشرين الثانيّ ١٩٢٠ الذي حدد سلطات المفوض السامي وبناء على مرسوم ١٦ تموز سنة ١٩٣٣ ، ولما كان قد حصل اتفاق في باريس بين الحكومة الفرنسية والوفد الذي كان عهد إليه وضع أسس معاهدة تعقد بين فرنسا وسورية ، ولما كان الاتفاق المذكور يستلزم نقل اختصاصات السيادة التي كان حق ممارستها محفوظاً للمفوض

السامي بموجب القرار رقم ٣١١٣ بتاريخ ١٤ تموز سنة ١٩٣٠ إلى الحكومة السورية ويستلزم أيضاً تجديد أساليب النظام الخاص في الإدارة والمالية الذي تنوي الحكومة السورية تأميناً لمنطقة اللاذقية ووفقاً للمبادئ التي جدّدتها عصبة الأمم، قرّر ما يأتي:

مادة أولى: إن منطقة اللاذقية، هي جزء من الدولة السورية.

مادة ثانية: تستفيد هذه المنطقة ضمن دولة سورية من نظام خاص إداري ومالي حددت أساليبه في النظام الملحق.

مادة ثالثة: مع الاحتفاظ بأحكام النظام المذكور يسري على منطقة دستور الجمهورية السورية وقوانينها وأنظمتها العامة.

مادة رابعة: فور إبرام المعاهدة الفرنسية السورية يدخل هذا القرار والنظام الملحق به في دور التنفيذ بدلاً من النصوص التي كانت تسري على هذه الأمور، بيروت في ٥ ك ١ ١٩٣٦ [٢٠٣].

شهادات: وقد أدخل الفرنسيون هيكلية للإدارات العامة وأصدروا بطاقات هوية وقاموا بإحصاء السكان ومنحوهم طوابع بريدية ومالية، وعلماً هو عبارة عن شمس صفراء على أرضيَّة بيضاء، وهذا رمز لابدَّ وأنه قد حيَّر السكان المحليين. [٢٠٤]

(ساعد العلويّون اللاجئين الأرمن الذين نزحوا من تركيا). [٢٠٥] (الأميّة كانت متفشّية بشكل يكاد يكون تاماً في قرى الجبال وكان الرجل يدور على كل المناطق المجاورة بحثاً عمن يقرأ له رسالة. وفي الأربعينات لم تكن هناك سوى ثانوية واحدة على طول الساحل كلّه من لبنان إلى الإسكندرونة لخدمة طرطوس وجبلة واللاذقية ومناطق الجبل الداخلية جميعاً وكان التنافس لدخولها شديداً قاسياً). [٢٠٦]

(الفرنسيّون لم يأتوا بتحسين ماديّ كبير للجبل، أوصلوا بعض الطرق الترابية إلى السفوح ولكن بالسخرة المجانية تحت طائلة العقاب والضرب ودفع الغرامات إن رفضوا العمل، الوجيه المحليّ هو المتعهّد ويجمع الشباب من ٣-٤ قرى لرصف الطريق - وظل العلويون يعانون من الفقر المدقع حتى نهاية الحرب العالمية الثانية)، كتب ضابط بريطاني خدم في سورية عن قرية علوية (إن السكان البائسين كانوا في حالة يرثى لها من التعاسة والشقاء والكآبة الموحشة، وباعتبارهم في بلد صغير تحت ظل انتداب أوربي طيلة ٢٢ عاماً فإن الأوضاع في كل مكان سيئة بشكل لا يصّدق). [٢٠٧]

(الظلم الاجتماعي في سورية كان كبيراً مثلاً فُرص العمل في اللاذقية القليلة المتوفرة كانت كلها من نصيب الوجهاء يتهادونها فيما بينهم فكلما أرادت إدارة الريجي أن تستخدم عمالاً جدداً كان السادة المحليُّون يتقاسمون الوظائف عشراً لهذا وعشرين لذاك وهكذا كانت الوظائف ملكاً لهم يبيعونها لمن يدفع السعر الأعلى، فقد يدفع رجل مئتي ليرة للحصول على وظيفة كاتب أو ماسح لأرض مستودع التبغ ثم يطرد قبل أن يمضي في الوظيفة وقتاً كافياً لاستعادة ما دفع حيث تباع وظيفته نفسها لشخص آخر).[٢٠٨]

مذكّرة من العلويين إلى وزارة الخارجية الفرنسية في ٢٧ تموز ١٩٣٦ .

صاحب المعالي: تعلمون ولا ريب يا صاحب المعالي مطالب الأمة السورية بتحقيق وحدتها واستقلالها، وعقد معاهدة بين فرنسا وبينها شبيهة بالمعاهدة العراقية الإنجليزية، هذه المعاهدة التي تسود العلاقات السياسية بين هاتين الدولتين، وإن أكثرية العلويين التي نمثلها لسعيدة بمعرفتها تقارب وجهتي النظر الفرنسية والسورية في المفاوضات الجارية آنياً في باريس لعقد المعاهدة الفرنسية السورية، وإنها تأمل أن تؤول هذه المفاوضات إلى النجاح، ومن جهة أخرى فإنها تجدد ثقتها بالوفد السوري، وتعرب عن عرفان جميلها نحو الاستعدادات الطيبة التي أظهرتها الأكثرية البرلمانية الفرنسية نحو مطالب سورية الحقَّة المشروعة، ونعتبر هذه الاستعدادات الطيبة برهاناً على دوام تقاليد فرنسا بتحرير الشعوب.

إن الاستقلال الإداريّ (الأوتونومي) الذي أعطي لبلاد العلويين عام ١٩٢٠ لم يكن في مبدئه سوى نظام مؤقت يتسنى للعلويين بكنفه سرعة تطورهم السياسي والإداري والعلمي كي يتساووا برقيّ طبيعيّ مع إخوانهم في سورية، ولكن فحوى تصريحات فخامة المسيو بونسو المفوَّض السامي في سورية ولبنان تجاه لجنة الانتدابات عام ١٩٣٣ وتصريحات المسيو دي كين العديدة تجاه اللجنة ذاتها لم تكن من الجلاء والوضوح بمكان، والحوادث أعظم برهان أن هذا الاستقلال الإداري (الأوتونومي) بدلاً من أن يكون للعلويين عامل رقيّ لم يكن سوى عامل انحطاط وتأخر، فإفقار البلاد المطَّرد بضرائب باهظة، والتفكك والانحلال اللذان أصابا فكرة الوفاق والألفة بين العلويين من جرَّاء تطبيق واتّباع مبدأ فرّق تسد وإفساد معنويات البلاد بإنالة الحظوة لطبقة من الناس لا تمثل خيارهم، وإهمال المعارف العامة، براهين لا تقبل النقض على هذا الانحطاط.

وإذا وجد ولم يزل موجوداً بين العلويين من هم أداة لهذا الانحطاط فإنهم ليسوا وحدهم المسؤولين، وإن من العدل أن نلاحظ أن للإدارة متى رغبت بخلق انقسامات فإنها تستطيع ذلك ولو في أرقى بلدان الدنيا ذات الشعوب الكاملة. وإن من العسير يا صاحب المعالي العثور على تناقض ظاهر واضح كالتناقض الموجود بين المبدأ الذي بُنِيَتْ عليه فكرة (الأوتونومي) وتطبيق هذا المبدأ فإن الأوتونومي من حيث المبدأ يزعم أنه وجد لإيجاد شخصية للعلويّين ضمن إطار الأمة السورية، ذلك أنه ليس للعلويين دعوة دولية، ولا قومية مستقلة، أما من حيث التطبيق فإن (الأوتونومي) يذهب توّاً إلى عكس ما يدّعيه في المبدأ فيحاول أن يفكّك أعضاء الجسم العلويّ تحت ستار الاحتفاظ به وإن مَحاولة هذا التفكيك تظهر بصورة خَاصة في الناحية الدينية.

[إن العلويّين شيعة مسلمون]، وقد برهنوا طوال تاريخهم عن امتناعهم عن قبول كل دعوة من شأنها تحوير عقيدتهم فهم يحتفظون بشدة بالعقيدة الشيعية الإسلامية وكأن الصدف يا معالي الوزير ساقت بتبشير الآباء اليسوعيين إلى جبالنا وأخذ هذا التبشير يتسرّب إليها منذ عام ١٩٣٠، ومن المفيد إحاطة معاليكم علماً أن الكثيرين من الموظفين الفرنسيين الإداريين يرون بعين الارتياح إلى أعمال الآباء اليسوعيين وبعدة مناسبات منذ عام ١٩٣٠ استلفتنا نظر السلطات العليا في باريس وبيروت إلى هذه الحوادث التبشيرية التي تكون معذورة لو أن الدافع لها اليقين والإيمان إلا أن الشيء المشين في هذه الحوادث، وهنا موضع استيائنا وعليه احتجاجنا، هو استثمار واستغلال فاقة شعب فقير وشراء ضمائر ضعيفة كما تشترى السلع لتمرق من دين إلى دين آخر.

اسمحوا لنا يا صاحب المعالي بالإدلاء لكم بهذه الحقيقة التي نراها ديناً علينا لفرنسا ولسورية بالسواء ذلك أنّ أشدَّ أنصار الانفصال بين الموظفين الفرنسيين هم أشد أنصار التبشير اليسوعي، وأمّا طلب استبقاء (الأوتونومي) الصادر عن بعض الشخصيات العلوية المطواعة لأوامر هؤلاء الموظفين لأنها تملك كل ما لديها منهم. فليس الدافع إليه سوى خشيتها فقدان النعم التي يتمتّع بها متى أذن تبدل النظام الحاضر بذهاب هؤلاء الموظفين.

وبعد أن جربنا الانفصال عن سورية ستة عشر عاماً لا يمكننا إلا أن نلمس الأمور التالية:

أولاً: لم يكن العلويون قط متفسخين كما هم اليوم، وهذا التفسخ نتيجة الإدارة الانفصالية.

ثانياً: إن بلاد العلويين تتحمل أبهظ ضرائب في سورية وذلك لتغذية (الأوتونومي) الذي لا يؤمن حاجة من حاجاته والذي أوجد سوء حالتنا المادية والمعنوية .

ثالثاً: إن هذا الانفصال الذي تغنّى بمحاسنه بعض العلويين النفعيين ليس سوى سلم للتبشير اليسوعي ، وبالتالي لإفناء العلويين التدريجيّ .

رابعاً: إن هذا الانفصال يَحول دون تحقيق وحدتنا القومية ، هذه الوحدة التي هي حجر الزاوية في تحريرنا واستقلالنا .

ليس في مصلحة فرنسا ، ولا في مصلحة سورية ، ولا في مصلحة العلويين استبقاء وضع لم يكن وجوده مدة ستة عشر عاماً سوى برهان على أن العلويين كانوا ضحاياها الأولى ، وأنه لا يمكن إلا أن يكون سبباً للخلاف بين فرنسا وسورية ، كما وأنه ليس في مصلحة فرنسا المعنوية وهذه المصلحة لها مقامها الرفيع ، وليس في مصلحة التفاهم الفرنسي السوري إعاشة وضع الأوتونومي برسائل الضغط ، فإن الأساليب المتبعة في اللاذقية كي ترتفع بعض الأصوات منادية باستبقاء الأوتونومي لا يمكن أن يقال عنها في حال من الأحوال إنها أساليب قادرة على رفع مستوى الشعوب الأخلاقي .

إن فرنسا التي أحببناها والتي نحبها فرنسا محررة الشعوب فرنسا خادمة الإنسانية والمثل الأعلى فرنسا عام ١٧٨٩ لا يمكن أن تقبل أن يقدم بعض موظفين فرنسيين شمهم استبقاء مناصبهم الجميلة عن طريق الانفصال وتقوية الحجة القائمة على دفع بعض النواب العلويين الخنوعين لإنكار دينهم الإسلامي وعرقهم العربي وذلك ليخلعوا على الحجة الانفصالية ظواهر الحجة المعقولة .

إننا نقول لكم يا معالي الوزير ، والألم يحز نفوسنا ، إن بعض النواب العلويين كي يبرروا الانفصال ، حارس منافعهم الشخصية قدموا لمعاليكم ولمعالي رئيس الوزارة مذكرة ينكرون فيها أية رابطة تربطهم بالإسلام والعروبة ويزعمون أن فقدان رابطة عامة دينية وعرقية بينهم وبين السوريين يعرضهم لاضطهاد المسلمين العرب ضمن الوحدة السورية إن هذه المزاعم يا صاحب المعالي تناقض ذاتها وتكذب نفسها بنفسها [فلكي يكون العلوي علوياً يجب عليه أن يكون مسلماً] ، [فالدين الإسلاميّ شرط التزامي للانتساب للعلويين ، والتشيّع لعليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه] .

[ذلك أن العلويين ليسوا سوى أنصار الإمام، وما الإمام عليّ سوى ابن عم رسول الله ﷺ وصهره ووصيه، وأول من آمن بالإسلام، ومن مكانه في الجهاد والفقه والدين الإسلامي مكانه]، ليس الكاثوليكي والأرثوذكسي أو البروتستانتي سوى مسيحيين، [وليس العلويّ أو السنيّ سوى مسلمين] ففي المثل الأول لا تبطل الكثلكة أو الأرثوذكسية أو البروتستانتية مسيحيّة المسيحيّ وفي المثل الثاني القول برأي الشيعة أو برأي السنة إسلام المسلم.

[إن القرآن الشريف هو كتاب العلويين سواء أكانوا طلاب وحدة أم طلاب انفصال، ومن كان القرآن الكريم كتابه فهو مسلم أحب أم كره إلا أن يرتد عن الإسلام]، وإن إخواننا الانفصاليين يصنفون أنفسهم بين أمرين لا ثالث لهما، فإما أ ن يعترفوا أن القرآن الشريف هو كتابهم، وعندها لا يمكن لهم إلاّ أن يكونوا مسلمين علويين، وإمّا أن ينكروا القرآن الشريف وعندها لا يمكن لهم أن يكونوا مسلمين علويّين، ولا أن ينتسبوا لأيَّة فرقة من فرق الإسلام.

وإنه لمن المحزن يا صاحب المعالي وهذه ويا للأسف حالتنا أن يصادف المرء بين قومه أناساً يتخذون أقدس العقائد بضاعة للاتجار بها في سوق التجارة السياسية.

يعلم الانفصاليون العلم الكافي بالروابط المتينة التي تربطهم بالعرق العربي وبالدّين الإسلامي، إنهم ينكرونها خشية أن يُقضى عدل فرنسا حتى ساعد هذا العدل سورية على تحقيق وحدتها، وأقيم في بلاد العلويين نظام منصف مُؤَسَّس على احترام حقّ كل فرد بزوال المنافع التي أغدقوها عليهم ليديموا التغنيّ بمحاسن الأوتونومي المزعومة.

ومما يلفت النظر أن الانفصاليين يعتبرون أنفسهم مسلمين أو غرباء عن الإسلام تبعاً للمصلحة السياسية ومقتضياتها، فعندما يجلب لهم الاعتراف بالإسلامية وظائف لا يمكن أن تسند إلا لمسلمين وشيوخ لأن مهمة القائمين على هذه الوظائف تطبيق الشريعة الإسلامية كوظيفة القاضي والمفتي فإنهم لا ينكرون إسلاميتهم.

وقد انتقت الإدارة لتدعم النظام الانفصالي أغلبيَّة القضاة والمثقَّفين من الفئة الانفصالية، فلماذا إذاً يعترف بصراحة زعماء هذه الفئة هؤلاء الزعماء الذين خلقتهم السياسة لتجعلهم جنوداً لها أنهم مسلمون؟ وذلك بحملهم علماء هم على إشغال وظائف إسلامية؟ غاية جهودها تطبيق الشريعة الإسلامية إذا كان الانفصاليون ينكرون الإسلام عن عقيدة لا عن

خنوع وتهوّس سياسيّ، فلماذا لا يهدمون الجوامع القائمة في القرى الانفصالية؟ ولماذا يتظاهرون تجاه أنصارهم بالتعبّد وشدة الإيمان بالإسلام؟ ولماذا يخشون أن يقولوا لهؤلاء الأنصار إنهم انفصلوا عن الإسلام؟

لا قصد لنا يا صاحب المعالي من بسط هذه التفاصيل لديكم إلا إطلاعكم على الحقيقة ما دامت الحقيقة وحدها صالحة لتكون الأساس الذي تبنى عليه المودة بين الشعوب، وبين الدول إننا دون أن نرغب بالدخول في بحث علمي عن أنساب العلويين فإنه لا يسعنا البتة إلا أن ندحض دحضاً مطلقاً الرأي الانفصالي القائل إن العلويين منحدرون من أقوام غير عربية وإن في السكوت عن هذا الادّعاء الانفصاليّ الوهمي ثلمة لكبريائنا ولكرامتنا.

[من الثابت أن العلويين نزحوا إلى جبالهم من العراق الذي هو مهد التشيُّع كما هو بذات الوقت ولذات الأسباب التاريخية موطن من مواطن العروبة كل شيء يقيم الدليل على أن العلويين عرب أقحاح، وهذه تقاليدنا، وعاداتنا وأخلاقنا وشكل هيئتنا الاجتماعية، ولغتنا وأميالنا، وثقافتنا، والروايات الشفوية المتناقلة في كل عشيرة من منشئ إلى منشئ تؤيّد انتسابنا إلى العرب كما يؤيده التاريخ وما العلويون سوى أحفاد القبائل العربية التي ناصرت الإمام علي كرم الله وجهه فوق صعيد الفرات].

لابد من التساؤل يا معالي الوزير: لمَ يخشى الانفصاليون أن تكون الوحدة السورية سبباً لاضطهادهم من قبل الأكثرية الإسلامية العربية؟

بينما يرون إخواننا النصارى في دمشق وحماه وحلب متمتّعين بذات الحقوق التي يتمتع بها المسلمون وبينما يعيشون مع هؤلاء المسلمين بسلام، وبينَما يعيش علويون آخرون في حمص وحماه وأنطاكية مع السنيِّين على قدم المساواة وفي جوّ مفعم بالوئام والمحبة؟ إننا على يقين يا صاحب المعالي أن حكمة فرنسا لا يمكن أن تجيز لهذه الادعاءات الانفصالية المصطنعة المختلقة المساس بمصير الأمة، بينما تعملون يا معالي الوزير مع الوفد السوري لتوطيد المودة الفرنسية السورية يقدم بعض الانفصاليين في هذه البلاد مساقين بخنوعهم لوحي بعض الموظفين الذين كل همهم البقاء في مراكزهم في اللاذقية، على رغم كل تفاهم بين سورية وفرنسا بتهديد الأمن العام بالإخلال عندما تمهد فرنسا وسورية اتفاقهما بمعاهدة، فمع معرفتنا قيمة هذا التهديد نجد مفيداً إلفات نظر معاليكم لأعمال هؤلاء الموظفين الذين يستغلون خنوع الانفصاليين رغبة منهم بحملهم على اتِّباع الخطأ وركوب الشطط.

[إننا طلبنا يا صاحب المعالي إلحاق بلاد العلويين بسورية على أساس الوحدة اللامركزيّة الإداريّة، وإننا نجدد هذه المطالب، ونعتبر كل نظام ووضع غير الوحدة السورية اللامركزية الإداريّة متنافياً مع وجودنا كسوريين وكعلويين إن الوحدة القومية هي لنا كما هي لكل شعب مبدأ حفظ حياته، وإنه لا يمكننا أن نجد خارج الوحدة اللامركزية الإدارية أيّ ضمان لصون حقوقنا السياسية ولصون حياتنا الاقتصادية والدينية والاجتماعية].

[إن الوحدة السورية هي مبدأ حياتنا]، إننا واثقون أن فرنسا ستساعدنا على تحقيق أمانينا القوميّة المشروعة.

[إن مئتي ألف علوي ينتظرون اليوم الذي يعلمون به أن الوحدة والاستقلال والمعاهدة الفرنسية السورية أصبحت أموراً محقّقة]، وإن هؤلاء المئتي ألف علوي يرسلون لفرنسا تحية مفعمة بالأمل، ويقدمون لمعاليكم أسمى الاحترام). (٢٠٩)

يقول الشيخ عبد الرحمن الخيّر: ظل المخلصون من رجالات العلويين الأفذاذ يحاربون سياسة الاستعمار الغاشمة التي كانت ترمي إلى تنصير جهلائهم وتستثمر انقساماتهم العشائرية وتستغل جشع بعض زعمائهم إلى الظهور، وتحاول الوقوف دون انتشار العلم بينهم أقول: ظل رجالاتهم المخلصون يجالدون ويجاهدون حتى قيض الله النصر فذهب الاستعمار (الانتداب الفرنسي البغيض) إلى غير رجعة، وهنا تنفس الشعب وأقبل النشء على العلم والعمل والمساهمة في كثير من مناحي الحياة في الوطن بهمّة عجيبة وإقدام أعجب). (٢٠٩مكرر)

عريضة شباب اللاذقية إلى روبير دي كيه شباط ١٩٣٦:

أولاً: إن الشعب بمنطقة اللاذقية، ما عدا بضعة أشخاص لهم صبغتهم المعروفة في حكومة اللاذقية، يستنكر الوضع الحاضر في هذه الحكومة ويعلن مقته لهذا الانفصال الذي أدى إلى إفقار هذه المنطقة، وضياع ثروتها وتحميلها عبئاً لا يتناسب مع حالة هذا الشعب الفقير الذي يقدّم كل ما يجْنيه للحكومة باسم الضرائب، ولا نكون مُغالين إذا قلنا إن أكثر السكان يكتنفهم الجوع ويقتاتون بالنبات بدلاً من الخبز، وكل ذلك ناشئ عن هذه التجزئة القتّالة التي أدت إلى انحطاط مستوى الشعب الاقتصادي، والأدبي والاجتماعي إلى درجة لا يصحّ السكوت عنها، وهذا يتنافى مع صك الانتداب المفروض على هذه الأمة فرضاً. ونريد أن نصارح حضرتكم بأنه لا يوجد رجل فيه ذرة من محبة لوطنه وعزة النفس يرضى بالوضع الحاضر في حكومة اللاذقية.

ثانياً: إن أماني ورغبات سكان منطقة اللاذقية تتمثل في مطالب دمشق الوطنية، إننا نؤيد هذه الأماني الوطنية التي تنصّ على وحدة البلاد واستقلالها.

ثالثاً: إننا نشارك الوطنيين في دمشق شعورهم بالاحتجاج على أعمال السلطة التي قامت بها من نفي وسجن وإرهاق وخاصة طرد الطلاب.

رابعاً: نطالب بإلحاح إعادة المبعدين السياسيين الذين لا يجيز قانون ولا إنسانية إبعادهم عن بلادهم وحرمانهم من ممارسة حقوقهم الطبيعية التي حَبَاهم بها الخالق.

وأخيراً نصرّح لحضرتكم أن [الحلّ الوحيد لهذه الفوضى هو إعادة دستور الأمة الذي سنّته الجمعية التأسيسيّة وإعلان وحدة البلاد واستقلالها ولتأكيد مصالحها الأدبية] (عن جريدة الأيام الدمشقية). [٢١٠]

عريضة من أهالي طرطوس إلى المفوض السامي ١١ شباط ١٩٣٦:

نحن المسلمين العلويين في قضاء بانياس (حكومة اللاذقية) نتشرف بأن نعرض لفخامتكم ما يأتي:

منذ خمسة عشر عاماً خلت كان ممثلو الانتداب قد قرّروا فصل بلاد العلويين عن جسم الحكومة السورية بحجة، أننا اقل ثقافة من السوريين ولأسباب عنصرية تقضي بذلك. وكان القصد من هذا الانفصال كما قيل لنا هو النهوض بالبلاد علمياً وثقافياً وأدبياً وزراعياً واقتصادياً ومالياً بجو هادئ بعيد عن تدخل السوريين بشؤوننا حيث اعتبرنا أقلية علوية وذلك نتمكن في المستقبل من ممارسة حقوقنا بأيدينا عند إعادة هذا الجزء من سورية لكيانه.

ويؤسفنا يا فخامة العميد أن نصارحكم بأننا لم نجد للآن أدنى فائدة من هذا الانفصال الذي زعموا بأن كان ولم يزل لمصلحتنا فقط.

وإليكم البراهين والحجج الواضحة على ذلك:

١- إن الثقافة التي وعدنا بنشرها في جبالنا لم نكد نرى لها من اثر نظراً لقلة المدارس الرسمية ولإهمال الاعتناء بالقليل منها التي لم تأت بالفائدة المنتظرة خصوصاً والحكومة المنتدبة اقتنعت بفقر الآباء لعدم مقدرتهم على تقديم نفقة تعليم أبنائهم بالمدارس العالية.

٢ـ إن وظائف الدولة وإدارتها بأيدي أناس غرباء عنّا، ونحن مكلفون لتأمين رفاهيتهم على قاعدة: الغُرْم علينا والغُنم لغيرنا بينما شبابنا المثقفون يتجولون بدون عمل.

٣ـ إننا نشكل سبعين بالمئة من سكان المنطقة، وندفع الضرائب بمثل هذه النسبة، ومع هذا لم تفسح الحكومة مجالاً لأبنائنا بالوظائف ولم تخصص لنا منها ما يعادل ٤٪ من مجموع وظائف الدولة.

٤ـ إذا احتجّت علينا الحكومة المنتدبة بعدم الكفاءة فالجواب على وجهين: إما أن يكون شبابنا أكفاء مثقفين ولا يعترف لهم بهذه الثقافة، وإما أنها لم تقم بالتعهدات التي تعهدت لنا بها، وإذا لم يتسن الاعتناء بتثقيفنا وتدريب أبنائنا طيلة هذه المدة فسوف لا يتسنّى لها ذلك بمئات السنين.

٥ـ إن حالتنا الزراعية والاقتصادية آخذة بالتقهقر والانحطاط لكثرة الضرائب والرسوم التي أرهقت الملاّك وسدت عليه كل طرق التفكير بأمر تسميد أرضه، والاعتناء بغرسها.

٦ـ إن احتكار شركة (المونوبول) المورد الوحيد الباقي لدينا وهو التبغ، وجعلنا تحت رحمتها تتلاعب بالمساحة والأسعار كيفما شاءت دون أن تخصص لأبنائنا من وظائفها الكثيرة ما يعادل واحداً بالمئة كان العامل الأكبر لإفقارنا وشل زراعتنا.

٧ـ إن الحكومة منحتنا مجلساً نيابياً جردته من كل قوّة تشريعية أو إدارية أو مالية، وبدلاً من أن يكون لأبناء البلاد رأي بإدارة شؤونها فقد وضعت على رأس كل دائرة مواطناً فرنسياً براتب ضخم يتصرّف بكل كبيرة وصغيرة دون أن يكون لأبناء البلاد أقل رأي فيها.

٨ـ سببت لنا هذه الأوضاع زيادة بالنفقات لكثرة الموظفين الذين يمكن الاستغناء عن أكثرهم لولا هذا الانفصال مما لم يعد بوسع أهالي البلاد القيام بهذه النفقات الباهظة.

ومما تقدم يا فخامة العميد ترون أن هذا الانفصال لم يأت بالفائدة المنتظرة، بل كان ضرراً فادحاً على البلاد بصورة عامة، وعلى المسلمين العلويين بصورة خاصة حيث لا قيمة إلا لمطالب بعض زعماء معروفين ونواب معينين لا يخفون على الحكومة يرون في دوام هذا الحال مصلحتهم الشخصية.

وعليه وبعد التفكير رأينا أن الحل الوحيد لهذه الحالة السيئة التي نعيش بظلّها وتعاني منها البلاد الأمرّين هو رجوعنا لأحضان الحكومة السورية، وإذا كان قصد الحكومة المنتدبة ورغبتنا بانفصالنا عن السوريين الشفقة علينا باعتبارنا أقلية فنحن مع شكرنا لها وتقديرنا لهذه العاطفة نقول بكل طيبة خاطر: عودي بنا إلى ما كنا عليه، ونحن أكثر شكراً أو أشد امتناناً [لأننا نعتبر أنفسنا مسلمين قبل أن نكون علويين ولأننا نرى المسلمين العلويين وسواهم في سورية أكثر راحة وأوفر هناء منا].

وبمناسبة دعوة الحكومة المنتدبة لبعض وجوه وزعماء ونواب المسلمين العلويين وموظفيهم ومحاولة إقناعهم بتأييد الوضع الحاضر فإننا نعلن رغبتنا [بوحدة البلاد على أساس اللامركزية الإدارية حسب المطالب المرفوعة من الزعماء السادة: منير العباس - حامد المحمود - الشيخ علي شهاب - الشيخ علي محمد كامل - يونس إسماعيل، وأتباعهم]، راجين التوصل بتحقيق هذه المطالب ورفع عريضتنا هذه للجنة الشؤون الخارجية في البرلمان الفرنسي وبعض الأمم، وتفضلوا وفيها ما زيد على ٥٠٠ توقيع من مختلف الفئات رؤساء روحيين - وجوه وشباب مثقفين - مزارعين). [٢١١]

عريضة من علويّي لواء الإسكندرونة إلى المفوض السامي ٤ آذار ١٩٣٦:

نحن العلويين في لواء الإسكندرونة نعرب لفخامتكم عن استنكارنا واستيائنا الشديد من قيام فئة من موظفي الحكومة في هذا اللواء بتوقيع عريضة لرفعها لفخامتكم ولعصبة الأمم تنافي أمانينا وأماني البلاد السورية عامة وترمي إلى تجزئة اللواء عن سورية وتقر الوضع الحاضر الذي كان وبالاً على هذه الطائفة وسبباً في تأخرها في شتى مجالي حياتها، وكان استياؤنا شديداً من اتخاذ بعض هؤلاء الموظفين نفوذهم واسطة لتوقيع هذه العريضة بإحراج موقف الشعب وعرقلة قضاياه الفردية، فنحن نعلن لفخامتكم أن القائمين بهذه الحركة هم من الموظفين والجماعة المأجورين الذين لا يؤخذ بكلامهم، ولا يمثّلون إلا أنانيّتهم وشخصياتهم المعروفة.

فنحن نطلب من السلطة المنتدبة أن تقف على الحياد وتمنع جميع موظفيها من التدخل بهذه المهمة السياسية ومن ثم تترك للشعب الحرية التامة في إبداء رغائبه والتعبير عن آرائه بصراحة تامة.

[أمّا إطلاق كلمة الأقلية على المسلمين العلويين فذلك مالا نقره ولا نعترف به لأن العلويين هم عرب وسوريون وإسلام وتربطهم بهذه الكتل الثلاث كل الروابط المتينة]، وأمّا اتخاذ التفرقة المذهبية التي اندثرت في القرن العشرين أساساً لهذه التجزئة فذلك ما نرفضه رفضاً باتاً ونعلن لفخامتكم [تعلقّنا الشديد بالوحدة والاستقلال التام]، ونقدّم لكم أمانينا ومطالبنا الحيوية التي هي أماني البلاد السورية عامة وهي:

١- تحقيق الوحدة السورية بدون قيد أو شرط.

٢- إعادة دستور ١٩٢٨ كما وضعته الجمعية التأسيسية.

٣- إعادة الحياة الطبيعية إلى البلاد السورية والعفو عن المسجونين والمعتقلين بنتيجة الاضطرابات الأخيرة بدون استثناء وإعادة المبعدين عامة إلى وطنهم.

٤- عقد معاهدة مع فرنسا تضمن لسورية الوحدة والحرية والاستقلال التام.

وتفضلوا يا صاحب الفخامة برفع احتجاجنا ومطالبنا هذه إلى وزارة الخارجية الفرنسية وإلى جمعية الأمم. (٢١٢)

مذكرة إلى رئيس لجنة الشؤون الخارجية في البرلمان الفرنسي بواسطة الرئيس هاشم الأتاسي من شباب جبل العلويين.

يا حضرة الرئيس: إن الكلمات التي تقرؤونها هي جزء من تاريخ شعب حكمت عليه الحظوظ أن يحمل في دنياه ردحاً طويلاً من الزمن قد تولينا فيها ـ بمناسبة المفاوضات القائمة اليوم حول تقرير مصيره ـ مهمة المؤرخ الأمين، أما هذا الشعب المعذب المغلوب، وأما هذا الجزء المحزن من التاريخ فمسرحه حكومة اللاذقية، عدده بحسب إحصاءات حديثة (٣٤٣٠٠٠ نسمة) وأرضه بحسب تحديد جديد (٣٤٤ , ٠٠٠ هكتاراً) ومع ذلك فإن البؤس قد تسرب إليه بمقدار يدعو إلى الذعر والهلع والحزن.

هذه مقدمة سريعة، وبعدها اعتماداً على ما نعهده بشخصكم الكريم من البلاغ في الدفاع عن قضية سورية الاستقلالية، والرغبة الأكيدة في إقرار هذه القضية على وجه منطقي صحيح، واعتماداً على الإنصاف النبيل الذي تتحلون به يا حضرة الرئيس، لنا الشرف أن نطلعكم على النموذج من الحكم الذي هيمن ستة عشر عاماً على البلاد المسماة بحكومة اللاذقية.

السخرة: رغبت السلطة في بدء الاحتلال أن تشق شبكة من الطرقات الواسعة في الجبال والسهول فسنّت لذلك قانون السخرة، والسّخرة حرّمتها جمعية الأمم، وتحرّمها دساتير العالم، وقامت من وراء هذا القانون حراب الجند تحشد أهل القرى بقسوة وعنف لشق هذه الطرقات، ثم طال العذاب وقصُر الصبرَ فتذمر المُسَخَّرون ألف مرّة من هذا القانون المرهق، ونشروا ظلامتهم على المقامات السامية في اللاذقية وبيروت، وأوصلوا في ١٨ أيلول ١٩٢٨ بواسطة الوفد السوري صراخ نفوسهم المتألمة إلى جمعية الأمم، ولكن حراب الجند ظلّت وستظلّ حتى في أيام الحراثة والحصاد وتربية دودة الحرير وقطاف الزيتون تعمل على حشد المواشي البشرية في طريق الذل والإرهاق، أتكون السخرة يا حضرة الرئيس لوناً من ألوان النعيم الذي يغبطنا عليه المسيو روبير دي كيه؟!!

الضرائب: المباشرة من الضرائب وغير المباشرة قامت على سنبلة القمح ومحراث الفلاح، أما الأساس الذي بنيت عليه الضريبة فلم يكن في يوم من الأيام يتفق مع مقدرة المكلف على الدفع، وإن شيئاً من التعديل لم يدخل على هذا الأساس المرهق الذي فرضت بموجبه الضريبة أي أن المكلف في حكومة اللاذقية يحتم عليه قانون الضريبة، أن يدفع رغم هذه الأزمة المسيطرة ورغم هبوط أسعار الإنتاج ما كان مترتباً عليه أيام الرخاء ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إن المكلف كان باستمرار عرضة لزيادة تطرأ على بعض الضرائب فبينما هو يدفع عام ١٩٣٣ على العقار نفْسه عشرين ليرة أو أكثر، ونكتفي بالتدليل الموجز على هذا القول بالضريبة العقارية على الأملاك المبنية فهذه الضريبة بنيت على تخمين قديم للإيجارات جرى منذ سنوات أيام كانت أجور الأملاك مرتفعة، وليس من أن أثمان العقارات المبنية، قد هبطت إلى أكثر من الثلثين، فبدلاً من أن تعمد دوائر الماليّة في اللاذقية في مثل هذه الحال إلى تخفيض الضريبة التي طبقت على مقدرة المكلف رأيناها ترسل عام ١٩٣٢ لجنة تخمين جديدة لم تُراعِ في مهمتها الأزمة المستفحلة ولم تحسب لها حساباً فقدرت أجور الأملاك أضعاف ما كانت عليه وبذلك ضُوعفَتْ الضرائب والرسوم، أضف إلى كل هذه الأساليب الجباية المرهقة التي لا تتفق مع الإنسانية في شيء.

الزراعة: والزراعة الحديثة الفنية لا ظل لها في حكومة اللاذقية، فالفلاح لا يزال يحرث أرضه على الطريقة التقليدية، بيد أننا لا نفرغ من هذا القول حتى يقوم في أذهاننا أنه كان للزراعة في هذه المنطقة في زمن من الأزمان رحمه الله، مركز يدعى (مركز بوقا الزراعي) وهو يقوم على خمس بنايات جميلة كلّف بناؤها الحكومة مما يزيد على ١٠٠,٠٠٠ ل.س.

ومن سنة ١٩٢٣ بدأت هذه المؤسسة تنفق ٣٣,٠٠٠ ل.س في السنة وتنتج ٦٠٠٠ ل.س حتى ١٩٣٣ فيكون العجز الذي أصاب ميزانيتها في عشر سنين ٢٧٠ ألف ليرة سورية، ولم يكن هذا العجز ناتجاً عن إفلاس في أراضي (بوقا) بل هو ناتج عن إفلاس نظريات المسيو (دلبوسي) الذي كان قائماً على إدارتها، ولكن موظفي اللاذقية الحريصين على كرامة زملائهم، ولو كثرت أخطاؤهم ـ لم يكلفوا هذا الموظف بترك منصبه، بل وجدوا أن المتناول الأقرب هو أن يتخلوا عن هذه المؤسسة بكاملها إلى فئة من الرهبان الفرنسيسكان لقاء ٧٩ ألف ليرة يدفعونها في مدة (٢٥سنة) أقساطاً، ورأت الحكومة في الوقت نفسه ـ لحكمة نجهلها ـ أن تقدم إعانة سنوية إلى فئة الرهبان قيمتها اربعة آلاف ليرة لقاء تعليم ثلاثين يتيماً.
وقد أهملت الحكومة إلى جانب كل هذا حماية الزراعة من الآفات الطبيعية (الحميرة مثلاً) التي التهمت المواسم وهددت البلاد بالقحط والمجاعة.

المصرف الزراعي: أما قروض المصرف الزراعي فينالها أبناء البلاد كل بحسب محسوبيته وزلفاه، أي إن المصرف الزراعي في اللاذقية هو واسطة لإرضاء فئة معينة، لا واسطة لإنعاش الزراعة.

المشاريع العمرانية: وراحت الحكومة تتبع الخطوة بالخطوات، والهفوة بالهفوات فاعتمدت عشرات ألوف الليرات أقامت بها كازينو في اللاذقية وآخر في مصيف (صلنفة) في حين إنّ الواجب كان يحتم عليها أن تستعيض عن هذه المشاريع الكمالية بمشاريع زراعية تستفيد منها الأيدي العاملة كمشروع لري من نهر (السن) مثلاً الذي استحضرت الحكومة لدرسه المهندسين الأخصائيين فوضعوا عنه التقارير الضافية التي أهملت فيما بعد، ولكن حكومة اللاذقية أبت إلا أن تقدم الكمالي من المشاريع المهم على الأهمّ منها.

الصحة والإسعاف العام: لا ندري بالضبط المبالغ التي أرصدت لهذه المؤسسة الإنسانية، ولا ندري كذلك بالضبط كيف أنفقت هذه المبالغ ولكننا ندري أن أصغر مؤسسة طبية في بيروت لديها من المعدات الحديثة والأطباء الاختصاصيين مالا أثر له في دوائر الصحة والإسعاف العام في حكومة اللاذقية، وندري فوق ذلك أنه ليس في كل المستوصفات التي وضعتها الحكومة تحت تصرّف أطبّائها سوى الكينا والقطن وصبغة اليود، ومثل هذه العقاقير، ولو أننا في معرض النقاش لألفنا لكم يا صاحب العزّة الرئيس اللوائح الطوال بأسماء البؤساء المسلولين الذين يلفظون أنفاسهم في زوايا الأكواخ بدون ما عطف أو إحسان من قبل دوائر الصحة في حكومة اللاذقية.

القضاء: الفكرة النيرة يا حضرة الرئيس الحجة المقنعة، الإقرار، البينة الخطيّة والشخصية، اليمين، القرينة القاطعة، الوجدان، كل هذه الأشياء كثيراً ما يصرف القضاء في حكومة اللاذقية النظر عنها إذا (توصية) أو (تلفَنة) تنزل عليه من مصدر كبير.

واسمحوا لنا يا حضرة الرئيس ألا نكتمكم، ونحن في معرض الحديث عن القضاء، ارتيابنا وحذرنا من المساومات التي لابد أن تكون لعبت دورها الهام.

الحرية الفكرية: والسلطة إلى جانب كل هذا تقيم على الأقلام والاجتماعات والألسنة الرقابة الضيقة الصارمة فتحرم علينا ما تجود به على المستعمرات - فشرعة ٢٨ آذار ١٩٠٧ تجيز لسكان مراكش وكونغو، ومدغشكر الاجتماع بدون سابق إنذار، أما نحن فقانون قمع الجرائم الشهير يبيح لرجال القوة المسلحة أن ينتهكوا حرمة منازلنا الخاصة، والاعتداء على حرياتنا الشخصية المكفولة في دستورنا، وفي دساتير العالم.

ولعلنا لا نكون على شيء من المبالغة إذا أكدنا لكم يا حضرة الرئيس أن بعض رجال الحكومة لم يتورعوا عن العبث بالوديعة التي يضعها الناس في صندوق البريد لمعرفة ما يدور بينهم من أسرار ومكاتبات وهذا أمر مستنكر مشجوب، ومع هذا فإن المسيو روبير دي كيه يتغنى بحسن الإدارة والرخاء في بلاد اللاذقية.

التوظيف والموظفون: التوظيف فُتحت أبوابه لكل متزلف يحمل المباخر، ولهذا رأينا المشهورين بالمكر والجهل يتسأثرون بمعظم الوظائف، أما الكفاءة والنزاهة والإباء فقلما كان لها في كراسي الحكم نصيب، فكان إذاً من الطبيعي أن نرى القاضي يجعل من القانون آلة لتنفيذ مآرب الناس وتسكين أحقادهم وضغائنهم، والإداري المتغطرس يُلقي احتقاره في وجوه الناس ويغمس أصابعه.

والجابي يشدّد على المزارع المكلف ويسوقه كالمجرم، ويحجز متاعه، وماشيته وهي عماد حياته لاستيفاء الضريبة الظالمة، والدركي الصغير يشتم الناس على قوارع الطرق وبالساقط البذيء من الألفاظ، ويصفعهم صفع السيد للعبيد، رأيناهم يفعلون كل ذلك لأن للموظفين في حكومة اللاذقية يا حضرة الرئيس حصانة الطاغية تنام القوانين على بابها.

صرخات الشعب: أما الصرخات، الصرخات الدامية التي جمع فيها الشعب اليأس والجوع والظمأ، فكلها ماتت على آذان الحكام.

الوحدة السورية: فمن غمار هذه الأخطاء التي ضبطناها في هذه المذكرة عصفت بالشعب في حكومة اللاذقية نزعة دفعت في طريقها حتى أصدقاء السلطة الذين (تدلّهوا) في زمن بعشق الحكم القائم للالتفاف حول الوحدة السورية باعتبارها الملجأ الأخير لأمانيه في السياسة والاقتصاد والاجتماع ولا تخطئ إذا أكدنا لكم يا حضرة الرئيس [أن الذين أعلنوا تأييدهم للوحدة السورية هم أكثرية ساحقة في هذه البلاد]، فالأوساط الشعبية التي طلب رجالاتها الوحدة راحت تهلل لهم، وتلتف حولهم كالبناء المرصوص في حين إن الأوساط التي أرغم رجالاتها من قبل السلطة بطلب الانفصال تمزّقت شرّ تمزيق، وانْضمَّتْ فلولها إلى جبهة طلاب الوحدة.

طلاب الانفصال: ويلوح لنا أن رجال الحكومة قد أثر فيهم انسجام عواطف أبناء البلاد والتحامها حول فكرة الوحدة فانطلق الغضب من صدورهم على أنصارها انطلاق الأفاعي وراحوا يزجونهم في السجون ويستكتبونهم في أجواء مروعة بالضغط والتهديد، عرائض بطلب الانفصال ويقيمون في مكاتبهم الرسمية مكاتب دعاية يقاد الناس إليها مرغمين للمناورة والتطبيق.

ولم يقف طغيانهم عند هذا الحد بل رأيناهم - منذ أيام خلت - يدفعون شرذمة من الذين أشربوهم الانفصال وسمحوا به، للقيام بمظاهرات شبه مسلحة في مدينة بانياس ترمي إلى إثارة الحفائظ في البلاد.

على أننا نحن طلاب الوحدة، لا نيأس حين نجد حريتنا تضارّ، بل نغتبط جد الاغتباط لأننا نرى في هذه المصادرة شكلاً من أشكال العناء الذي تقاسيه السلطة القائمة في إسكات أصوات الحق ولكن اسمحوا لنا يا حضرة الرئيس أن نحول أنظارنا عن الماضي إلى المستقبل فالماضي مضى ولن يعود فإن كان مجداً فقد سجله التاريخ وإن كان ذلاً فخيرٌ لنا ألاّ نراه.

أمانيّ الشعب: والآن وقد أصبحت قضية مصيرنا على مائدة المفاوضات لنا الشرف أن نتوسل إليكم باسم أولئك الألوف الجائعين الذين أرهقهم النظام الحكومي القائم في البلاد؛ ونتوسل فوق ذلك باسم الحرية والحق، أن تتوسطوا لنا لدى حكومتكم الفخيمة بإخراجنا من هذا المستنقع الراكد الذي نموت فيه، وبإرجاعنا إلى أحضان أمنا سورية، التي ساهمت وستساهم إن شاء الله في حضارة العالم راجين رفع مذكرتنا إلى وزارة الخارجية ورئيس لجنة المفاوضات الفرنسية وجمعية الأمم.

صافيتنا في ٩ نيسان ١٩٣٦ (عبد الرحمن إبراهيم - رفيق المقدسي - رفيق بيطان - أديب طيار)[٢١٣].

من المفوض السامي للجمهورية الفرنسية إلى رئيس مجلس الوزراء في الجمهورية السورية

لي الشرف بأن أقدم إلى دولتكم طياً نص القرار رقم. . بتاريخ. . . . المتضمن نقل اختصاصات السيادة على أراضي اللاذقية وجبل الدروز إلى الحكومة السورية وتعيين النظام الخاص الإداري والمالي لهاتين المنطقتين.

وهذان النصّان هما نتيجة الاتفاق الذي تم في باريس فيما يتعلق بضم هاتين المنطقتين إلى دولة سورية بالنظام الإداري والمالي الذي استنسب الاحتفاظ به لهاتين المنطقتين وفاقاً للمبادئ التي حددتها عصبة الأمم.

إن المفوض السامي. . . بناء على صك الانتداب المؤرخ في ٢٤ تموز ١٩٢٢. . . . وبناء. . . ولمّا. . . . قرر ما يأتي:

مادة أولى: إن أراضي اللاذقية هي جزء من الدولة السورية.

مادة ثانية: تستفيد هذه الأراضي ضمن دولة سورية من نظام خاص إداري ومالي حددت أساليبه في النظام الملحق.

مادة ثالثة: مع الاحتفاظ بأحكام النظام المذكور يسري على أراضي اللاذقية دستور الجمهورية السورية وقوانينها وأنظمتها العامة.

مادة رابعة: عند إبرام المعاهدة الفرنسية السورية يحل هذا القرار والنظام الملحق به في دور التنفيذ بدلاً من النصوص التي كانت تسري على هذه الأمور.[٢١٤]

مؤتمر القرداحة ١٩٣٦:

اجتمع الشيوخ الروحيون المسلمون العلويون في القرداحة عام ١٩٣٦ وتداولوا في أمر الانتداب الفرنسي لسورية وقيامه بمساعدة المبشرين اليسوعيين وردوا على افتراءات الفرنسيين بشأن إسلامهم وصدر عنهم البيان التالي بعد انتهاء اجتماعهم وأردفوه بمذكرة رفعت إلى الخارجية الفرنسية وعصبة الأمم.

بسم الله الرحمن الرحيم

نحن الموقعين أدناه الشيوخ الروحيون المسلمون العلويون دحصنا لما يشاع عن أن المسلمين العلويين غير مسلمين وبعد التداول بالرأي والرجوع إلى النصوص الشرعيّة قررنا البندين الآتيين :

البند الأول: كل علوي فهو مسلم يقول ويعتقد بالشهادتين ويقيم أركان الإسلام الخمسة .

البند الثاني : كل علوي لا يعترف بإسلاميته أو ينكر أن القرآن الشريف كتابه وأن محمداً صلى الله عليه وسلم نبيه فلا يعتبر بنظر الشرع علوياً ، ولا يصح انتسابه للعلويين ، والعلويون منه بُرآء ، لقوله تعالى : (هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملّة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين) .

وإن مذهبنا في الإسلام هو مذهب الإمام جعفر الصادق ، والأئمة الطاهرين سالكين بذلك ما جاء به خاتم النبيين سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ حيث يقول : (إني تاركٌ فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي الثقلين ، أحدهما أعظم من الآخر : كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، وعترتي أهل بيتي ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض) .

هذه عقيدتنا نحن العلويين وفي هذا كفاية لقوم يعقلون.

التواقيع : الشيخ صالح ناصر الحكيم ـ الشيخ يونس حمدان ـ الشيخ عيد ديب الخيّر ـ الشيخ كامل الصالح ـ الشيخ حسن حيدر ـ القاضي المذهبي في اللاذقية ـ الشيخ ع[illegible] القاضي المذهبي في طرطوس ـ الشيخ علي عبد الحميد [illegible] الحامد القاضي المذهبي في مصياف ـ الشيخ يوسف غزال المفتي في قضاء الحفة[٢١٤] .

العودة إلى أحضان الوطن الأم:

في عام ١٩٣٩ قامت الحرب العالمية الثانية ، وانتصر فيها هتلر أول الأمر واجتاح فرنسا وأقام حكومة تأتمر بأمره دعيت حكومة فيشي ، غير أن الجنرال الفرنسي ديغول لجأ إلى بريطانيا وشكل حكومة فرنسا الحرة ووعد الشعوب الرازحة تحت الاستعمار الفرنسي بالاستقلال ، وفي عام ١٩٤٣ فاز الوطنيون في سورية بالانتخابات وشكلوا حكومة وطنية .

وعندما انتهت الحرب في أيار ١٩٤٥ نكث الفرنسيون بوعودهم، ورفضوا منح سورية الاستقلال فثار الشعب العربي في سورية بكل فئاته، واصطدم مع الفرنسيين في عدة محافظات فعمد الفرنسيون إلى قصف مدينة دمشق في ٢٩ أيار ١٩٤٥ ، وهاجموا مبنى البرلمان، وقتلوا حاميته من الدرك السوري، فارتفعت أصوات الاستنكار ضد هذا العمل الهمجيّ الوحشيّ، وأرسل الشيخ صالح العلي قائد الثورة الأولى ضد الفرنسيين البرقية التاريخية التالية إلى المسؤولين الفرنسيين قال فيها: (سيوف المجاهدين تتململ في أغمادها، ونفوسهم في غليان واضطراب لا تقبل أن تمتهن كرامة الأمة، وتمزّق حرمة الاستقلال إننا للمعتدين بالمرصاد، وسيرى الظالمون أيّ منقلب ينقلبون).

وعرضت قضية سورية على مجلس الأمن الدولي ومنظمة الأمم المتحدة وأجبرت فرنسا على مغادرة سورية، ومنحها الاستقلال الكامل وبدون شروط، فبدأت سحب قواتها من سورية وخرج آخر جندي فرنسي من بلدنا الحبيب في ١٦ نيسان ١٩٤٦ .

وهلّ فجر ١٧ نيسان وليس في سورية العروبة أي جندي، أو نفوذ فرنسي مستعمر دخيل، ورفرف علمٌ واحدٌ على جميع أجزاء سورية التي مزّقها المستعمر حين فرض نفسه منتدباً عليها، والتقى الأخوة المشتّتون وبرهنوا على أنهم عرب أمجاد أشقاء، وبدأت العقول والنفوس والأيدي تبني وطناً حراً موحّداً يسير في ركب الحضارة والتقدم.

المراجع

١٩٠ ـ الكتاب الذهبيّ لجيوش الشرق ص٢٧ .

١٩١ ـ الكتاب الذهبيّ لجيوش الشرق ص١١٠ .

١٩٢ ـ الكتاب الذهبيّ لجيوش الشرق ص١٠٩ .

١٩٣ ـ الكتاب الذهبيّ لجيوش الشرق ص١١١ .

١٩٤ ـ مجلّة دراسات اشتراكية العدد ٩٣ ص٧٦ .

١٩٥ ـ مجلّة دراسات اشتراكية العدد ٩٣ ص٧٧ .

١٩٦ ـ مجلّة دراسات اشتراكية العدد ٩٣ ص٧٩ .

١٩٧ ـ مجلّة دراسات اشتراكية العدد ٩٣ ص٨١ .

١٩٨ ـ مجلّة دراسات اشتراكية العدد ٩٣ ص٨٦ .

١٩٩ ـ كتاب سورية ولبنان ص١٤٥ وما بعدها .

٢٠٠ ـ كتاب سورية ولبنان ص١٥٩ .

٢٠١ ـ كتاب سورية ولبنان ص١٧١ .

٢٠٢ ـ كتاب سورية ولبنان ص١٦٦ وما بعدها .

٢٠٣ ـ مراحل استقلال دولتي لبنان وسورية ص٧٦ .

٢٠٤ ـ الأسد الصّراع على الشرق الأوسط ص٣٦ .

٢٠٥ ـ الأسد الصّراع على الشرق الأوسط ص١٧ .

٢٠٦ ـ الأسد الصّراع على الشرق الأوسط ص٢٧ .

٢٠٧ ـ الأسد الصّراع على الشرق الأوسط ص٤٣ .

٢٠٨ ـ الأسد الصّراع على الشرق الأوسط ص٤٩ .

٢٠٩ ـ المشرق العربيّ في مواجهة الاستعمار ، قراءة في تاريخ سورية المعاصر ص٣٩٩ وما بعدها .

٢٠٩ ـ مكرّر تاريخ العلويين للطويل نقد وتقريظ الشيخ عبد الرحمن الخيِّر ص١٢ .

٢١٠ ـ المشرق العربيّ في مواجهة الاستعمار، قراءة في تاريخ سورية المعاصر ص٤٠٥ .

٢١١ ـ المشرق العربيّ في مواجهة الاستعمار، قراءة في تاريخ سورية المعاصر ص٤٢٤ .

٢١٢ ـ المشرق العربيّ في مواجهة الاستعمار، قراءة في تاريخ سورية المعاصر ص٤٢٦ .

٢١٣ ـ المشرق العربيّ في مواجهة الاستعمار، قراءة في تاريخ سورية المعاصر ص٤٠٨ .

٢١٤ ـ المشرق العربيّ في مواجهة الاستعمار، قراءة في تاريخ سورية المعاصر ص٤٣٨ .

٢١٥ ـ النّبأ اليقين عن العلويين ص١٨٣ .

مصادر الكتاب

١ ـ تاريخ الفكر ومشكلات السلطة السّياسيّة في المشرق العربيّ في عصر النّهضة . د . محمد مخزوم . ط١ بيروت ١٩٨٦ .
٢ ـ الأسد الصراع على الشرق الأوسط . باتريك سيل . لبنان ، طرابلس .
٣ ـ إسلام بلا مذاهب ط٢ . د . مصطفى الشكعة بيروت ١٩٧١ .
٤ ـ الأعلام للزركلي .
٥ ـ الإمام عليّ صوت العدالة الإنسانيّة . جورج جرداق ط١ بيروت . دار الروائع .
٦ ـ بلاد الشام في القرن التاسع عشر ١٩٨٢ دمشق .
٧ ـ تاريخ حسن آغا العبد تحقيق د . يوسف نعيسة وزارة الثقافة ـ دمشق ١٩٧٩ .
٨ ـ تاريخ الدولة العليّة العثمانيّة . محمد فريد بيروت ١٩٧٧ .
٩ ـ تاريخ الشيخ يوسف علي الخطيب (مخطوط) .
١٠ ـ تاريخ العلويّين . غالب الطّويل ط٣ بيروت ١٩٧٩ .
١١ ـ تاريخ لبنان فيليب حتّي . بيروت ـ نيويورك ١٩٥٩ .
١٢ ـ تاريخ مصر الإسلامية ج٢ . د . جمال الدين الشيّال دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٧ .
١٣ ـ تذكرة الحياة الروحيّة . الشيخ يعقوب الحسن . (مخطوط) .
١٤ ـ حاضر العالم الإسلاميّ ترجمة عجّاج نويهض .
١٥ ـ حرب الجمل وحرب صفّين السيد محسن الأمين . بيروت ١٩٦٩ .
١٦ ـ الحركات الباطنية في الإسلام . د . مصطفى غالب بيروت ١٩٨٢ .
١٧ ـ الحضارة الإسلاميّة في القرن ٤هـ ترجمة محمد أبو ريدة ط٥ بيروت .
١٨ ـ حوادث دمشق اليوميّة تحقيق أحمد عبد الكريم . القاهرة ١٩٥٨ .
١٩ ـ الدولة الأمويّة . محمد الخضري ط١ القاهرة .
٢٠ ـ الدولة العباسيّة : محمد الخضري ط١ القاهرة .

٢١ ـ سورية وفلسطين تحت الحكم العثمانيّ. قسطنطين بازيلي. موسكو ١٩٨٩ .
٢٢ ـ سيف الدولة الحمدانيّ د. مصطفى الشكعة. بيروت ١٩٧١ .
٢٣ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. ط٢ القاهرة ١٩٦٥ .
٢٤ ـ الشرق الإسلاميّ في العصر الحديث حسين مؤنس. ط٢ ١٩٣٨ القاهرة.
٢٥ ـ شعر الجهاد في الحروب الصّليبيّة في بلاد الشّام. د. محمد الهرفي. ط٣ بيروت ١٩٨٠ .
٢٦ ـ الشّيعة في الميزان.
٢٧ ـ الصّليبيّون في الشرق. ميخائيل زابوروف. موسكو ١٩٨٦ .
٢٨ ـ العلويون بين الأسطورة والحقيقة. هاشم عثمان. بيروت ١٩٨٠ .
٢٩ ـ المسلمون العلويّون في مواجهة التجنّي. أحمد علي حسن. ط١ ١٩٨٥ .
٣٠ ـ الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان. حيدر الشهابي. بيروت ١٩٣٣ .
٣١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير.
٣٢ ـ كتاب أخبار الدّول وآثار الأول في التّاريخ. أحمد يوسف القرماني. بيروت.
٣٣ ـ كتاب خير الصّنيعة. الشيخ حسين ميهوب حرفوش (مخطوط).
٣٤ ـ الكتاب الذّهبيّ لجيوش الشرق. ترجمة إدوار البستاني. بيروت.
٣٥ ـ كتاب سورية ولبنان. أديب فرحات. بيروت ١٩٢٣ .
٣٦ ـ كتاب الفلك الدوّار في أسماء الأئمة الأطهار. عبد الله المرتضى. المطبعة المارونية بحلب ١٩٣٣ .
٣٧ ـ كتاب المراجعات. عبد الحسين شرف الدين الموسوي. ط٤ بيروت ١٩٥٨ .
٣٨ ـ لسان العرب لابن منظور. طبعة دار المعارف بمصر.
٣٩ ـ مؤلّفات الشيخ حسين أحمد (مخطوط).
٤٠ ـ مجلّة دراسات اشتراكيّة العدد ٩٣ دمشق.

٤١ ـ مجلّة دراسات اشتراكيّة العددان ٣٥ ـ ٣٦ دمشق ١٩٩٠ .

٤٢ ـ مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا على سورية . تحقيق أحمد غسان سبانو . دمشق .

٤٣ ـ مراحل استقلال دولتي لبنان وسورية . وجيه علم الدين . بيروت ١٩٦٧ .

٤٤ ـ مسرحيّة ديك الجن الحمصي وورد ـ مسرحية شعرية . علي الموسى (مخطوط) .

٤٥ ـ المسلمون العلويّون في لبنان . أحمد علي حسن ، وحامد حسن . ط١ ١٩٨٩ لبنان .

٤٦ ـ المشرق العربيّ في مواجهة الاستعمار . قراءة في تاريخ سورية المعاصر د . ذوقان قرقوط ١٩٧٧ القاهرة .

٤٧ ـ مقدمة ابن خلدون . المكتبة التجاريّة القاهرة .

٤٨ ـ من كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ . وزارة الثقافة دمشق ١٩٨٠ .

٤٩ ـ النّظام السّياسي في الإسلام : المحامي أحمد حسين يعقوب ١٩٨٩ الأردن ـ عمّان ط١ .

٥٠ ـ نظريّة عدالة الصّحابة : المحامي أحمد حسين يعقوب ط١ ١٩٩٢ شركة شمس المشرق ـ بيروت .

٥١ ـ النّبأ اليقين عن العلويّين . الشيخ محمود الصّالح ط٢ دمشق ١٩٩٣ .

٥٢ ـ نهج البلاغة ـ شرح الشيخ محمد عبده . تحقيق محي الدين عبد الحميد . القاهرة ـ مطبعة الاستقامة .

٥٣ ـ الهداية الكبرى . الحسين بن حمدان الخصيبيّ . بيروت . ط١ ١٩٨٦ .

٥٤ ـ يتيمة الدّهر في محاسن أهل العصر . عبد الملك الثّعالبيّ النّيسابوري . تحقيق محي الدين عبد الحميد . ط١ القاهرة ١٩٤٧ .

٥٥ ـ اليمين واليسار في الإسلام . ط٢ ١٩٧٣ بيروت . أحمد عبّاس صالح .

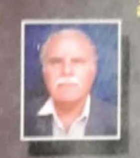
٥٦ ـ العرف الطّيّب في شرح ديوان أبي الطّيّب ، شرح وتحقيق اليازجي ـ دار القلم ـ بيروت .

٥٧ ـ يقظة المسلمين العلويّين في مطلع القرن العشرين . الشيخ عبد الرحمن الخيّر ط١ ١٩٩٦ دمشق .

٥٨ ـ تاريخ العلويين للطويل نقد وتقريظ للشيخ عبد الرحمن الخيّر ط٤ دمشق ١٩٩٦ .
٥٩ ـ عقيدتنا وواقعنا نحن المسلمين الجعفريّين العلويّين للشيخ عبد الرحمن الخيّر ط٩ دمشق ١٩٩٦ .
٦٠ ـ المغمورون القدامى في جبال اللاذقية علي عباس حرفوش . دار الينابيع ـ دمشق ١٩٩٦ .
٦١ ـ لقد شيّعني الحسين : إدريس الحسيني ـ دار النخيل ـ بيروت ط١ ١٩٩٤ .
٦٢ ـ تاريخ حمص/ القسم الثاني/ منير الخوري عيسى أسعد ط١ ١٩٨٤ حمص .
٦٣ ـ الفخري في الآداب السلطانية والدّول الإسلامية . محمد بن علي طباطبا القاهرة ١٣٤٠هـ .

المحتويات





ولد المؤلف في حمص عام 1942 وتخرج من جامعة دمشق عام 1972 حاصلاً على الإجازة في اللغة العربية وآدابها .

وعلّم في ثانويات حمص مدة 40 عاماً .

شارك في العديد من الندوات ونشر العديد من الدراسات الأدبية والاجتماعية والتربوية .

قيد الطبع : المجتمع والدستور في نهج الإمام علي (ع)